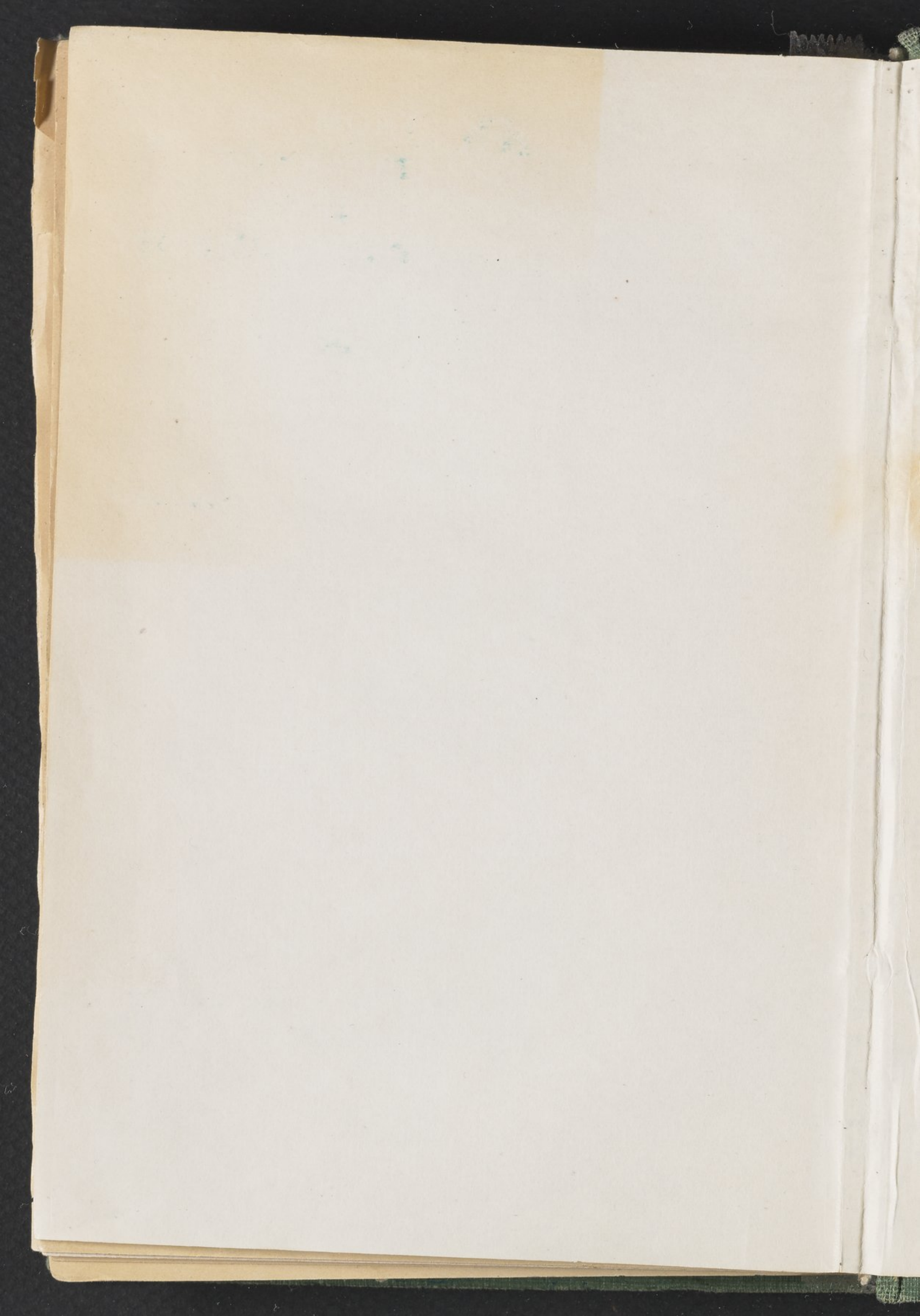

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00972 2160





بسم الله الرحمن الرحيم

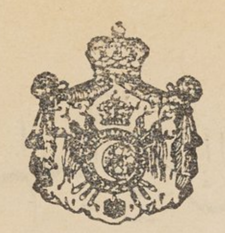
الإهداء

إلى الفلاح المصرى . . .

فهو أول من يتبين الحق واللهفة فى تلك الصرخة الضعيفة يرسلها قلب فتاة شهدت من شقائه ما لن تستطيع نسيانه أبدا . . .

ابنة الشاطىء

لقد اغتنى الفلاحون الآن وانتشر [illegible] والكوكاكولا [illegible] وأصبحت الحكومة تشكو من طلباته وتخاف من جبروت رجاله ولا تستطيع مقاومته
قارئ



عطف جلالة الملك المعظم

على الفلاح المصرى

فى اليوم الثانى عشر من شهر سبتمبر ١٩٣٥ ، تشرف حضرة الأستاذ محمد أمين يوسف وزير مصر المفوض بواشنطن ، بمقابلة حضرة صاحب الجلالة الملك ، فتعطف جلالته وقال :

« إنى لا أعرفك معرفة شخصية كبيرة إلا أنى سمعت عن أعمالك ، وما تقوم به لخدمة بلادك وأرجو أن يوفقك الله إلى إلغاء الضريبة المفروضة على القطن المصرى الذى هو حياة الفلاح ، لأنى أشعر بعطف على الفلاحين وأرجو أن يعمل كل واحد ما يستطيع لمساعدتهم ، ثم إنى أوصيك بأن تدرس وسائل الإنتاج الحديثة ، والتقدم الذى وصلت إليه بلاد أمريكا وهى تكاد تكون قدوة بذاتها لننسج على

منوالها فى بلادنا ، وهناك معدات لدراسة الآفات الزراعية ، فأرجو أن تبحث كل مايتعلق بها ، لتستفيد البلاد مما وصلت إليه أمريكا ، ولنا فى كليفورنيا قنصل نشيط ومجتهد ، وكليفورنيا مشهورة بإنتاج الفواكه والخضر ، وهى تبعد ستة أيام عن العاصمة ، ولكنك تستطيع أن تذهب إليها وترسل إلى الحكومة نتيجة مشاهداتك . »

***

ولست أجد ما أتوج به كتابى هذا ، أفضل من ذلك العطف السامى النبيل ، الذى يغمر به جلالة الملك المعظم ، فلاحنا المصرى العامل . هذا العطف الذى يعرفه كل من تشرف بمعرفة جلالته ، أو سعد برؤية حال المزارعين فى مزارع الخاصة الملكية ، والذى أثار إعجاب المسيو «المابيير برتو» الخبير الفنى الفرنسى ، فقام فى المجمع الزراعى بباريس ، فى ٢١ من نوفمبر الماضى ، يحدث كبار الفرنسيين وذوى العلم والخبرة منهم ، عن النجاح والتقدم العظيمين ، اللذين شاهدهما فى مزارع الخاصة ، وعن عطف جلالة

الملك فؤاد على طبقة الزراع ، وما لهذا العطف من حسن
التأثير والنفع فى البلاد كلها .

***

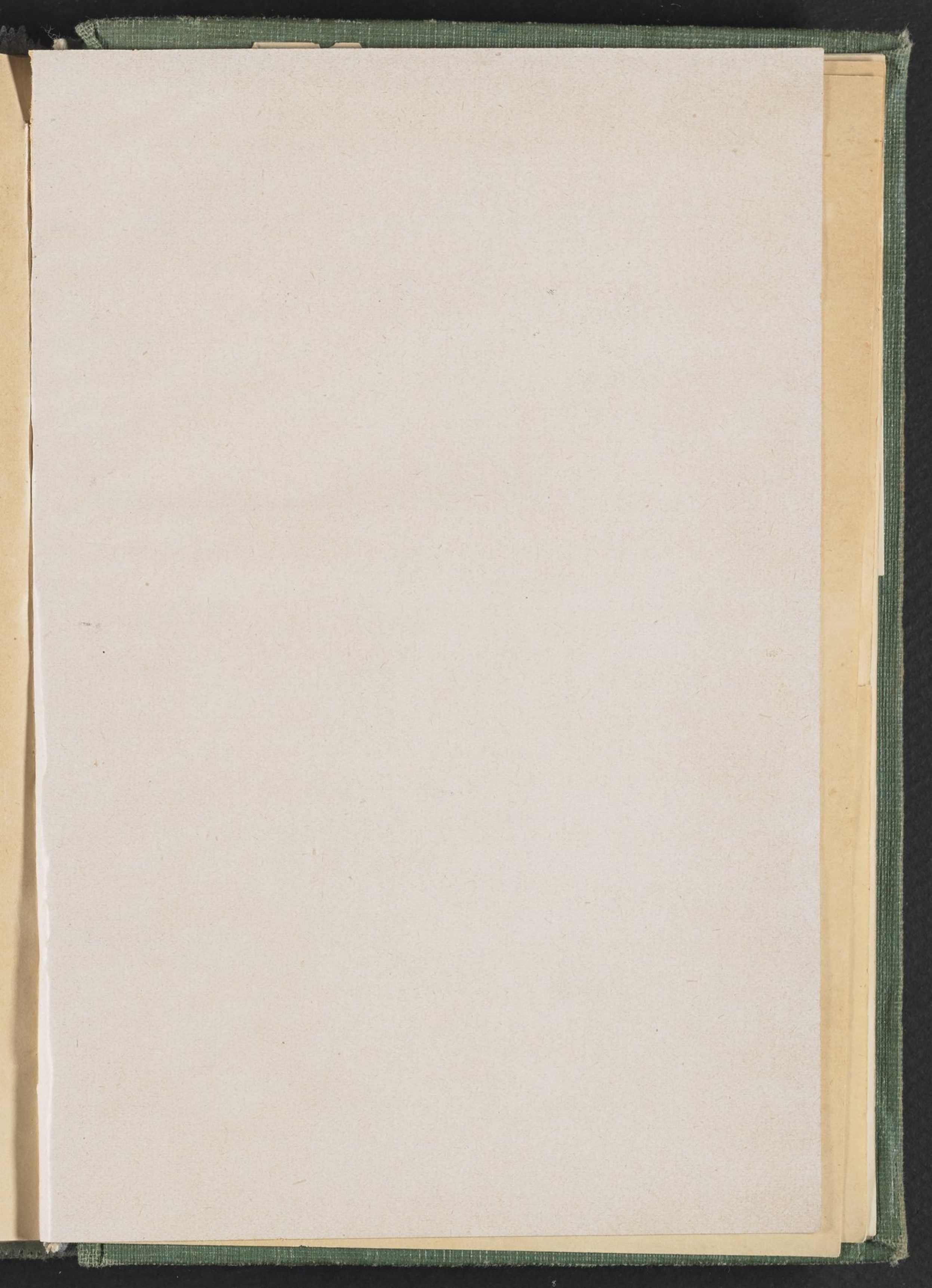
ولن يضيع الفلاح ، مادام له من هذا العطف السامى ،
نور قوى يبدد شيئا من الظلام الحالك الذى يعيش فيه .

ابنة الشاطىء





جمال الريف ، وفتنة الطبيعة



القسم الاول

شقاء الفلاح

فلاحنا المسكين ، كم نظلمه !

قال لى الطبيب : أسبوع واحد فى الريف المصرى الجميل ، كفيل بتهدئة أعصابك الملتهبة وإراحة نفسك المتعبة المكدودة :

فذهبت إلى الريف . . .

ريف مصر الساحر الوديع ، ألتمس فى سكونه نوعاً من العزاء ، وأنشد فى بساطته ، راحة البال وهدوء الذهن المرهق .

***

دخلت القرية وكأنى خلفت ورائى دنيا الضجيج والثورة وطالعتنى صديقاتى الريفيات بوجوههن الكريمة المرحة ، فرأيت فى ابتساماتهن القانعة ، شيئاً كثيراً من العزاء ، ووحياً يغرينى بوضع الحمل الثقيل المرهق الذى يرزح كاهلى تحت ثقله ، ثم استنشقت نفساً طويلا عميقاً وددت

نشرت فى الأهرام فى ١٨ من يونيه سنة ١٩٣٥

فيه لو أحتوى كل ذلك الهواء المنعش فى صدرى الملتهب .

وفى طريقى مررت بالفلاحين . . . جيش مصر العامل القنوع ، وكنز رخائها ونعمتها ؟ فأدركت مقدار إهمالنا هذا الفلاح ، وتنكرنا له وإنكارنا إياه ؟

الفلاح المصرى . . رمز الشجاعة والكرم ، حتى ليجود بلقمته التى يتبلغ بها ، ومثال النخوة والإيثار ، نتمتع نحن على حساب دمائه وقوته وساعده ، ثم لا يضج بالشكوى ، ولا يبدى التذمر والثورة ، صورة الرضاء والقناعة ، يعمل طول يومه ثم تكفيه الكسرة اليابسة ، ابن الطبيعة والفطرة ومثال الصبر والتقوى والإيمان .

***

فلاحنا المسكين كم نظلمه !

منذ دبت الحياة فى وادى النيل ، والناس ينظرون إلى نهر النيل الذى تخفق فيه ومنه الحياة ، نظرة الإكبار والدهشة تسامى هذا الإكبار حيناً من الزمن إلى درجة التقديس والعبادة ، وارتفع إلى حد اليقين بأن حياة الملايين من سكان واديه ، تكمن فى مياهه الدافئة العجيبة ، الخافقة الغنية .

وبين تقديس آبائنا لمياه النيل ، وعظم تقديرنا لفائدة النيل ، جحدنا اليد العاملة التى تستغل الحياة الكامنة فى مياه النيل ، وألهانا ذلك السحر العجيب الذى ينفثه النهر فى صميم الصحراء الملتهبة ، فيجعلها جنة ناضرة ، عن ذلك المخلوق الذى أظهر عظمة النيل ، وأتاح السبيل إلى تحقيق المعجزة . . . معجزة وجود الجنة المصرية بين ذراعين ملتهبتين من الرمال التى تغلى الدم وتصهر العظم !

وإلا فليمض الفلاح بعيداً ، هل يكون النيل بعده إلا دموعاً تسيل على الشاطئين فى كرم وإسراف ، كأنما تبكى ابن النيل البار ؟!

***

الفلاح المصرى !

اليد الكريمة العمياء فى كرمها ، تعمل وتشقى حتى تحصل على أشهى الخيرات ، ثم تنثرها على بنى وطنها الجاحدين ، ولا تنظر هل فيمن يتمتع بثمرة كدحها عدو جاحد ! فما أبلغ هذا العمى الكريم ، وما أنبل ذلك الكرم الأعمى !

ساعد مصر وعضدها الأقوى ، وابنها القنوع البار ، والجواب الساخر اللاذع لمن يقول إن من يزرع يحصد !

يا رحمة الله ! كم زرع فلاح مصر منذ دبت الحياة فى وادى النيل حتى الآن ! وكم يزرع وكم يجد ، فهل حصد الفلاح ؟ أجل حصد ولكن لكل الناس إلا له ولأولاده ، إنه يجهز الوليمة دائما لبطوننا النهمة ، لا لبطنه الجائع المحروم .

النشاط الذى لايفتر ، والجسم الذى لايستقر ولا يهدأ ، والآلة التى تعمل ولا تقف ! ولكن ما الذى جناه ويجنيه ؟ الطعام يتبلغ به ؟ جرعة الماء النظيفة يرتوى بها ؟ الكساء السليم يستتر به ؟ اللهم فاشهد . . .

لقد يمضى النهار طويلا بطيئاً كأنه عمر من الشقاء ، وكل مايناله الفلاح المسكين قرصان من أرغفة الذرة الجافة وبضعة أعواد من حشائش الأرض مهما تفننا فى تسميتها (شيكوريا ، جعضيد ، جلاوين) فلن تزيد على الحشيش الذى نشتريه للأرانب .

وأما المياه ، ففى كل جرعة يتناولها آلاف الجراثيم ، تعمل معنا على استنفاد جهود ذلك المخلوق ، واستلاب قواه ، وتأتى فى مهل على ما احتازه من جلد واصطبار ،

وتأبى عليه أن ينعم حتى بلقمته الجافة القذرة! ولباسه؟ أقسم غير حانثة، أن منه مالا يكفى ولو لستر العورة!

***

ذهبت إلى الريف...

كانت الأرض تتفجر بالحياة! حتى لتكاد قطراتها تنز على سطحها... امتلأت الأرض شبعاً وريا فبدا سطحها يهتز نباته حياة وجمالا وسحراً! وبدت الأشجار فى عنفوان شبابها وقوتها مثقلة بأثمارها الشهية الحافلة بذخر حلاوتها وقد أثقلها الحمل فأحنت رأسها فى حياء العذارى وارتعشت كلما لامسها الهواء أو غردت فوقها الأطيار تغريداً يملأ المكان سحراً وفتنة وجمالا!

دنيا حافلة بالروعة، وحياة ممتلئة بالحياة!

لقد رواها النيل!

نعم، ولكن لولا اختلاط الماء بعرق الفلاح المسكين لما كان لهذه الجنة الناضرة حياة، ولما كان للأرض بالماء اكتفاء!

وغذاها الغرين والسماد!

أجل، ولكنه غذاء جاف ما كانت الأرض لتهضمه

إذا لم يمزج بعرق الفلاح ولولاه إذن ماقيمة الماء ، وما نفع الغذاء ؟

وهذه الأشجار الفارعة الهيفاء ، وتلك الأرض المكتنزة الحية ، هل فكرنا فى ثمن حياتها الذى دفعه الفلاح ؟

لا : ولم التفكير وفيم العناء ، مادمنا نرى خيرات الأرض تملأ الأسواق ناضجة شهية ؟ !

لقد تثمر الأرض أشهى الثمرات وأطيب الفاكهة ، وأغذى الطعام ، فيجمعه الفلاح وبنوه ، ويذهبون به إلى الأسواق لا إلى الدار ، ويتعامى المسكين عن نظرات بنيه الجائعة المحرومة ، تحملق فى ثمرة جهادهم فى لهفة وعجب بالغين !

وقد تعبث أيدى صغاره بالثمر الشهى الذى لم يتذوقوه ، وتحدثهم نفوسهم الطفلة بتذوقها ولو بدافع غريزة حب الاستطلاع ، فيمنعهم أبوهم متكلفا الجد ، متغافلا عن الشهوة المختلجة فى أعينهم ، وفى قلبه حسرة أليمة لولا المداراة لانفجرت ثائرة هدامة ، وفى عينيه دموع حبيسة لولا الحياء لسالت وانهمرت غزيرة ملتهبة !

يقتلهم الجوع وأمامهم الطعام الشهى ، ثم لاتستثيرنا حالتهم ، نحن الذين نتكلف الأسى والحزن حين نردد قول الشاعر :

والعيس فى البيداء يقتلها الظما ٭ والماء فوق ظهورها محمول !

لطالما أجهد الطفل جسمه فى مساعدة أبيه ! يسوق الحمار إلى الحقل عشرات المرات فى اليوم ناقلا السباخ ، تحت لهب الشمس المحرقة ، وفى قسوة البرد العاتى ، ومتى جاع مد يده الشاحبة النحيلة إلى جيبه ، يتناول لقيمات الذرة الجافة ، لاتسمن ولا تغنى من جوع ، ولقد نراه ونرى الحمار قد أثقله الحمل ، فنثور للحمار ، ولانرحم الطفل المسكين!

فما أعجب رياءنا ! الحمار أكرم لدينا من الفلاح ! والحيوان ينال من رحمتنا مالا يناله أخونا الأنسان ! !

***

فى تمتعنا بجمال الريف وجلاله ، وفى إعجابنا بالزرع الحى النامى ، ننسى هذه المخلوقات الشاحبة الهزيلة ، تتحرك كالأشباح المترنحة بين الأشجار النامية الخضراء ، ونتعالى عن النظر إلى تلك الوجوه الصفراء ، وهذه الأجسام الذليلة المسكينة ، تخدمنا فى صمت أليم ، وتبذل قواها قطرة

قطرة فى سبيل تمتع بطوننا الشرهة التى لا تشبع !

والفلاحة فى دارها أيضا ؟ ! تصنع الزبد والسمن والجبن وتربى الطيور وتعتنى بالبيض ، حتى إذا ما حان موعد سوق القرية ، جمعت هذه الأشياء فى حسرة أليمة ظاهرة ، لأنها تعلم مبلغ اشتهاء بنيها لهذه الأطعمة ، وليس للمرأة الضعيفة مثل جلد الرجل ومداراته ، وباعتها فى السوق ، واستبدلت بها كمية أوفر من الشحم الردىء ، والزيت الرخيص ، كما باع زوجها القمح فى سبيل مقدار وافر من الذرة !

وبين تجلد الأب الفلاح ، وجزع الأم الفلاحة ، يقف الأطفال ذاهلين مبهوتين ، لا يفهمون لماذا يأكل الناس دونهم ثمرة كدحهم ، ولا تساعدهم عقولهم الطفلة على فهم هذا الظلم المرهق !

فيالله ! لشد ما نرهق عقل هذا الطفل ، ولشد ما نظلم الإنسانية فيه !

***

هذا هو الفلاح فماذا فعلنا له ! ؟ ؟

لقد تعاونا حكومة وأفرادا على التفنن فى ظلمه وإرهاقه ،

فهو لا يسلم من سخريتنا وازدرائنا ، وننسى أن هذه اليد القذرة — كما نسميها ! — قد مهدت لنا سبيل الاستمتاع بأشهى الخيرات .

أما الحكومة فلا همّ لها إلا إرهاقه بمختلف الضرائب ، فهل نقت له المياه ؟ أو عالجته من أمراضه أو أصلحت مسكنه أو علمت أولاده ؟ اللهم لا شيء من هذا كله ، فمساكن الفلاحين لا تعرف الشمس ولا الهواء ، وطرق القرية تعلوها الأتربة وتملؤها الأقذار ويعمها فى الليل الظلام ، والمياه التى يشربها قذرة ملوثة تحمل له البؤس والشقاء !

والمضحك المبكى أن الحكومات تأخذ من مال المسكين ، لتمهد لنا معشر سكان المدن ، حياة ناعمة مترفة ! ترصف الطرق وترشها وتنظفها ، وتفتح المدارس ، وتنير الطرق ، وتكثر من المستشفيات ، وتتمتع وإيانا على حساب فلاحنا المسكين !

يحلو لى أحيانا أن أفكر فى مصير ميزانية الدولة ، إذا حذفنا من أبوابها ضرائب الفلاح ، وأجر نقل محصولات الفلاح ، ورسوم تصدير ما ينتجه الفلاح .

***

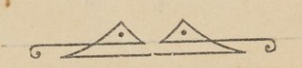
أرحموا الفلاح ...

إلى القرية يجب أن نتجه ، وفى إصلاحها يجب أن تبذل الجهود ، والحكومة مسئولة أولا وآخرا عن انحطاط حال القرية ، وعن الشقاء المخيم عليها ، وعن البؤس الذى يعيش فيه المزارعون ، ولئن لم يكن لها يد فى جوعهم وحاجتهم ، فعليها تبعة اللوم فى قذارة المياه ، وانحطاط المساكن وانتشار القذارة والجهل والأمراض .

يظهر لى أن الحكومات المتعاقبة تتجاهل القرية حتى لتكاد لا تشعر بوجودها ، فليت شعرى أية يد رحيمة حازمة ، تلك التى ستوقظ الأمة من تغافلها ، وتنبهها الى واجبها ؟!

***

أخيرا لقد عدت من القرية ، دخلتها بائسة تعسة ، وخرجت منها أشد تعاسة وشقاء ! وعفا الله عن الطبيب ، نسى أن فى الريف ما يشوه جماله ، وأن بجانب فتنته بؤسا يبعث الحزن من مكمنه ويثير الأسى من أعماق القلوب !



جرعة ماء !!

شعرت بالخجل يشيع فى جوانب نفسى حين انتهى إلى حديث أفراد العائلة التى أضافتنى فى القرية ، يتناقشون فى فناء الدار حول طعامى — كما توهمت — وأحسست بحزن أليم يهد كيانى حين سمعت صديقتى القروية تقول :

لا . . . أنتم تقسون على بإلحاحكم ، أنا أخجل من تقديم مثل هذا إليها !

ارحمونى . . .

وقال أبوها الفلاح الشيخ فى صوت منخفض :

أؤكد لكم أننى لن أجرؤ على مواجهتها وفى يدى مثل ذلك الإناء القذر !

كيف تنظر إلينا بعد الآن ؟

وقفزت من القاعة فى حزن مجنون ، وتفرست فى وجوههم الشاحبة الذليلة ثم قلت فى تأن :

نشرت فى الأهرام الغراء فى ١٢ من يوليه سنة ١٩٣٥

ـ أنتم تخجلوننى وتعذبوننى دون أن تشعروا ! كيف يطيب لى المقام بينكم ، وأنتم كما أرى تخجلون من تقديم طعامكم إلى ! كأنى ولدت وفى فمى ملعقة من ذهب . . وفروا على أنفسكم هذه المشقة ، فلست أكذب حين أؤكد لكم أنى أمقت التأنق فى الطعام . فكيف به إذا صحبه التكلف ؟ أشعرونى بأنى فرد منكم حتى لا أحس بثقلى عليكم ، وهذا وحده لعمرى كرم مبين . . واذكروا دواماً أننى لست ثرية ولا مترفة !

شىء آخر ، أريد قليلا من الماء البارد ، فإنى متعبة مكدودة أحس بظمأ شديد .

وصمت وصمتوا : ولم يجرؤ أحدهم على رفع نظره إلى ، وأخيراً عثر كبيرهم على لسانه فقال وهو يتكلف ابتسامة كاذبة حزينة :

هذه هى العقدة ، فنحن لا نملك ماء ! وفى هذا نتناقش لا حول طعامك كما تتوهمين .

قلت وأنا لا أكاد أفهم : ماذا تعنون يا أصحابى ؟ أو لا تشربون أنتم هنا ؟

قال الشيخ : نحن نشرب والحمد لله ، ولكنه ماء قذر ملوث . . وليس لجسمك مناعة أجسامنا واحتمالها . تلك الأجسام التى تعودت شرب هذا الماء .

وقالت الصديقة وهى تكاد تبكى : لقد ظلمتنى يا أختاه بهذا الموقف الحرج ! لماذا لم تخطرينا قبل قدومك ؟ كنت على الأقل أذهب إلى بنها وأشترى « نوى المشمش » لتنقية المياه .

وخانتنى قواى ، فمضيت إلى القاعة أتعثر فى خطاى لا تكاد تحملنى قدماى ، وارتميت على الحصير وأنا أردد فى ذهول : فى مثل هذا المكان يتوهم الطبيب أننى أستعيد هدوئى وقواى ؟ يابؤسهم ويابؤسى بهم ! ثم تذكرت المثل الذى تردده أمى دائماً « يابختها اتبعها ، أينما راحت روح (اذهب) معها »

لا يجدون ماء صالحا للشرب ؟ ! ارحمهم يا الله !

وتناولت الكوز وأنا لا أشك فى أننى سأقذف بمائه فى فى جوفى بلا تردد ، لأثبت لهم تواضعى أولا ، ولأطفىء ظمئى الملتهب ثانياً . . ولكن شجاعتى الكاذبة تبخرت حين نظرت فى الماء .

كدت اسألهم : هل تثقون فى أن هذا ماء ؟ فليست له تلك الشفافية المغرية التى تطفىء اللهب ، وهذا اللون الأسمر الضارب إلى الحمرة يذكرنى بما حفظته وأنا طفلة غريرة فى درس « خواص الماء » الماء سائل شفاف لا لون له ولا رائحة .

سألتهم من أين أتيتم به ؟

قالت الصديقة : من الترعة .

من الترعة يشربون كما تشرب البهم والدواب وكما تشرب الأرض . وفى الترعة يغسلون أوانيهم التى فيها يأكلون ، وينظفون الخضر إذا تفضلنا عليهم ونصحناهم بغسل الخضر قبل أكلها !

قطرة من هذه المياه قد تحمل ملايين الجراثيم والديدان يخرج أغلبها مع براز المصابين بالبلهارسيا والانكلستوما - وهم جل أهل القرى باعتراف مصلحة الصحة - فتعوم على سطح الماء ، وتمكث هناك فى تحفز وترقب وانتظار ، حتى إذا ما أحست بحرارة أجسام إخواننا الفلاحين وأخواتنا الفلاحات ، التصقت بها تنشد الدفء وتطلب حقها من الحياة ، وفى بطء تخترق جلدهم الضعيف فى

طريقها إلى الأمعاء ، حيث تكمن هناك ، تتوالد وتتكاثر .
وتتغذى بدماء الفلاح المسكين بينما لا يجد هو ما يغذيه !
ولا تصدقوا أن قرويا واحدا أو قروية واحدة تستغنى
عن الذهاب إلى الترعة ، إلا فى النادر القليل .

وهم يعلمون يقينا أن جرعة الماء تحمل إلى أجسامهم
الداء ، ولكن ما حيلتهم وأين المفر ؟ لم يخلق بعد ذلك الإنسان
الذى يموت ظمأ وأمامه ماء ملوث يرفضه . . . وهم قبل كل
هذا بنو إنسان ، يحملهم التشبث بالحياة على قبول آلامها ،
فيجب ألا يخدعنا هذا التشبث منهم عن حقيقة مرة دامية
وهى :

« إن الفلاحين يتشبثون بحياتهم ولا يقدمون على
التخلص منها لأنهم متدينون ، ولأن هذا منشؤه غريزة
الحرص على البقاء وليس حب الحياة لذاتها »

وأى شىء فى حياتهم يحب ؟ إن الرجل منهم ليشقى
طيلة يومه وينهك جسمه ، بينما تبخر حرارة الشمس المحرقة
ما أبقته الأمراض من قطرات قواه . وليته بعد هذا كله
يجوع فقط ، ويسلم من قسوة المحصلين ، وسخرية أهل
المدن ، وظلم المرابين ، وعار الدين وفتك الدماء ، وعذاب

النظر إلى الدودة وهى تلتهم ثمرة كده وتعبه أمام عينيه ، وتترك شجيرات القطن الخضراء التى ارتوت بعرقه وقوته ، عيدانا مجردة ، ينفطر لها قلب الفلاح ، وتتخاذل أمامها قواه.

يا رب يا أرحم الراحمين ، إنهم يشقون لنا ويكدون فى سبيلنا ، ألئن رفضوا العمل وظلوا عاطلين ، أفتسوء حالهم عما هى عليه الآن ؟ !

***

حين يدركنا العطف على الفلاحين والرثاء لهم ، نردد بضع نصائح صحية ، ثم يتنفس كل منا تنفس الارتياح ، ويصمت بعد أن أدى واجبه (! !) ومن هذه النصائح « اغسلوا عيون الأطفال دائما بالماء »

وفى القرية شاهدتهم ينفذون النصيحة مخلصين ، ولكن بماء الترعة . فهم يغسلون تلك العيون المصرية الجميلة التى تفيض سحرا وحيوية ، بتلك المياه القذرة الملوثة .. فتحمل تلك المياه بعد ملامستها الأعين ، كل ما فيها من فتنة وجمال.. ويا لفداحة الألم حين يلمح الإنسان تلك الزهرات الناضرة البريئة ، يفتك بها الرمد ، ويفترسها الصديد ، ويذهب ببهائها الماء القذر ، وبنورها العمى الحزين !

وللأتربة المتصاعدة دواما من طرق القرية التى تجهلها الحكومات ، يد لا تنكر فى مضاعفة الداء ..

ولذلك أصبحت مصر بلد العميان ، لأن أمتها عن الفلاح عمياء !

كما افترست البلهارسيا والانكلستوما ملايين الأجسام المصرية القوية القادرة على خدمة مصر ، لأن الحكومة تضن عليها بجرعة ماء !

حدثت نساء القرية طويلا فى جمال أعين أطفالهم الذى يذهب به الرمد ، فكان جوابهن الباكى الحزين : مادمنا نرى موضع أقدامنا ، فالشكر لله ! يا لصدق الإيمان ، ولكن ما أهول هذا الشقاء !

هذه الطفولة الشقية المحرومة ، وتلك الأمومة الذليلة المعذبة كيف نجرؤ فى مصر على تغافلهما ؟!

إن فى هذه الأجسام الذليلة ، دليلا على أننا سائرون إلى نهاية محزنة ، ورحمة الله لمصر يوم تفتح عينيها فترى أعضاءها العاملين قد فتك بهم الداء ، وسممهم الماء ، وذهب بقوتهم الجوع والذلة والشقاء !

ويومئذ ما أتعس مصر بأبنائها الفلاحين الأشقياء !

هؤلاء الذين لو منحوا الفرصة ليعيشوا حياة ممكنة ، لأمدوا مصر بأمتن ثروة وأقوى حياة ! ورحم الله حافظ بك ابراهيم شاعر الشعب والبؤساء الذى قال :

أيشتكى الفقر غادينا ورائحنا
ونحن نمشى على أرض من الذهب؟

فياحافظ ! لقد مرت على وفاتك سنوات ثلاث ، لم يذكر القوم فيها آمالك وآلامك . وهاهى الأرض توشك أن تصير كالماحلة الجرداء ، لأن اليد الوحيدة القادرة على إخراج الذهب ، أضحت هزيلة ضعيفة ، ونحن عنها لاهون ولو أنصت القوم لسمعوا صوت قيثارتك الحزينة لا يزال يرن فى أفق الوادى شاحباً ، داويا باللوعة والأنين .

***

لقد وجدتها !

هكذا صاحت صديقتى الفلاحة وهى تحمل فى يدها الحطب وتوقد النار ، لتغلى المياه قبل أن أشربها ، ولمح أبوها حرارة الظمأ وشهوة الشرب تلمعان فى عينى فغاب برهة ثم عاد يقدم إلى « بطيخة » أروى بها الظمأ .

يا للسخرية اللاذعة الأليمة .

ذكرت فى ألم مستبد ، تلك الأحواض المنتشرة فى أنحاء المدن ، ليشرب منها الحيوان ، وتمنيت لو أن حوضاً واحداً ينتقل إلى القرية ليشرب منه أخونا الفلاح . الإنسان !

***

بجانبى الآن رسالة موقعة باسم ـ بنات القرى ـ تفضلت (الأهرام) فحولتها إلى . وإنها لرسالة حزينة جياشة الأثر ألمح فى سطورها النارية الملتهبة ، ذلك العذاب الأليم الذى يعجزنا ترفنا عن تخيله . وتبدو كلماتها أمام عينى متراقصة كأنما تترنح ترنح الأشباح .

« هيه يا ابنة الشاطىء ؟ كم نحن بحاجة إلى قلمك فدعيه يتكلم ولا يغلبنك الأسى علينا فتسكتى ! لقد لمست حقاً بزيارتك لنا موضع بؤسنا وشقائنا ، قولى لولاة الأمور يا ابنة الشاطىء الماء . الماء الماء ؟ فقط هذا ما نطلبه ، قولى لهم وزيدى فى القول إن الماء فى القرى هو أصل البلاء الماء الذى يحمل إلى أجسامنا الداء ، لقد انتابنا منه ما يكفى لقتلنا أفلا يكفى كل هذا الزمن ؟ نعطيكم من دمنا وأرواحنا ما فيه

سعادتكم ، فهلا تعطونا مقابل ذلك ماء صافياً ؟ يا لله كم تظلمونا حقا »

وها أنذا أصرخ يا أخواتى وأسأل الحكومة هل يعجز رجالها عن تمهيد الماء الصافى لرعاياها ؟ أنا لا أفهم السبيل إلى تحقيق هذه الأمنية المتواضعة ، ولكن الذى أفهمه أن إخواننا الفلاحين يجب أن يعيشوا ، وأن ينالوا جرعة الماء التى يطلبونها .

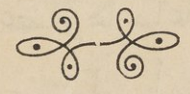
لقد قرأت منذ عهد بعيد ، أن لجنة اجتمعت لبحث مسألة الماء فى القرى ولكنى قليلة الإيمان بفائدة اللجان فى مثل هذه المسألة الحيوية ورأيى أن المسألة أخطر من أن تبت فيها لجنة يجتمع أعضاؤها ساعة وينصرفون على أن يجتمعوا فى فرصة أخرى ، إننى أريد علاجا حاسما شافيا .

إن عمق شعورى بشقاء الفلاحين ، يشل ملكة التفكير فى دماغى ، ولكنى أفهم أنه قد آن الأوان لأن تنشأ فى مصر البلد الزراعى المحض ، مصلحة دائمة تدعى - إصلاح القرية - وأعرف أن الحكومة التى استطاعت أن تمهد لسكان المدن ماء نظيفا مرشحا ، تستطيع أن تفعل مثل ذلك فى القرى تدريجيا بحيث تبتدئ بأشدها ازدحاما

بالسكان وإلا فهل قدر لهؤلاء المساكين أن يعيشوا إلى الأبد ، تلك الحياة التى لا نرضاها للحيوان عندنا ؟ اللهم فارحم .

***

وبعد فيقينى أن ولاة الأمور فى مصر لن يضنوا على ظامئ بجرعة ماء لو لم يجدها لمات ظمأ أو تناول ماء يحمل الداء ، ولا على هؤلاء التعساء بنظرة عطف ، لولم يلمسوها فى وجوهنا لجحدوا وأنكروا الرحمة فى قلب الإنسان .



الجمال المشوه الحزين

لعل مضيفتى القروية أحست بكبريائها جريحة مكلومة حين لمحت مرارة الفشل وألم الخيبة يبدوان فى قسوة على وجهى حتى ليجوز فى الرثاء ! فلم يكد يستقر بنا المقام حتى علاها ذهول واجم حزين ، ثم أشرق وجهها فجأة ودنت منى وهى تقول فى نبرة هادئة :

ـ أشعر فى أعماقى بأنك لم تجدى فى الريف الراحة التى كنت تبغين ، ولكن فيم اليأس ؟ يجب ألا يصرفك أول الشىء عن آخره ، وإن وراء هذا الشقاء الذى يبدو لك فى القرية ، جمالا فاتنا ما أشك فى أنه سيفتنك عن القاهرة بضجيجها وضوضائها ، وعن الجيزة بسكونها وجمالها !

وكانت الصديقة تعلم أننى لم أقصد الريف لأقضى فراغا ضقت به ذرعا ، أو أعالج مللا شعرت به من حياة تجرى على وتيرة واحدة ، وإنما هى رغبة الطبيب التى لا ترفض ، وأمره الذى لا يرد .

وسألتها فى رفق حنون ما ذا أعددت لنا فى القرية

يا أختاه ؟ قالت : حين تتثاءب القرية بعد ليلها المظلم أى ظلام ، وحين تدب الحياة فى كل الكائنات بها ، سيوقظك حفيف الشجر وخرير الماء وتغريد الطيور التى هى أسعد طيور العالم جميعا ! وسيذكرك هذا بضجيج العربات والترام والباعة المتجولين فى القاهرة ! وفى لحظة قصيرة تكونين قد لبست الثوب القروى الواسع الفضفاض ، متحررة من قيود أزياء المدينة وما تسلب من وقت وتضيع من فائدة صحية محققة ، وبين الحقول صباحا نسير ، نستنفذ بأعيننا وعقولنا وقلوبنا جمال الشروق الرائع ، ونملأ صدرينا هواء طيبا باردا .. وتلمحين عن كثب كيف تنهض القرية كلها من الرقاد ، وكيف تبعث من موت يفرضه عليها الطبيعة والظلام ، وتفتح ذراعيها للنور والهواء ... تلك تعزية صادقة ... هل تنكرين ؟

***

وأشرق الصباح رائعا ..

كان أجمل شروق شاهدت ، يطلع على أتعس قوم عرفت ! كانت الأشعة الذهبية الصفراء تتغلغل بين النباتات الخضراء فتمنحها الدفء والحياة بما يكمن فيها من سحر ،

ويلمس سطح الحقول بعصاها السحرية ، فتحدث فيه رعشة حية ، تبدو فى موجات متتابعة متلاحقة ، تذرع الحقول جميعا فى حنان بالغ عجيب ، بينما تلتوى القنوات بين الحقول وتنساب ، فى خرير متسق هادئ ، له نوع من الموسيقا الغامضة الساحرة !

إن مجرد التفكير فى متاعب النفس وآلام القلب ، نوع من الجناية والامتهان لقدسية ذلك الجمال ، وفيه انتهاك لحرمة تلك الفتنة الرائعة !!

ولكنى نهضت - ولا أدرى كيف وفقت - إلى التحرر من أثر ذلك السحر والتفت حوالى أتأمل وأرى عجبا ...

بجانب هذه الأشجار الهيفاء الحية المثقلة بأحمالها ، أجسام نحيلة شاحبة مثقلة بالآلام والمتاعب والأمراض ، تبدو كأنما تدب إلى القبر ، وتهدى إلى حياتنا العاجلة آخر أنفاسها .

وفى جوار هذه الحقول التى تنبض بالقوة والحياة والشباب ، برك راكدة ، تحمل فى ثناياها وعلى سطحها عوامل القضاء على فلاحنا المسكين ، وتكاد أبخرتها العفنة

تسمم الهواء الذى يستنشقه ، وتطغى على عطر الرياحين ، وعرف الورود ، وشذا الأزهار .

وهذه الطيور التى سعدت بموسم الحصاد ، وأحست بالربيع وهو شباب الدنيا ، يبعث فى أجسامها النشاط وشباب الحياة ، تملأ الفضاء بتغريدها الحنون ، كأنما هى فرقة موسيقية اتحدت نغماتها واختلفت أصواتها ، يكاد الإنسان ينسى ما فى صوتها من حنين وحنان ، بتلك الجيوش من البعوض والذباب ، التى تطن فى أذنه بشكل مزعج مخيف ، كأنما تذكره بالحقيقة المرة القاسية التى اعترف بها الدكتور محمد حلمى السعيد مدرس علم الصحة فى كلية الطب فى قوله : « لقد أصبحت الملاريا خطرا داهما على حياة الكثيرين من أهل جلدتنا ، حيث وجد فى صيف العام الماضى أن ٦٥ ./. من سكان بعض القرى فى شمال الدلتا مصابون به ، وهو لعمرى رقم هائل ينذر بسوء العاقبة إذا لم تضاعف الجهود فى استئصال هذا المرض الذى اكتسح قرى بأكملها فى أواسط أفريقيا ، فأصبحت قاعا صفصفا بعد أن كانت آهلة بالسكان »

وأما المياه ذات الخرير الهادىء الحنون ، فيشوهها

ما تحمل من جثث الحيوانات وبقايا القاذورات ، بينما يتكاثر على حواف الترع ، جموع الفلاحات زرافات ووحدانا يغسلن الثياب المهلهلة ، وينظفن الأوعية النحاسية التي يعلوها الصدأ ، ويتجملن بعمل ـ التواليت ـ بمياه الترعة ، ملبيات طبيعة المرأة التي لا تتأثر بزمان ولا مكان ، ويملأن الجرار ، ويتركن في نفس الرائى أثرا من الحزن عليهن عميق القرار.

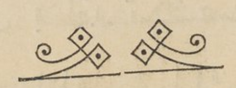
بقى من جمال الريف ، شمسه الساطعة التي كثيرا ما يحدثنا عن فائدتها الأطباء ، وهواؤه الرحب الطلق ، الذى لا تحجبه المبانى المتراصة العالية الذاهبة فى السماء ، وأعترف بأن الفلاح ينال من هذين المنبعين ، شيئا من القوة ، يعينه على مقاومة شقاء معيشته ، واحتمال ما يفتك بجسده من أمراض ، ولكن فى آخر النهار ، حينما يغادر الفلاح الطبيعة الحانية عليه ، الرفيقة به ، ويأوى ودوابه جميعا إلى تلك الأبنية القذرة المظلمة ، التي لا يجوز لنا أن نطلق عليها اسم المسكن أو المأوى ، ضاع أكثر ما اكتسبه من أثر الشمس والهواء وتبخرت تلك الكمية الضئيلة من الصحة التي أفادته إياها الشمس ، فى الأبنية الطينية الواطية المسقفة بالقش والغاب والتى لا يرتفع أكثرها عن سطح الأرض إلا قليلا ، ولا

تعرف الشمس ولا الهواء ، سبيلا إلى داخلها ، اللهم إلا شعاعا ضئيلا من النور ، ينفذ من كوة صغيرة فى الجدار ، ليلقى الضوء على ما يخفى الجدار من تعاسة وعوز وشقاء ، يحتملها الفلاح صابرا قانعاً ، لا يئن ولا يجأر بالشكوى والاحتجاج ، بينما تسير بنا الأيام إلى مستقبل محزن رغم ما يكتنفه من غموض ، وإلى نهاية أليمة إذا ظل ولاة الأمور يتجاهلون وجود الفلاح ، ذلك الاسم الذى يجب أن يصبح رمزاً للشقاء والحرمان ، لا كناية عن بقرة حلوب لا يفرغ اللبن من ضرعها ، تملأ خزانة الدولة مالا ، وأسواقها خيرات وغذاء شهيا طيبا !

إن لأكثر أغنيائنا وحكامنا - إن لم يكن لهم كلهم - مصالح تربطهم بالريف ، والفلاح المسكين هو اليد الوحيدة التى تحيل أراضيهم الزراعية بإذن الله ذهبا نضاراً يتدفق فى خزائنهم ويتيح لهم ماهم فيه من نعمة ورفاهة عيش ، فإذا أثار دهشة أحدنا ، أن الفلاح يشقى فى أمة زراعية ، يقوم على أمرها كبار الملاك الزراعيين ، وإذا تساءل الإنسان كيف لا يكون هذا الاتصال سببا فى تعرف الأغنياء بشقوة الفلاحين البؤساء ، وبالتالى سببا فى سعى الأغنياء

فى تهيئة حياة صالحة لهم ، إذا دهش المرء فإن دهشته تزول ، حين يقرأ تلك الحقيقة الهائلة الصادقة ، التى ذكرها اللواء رسل باشا حكمدار العاصمة : « أتمنى أن يتعلق الشباب المصرى ببلاده تعلقاً شديداً ، ولن يكون ذلك إلا بحب الريف ، وأنت تجد الشبان الموسرين لا يعرفون موقع أطيانهم ، ولم يذهبوا قط إلى عزبهم ، ويجهلون اسم الخولى الذى يحرس أموالهم »

وهكذا نحن دائماً ، نلهو عما يحيط بنا من أخطار ، ونجهل عن مصر وأهلها ، حقائق يعرفها غير المصريين ، ولا نزال فى لهونا حتى يتحدث الأجانب بحمقنا وجهلنا وضعفنا ، وهذا الحديث هو - مع الأسف الشديد - إنذار من الحياة يلوح لنا ونحن فى رقادنا مستسلمين لأحلام الخيال ، كما تسوق الطبيعة الرعد والبرق ، إنذاراً بالعاصفة. فهل آن لنا أن نستيقظ ؟ من يدرى ! !



وراء الستار

كان عجيباً من صديقتى القروية أن تلح فى إخفاء نقودى وحلي طالما أنا فى القرية ، وأن تنكر على خروجى إلى الطريق وفى معصمى ساعتى ذات السوار الذهبى . وفى أصبعى الخاتم الماسى الذى لايفارقه ! وكلما هممت بالسؤال والاحتجاج احتمت من إلحاحى بالصمت والمراوغة . وأشارت إلى أن أسكت فأمتثل لأمرها .

سألتنى ذات مساء : أين تضعين حليك ونقودك ونحن نيام ؟ .

ـ أين ؟ فى يدى يا أختى وعلى هذا الكرسى فى جوارى ، لا زلت أعجب من اهتمامك بإخفائهما ألا تتكلمين ؟

ـ كان على أن أتكلم ، لولا أنى أحب ألا أفجعك فى ما بقى لك من هدوء الريف ! لقد تكشفت لك زيارتك لنا عن شقاء شعب عليك حياتك وسلبك راحة البال وصدق

نشرت فى الأهرام بتاريخ ٢٢ من أغسطس سنة ١٩٣٥

اليقين . أفتحسبين أنى أجرؤ على إزاحة الستار أمام عينيك عما خفى عليك من شقاء الريف ؟

ـ ولكنك بكتمانك تثيرين فى نفسى ألماً عاصفاً غلاباً لا طاقة لى به !

ـ يا أختاه ! إنك تلمحين فى القرية أقسى أنواع الفقر والعوز والشقاء، ولكن لو قدر لك أنك تتغلغلى فى صميم القرية. ولو كشف لك الحجاب عن قلوب القرويين، لانكشف لك ستار الشقاء عن مشهد أفظع هولا ! ولآلمك أن يستبد بالقرويين ظلم جرىء كأن لم يكف ماهم فيه من فقر وبؤس ! إن فى القرية لصوصاً ياصديقتى ! أنا أعرفهم . وكل فرد فى القرية يعرفهم ، ولكننا لا نملك حيالهم إلا الصمت بل والرضاء .

ـ ما أفظع هذا الرضاء منكم ولكم كما أعلم نفوس أبية !

ـ إنها لا تزال أبية يا أختاه ! وهذا الرضاء منا ليس خضوعا وذلة لصغر فى نفوسنا ، ولكنه رضاء من يعلمون حقيقة ظلم البشر ، أو لست القائلة فى قصيدتك « وحى الشاطىء » ؟

يلاقى الهوان فيرضى به ✡ رضاء العليم بظلم البشر ؟ !

— إن زعيم العصابة تربطه بالعمدة صلة القرابة . وهو يتحكم فينا معتمداً على هذه الصلة . يسرق ويهاجم ثم لا يسأل عما يفعل .... لن أنسى يا أختاه ليلة هاجم اللصوص فيها خالتى ، وهى كما تعرفين تتجر فى الطيور وتمتلك بعض المال وتحيا وحيدة بعد وفاة وحيدها . لقد كنت حسنة الظن بالناس إلى حد بعيد . نشأت فى الريف فألفت بساطته وظلت بعيدة عن دوافع الشر التى تقتحم نفس الإنسان من أضعف ناحية فيه وهى حب المال . فتقذف به وراء الإنسانية وتحيل ضميره قطعة من الحلوى تلتهم فى آخر النهار ! وكنت أسمع الهمس يكثر فى مغامرات لصوص القرية ، وأنصت إلى ما يتحدث به الناس عن قسوتهم واستهتارهم ، لكنى مافتئت أتوهم فيها الإسراف والمبالغة ، حتى ذلك اليوم المشئوم ! لقد هاجمها لصوص أربعة ملثمون فى منتصف الليل . وهمت بالنهوض من فراشها فخذلتها قواها وارتمت على الأرض شبه ذاهلة ! بقيت لها عيناها لتشهد بهما وحشية البشر وقسوة الإنسان على أخيه الإنسان ! وفى توحش عجيب سلبوها كل ماتملك

من حبوب ومن مال . وتركوا لها ذل الفقر وقسوة المرض وأثر الخوف الهائل !

ـ وبعد ؟

ـ وبعد فلا يزال اللصوص يسطون ويسرقون. ولولا اهتمام رجال كل أسرة بحراسة الدار ليلا بالتناوب لكانت المصيبة أعم !

ـ وعمدتكم نائم فى داره مطمئن. لا تقلقه أشباح شقائكم وأصوات ضحاياكم ولا يردعه وجود الحكام والقضاء واحتمال ثورة كبار المزارعين ؟

ـ وما العمدة ياسيدتى ؟ إنه الحاكم المطلق التصرف فى القرية . ونحن صغار المزارعين خدمه المسخرون ! أما كبار الملاك فهو يعرف كيف يرضيهم بأساليب نعرفها نحن ، لأنها على حساب قوتنا وقوّتنا !

* * *

وأغمضت عينى ليؤرقنى سهد طويل . وبدت لى متاعب القرويين كأنها سلسلة آلام لا نهاية لها ! لئن استطاع الفلاح أن يحمل أثقال فقره وعوزه بما وهب من قناعة وصبر . فبأى ثمن يحمل وطأة الظلم وهو الكريم النفس الذى يأبى الضيم ؟

فى عهد الإقطاع . وفى صميم العصور المظلمة الوسطى . كان الفلاح خادما لأمير المقاطعة . يزرع له الأرض ويحصد المحصول . ثم هو مكلف بان يعصر كرومه فى معصرة السيد ويطحن حبوبه عنده . وعلى السيد واجب واحد ، هو حماية مقاطعته من الأعداء والفاتحين .

والآن بعد أن اندك صرح الاستبداد بمعاول المصلحين . وبعد أن أعلنت حقوق الإنسان وأصبحت سلطة الحاكم مستمدة من الشعب لا من الحق الإلهى المزعوم . يقوم العمدة غالبا بتمثيل دور السيد فى القرية . والفلاح المسكين لا يجرؤ على شكوى ولا يقوى على احتجاج .

إن دودة القطن مثلا ، فى سبيل تشبثها بالحياة ، لا تميز بين حقل العمدة وحقل الفلاح المسكين ، بل تمضى فى طريقها وسط الحقول لتلتهم النبات النامى الناضر ، دون أن تمنعها عن الحقل الأول سطوة صاحبه وقوة بأسه ، ودون أن يصرفها عن حقل الثانى شقاؤه وجوعه وضعفه .

وفى أراضى العمدة يجتمع آلاف القرويين . يحاربون الدودة وينزعون الأوراق المصابة . وقد نشط إلى جمعهم خفراء القرية . يمر كل خفير فى منطقة معينة وتكفى نظرة

قاسية مهددة من عينيه ، لتنزع الفلاح المسكين من حقله الصغير الذى ينتظر محصوله ليسدد ديونه المرهقة . وليحصل على ما يقيم أود أولاده الجياع . فيترك حقله لترعى الدودة فيه دون رقيب ، إلى حقل العمدة ليحمى ثروته من مجرد النقصان ! والأجر المعروف المصطلح عليه فى القرى هو رضاء العمدة سيد القرية !

وفى مناوبات الرى ، حين يهجر الفلاحون دورهم ليلا . أحوج ما يكونون إلى بعض الراحة من شقاء الفقر والجهاد ، ويسهرون فى حقولهم على حواف الترع منتظرين المياه ، كم يطول بهم الانتظار ! إن المياه محرمة على أراضيهم قبل أن تمتلىء أراضى العمدة وكبار الملاك شبعا وريا وحتى تصيبها التخمة فتلفظ ببقايا الماء إلى أراضى الفلاحين التعساء !

وفى موسم الحصاد ، يخرج الرجل فى الصباح الباكر حاملا منجله ، ومودعا زوجه لتلحق به فى الحقل . ويسير فى الطريق ذاهلا يحلم بيوم يبيع فيه القمح ويشترى رطل لحم لأولاده المحرومين الذين طال تشوقهم إلى اللحم ، وثوبا من القماش لزوجه التى أذلت رجولته وكبرياءه بثيابها المهلهلة البالية ، ولا يزال يحلم حتى يوقظه صوت الخفير ،

ينزعه من أحلامه إلى الحقيقة المرة ، ويذهب به إلى حقول العمدة حيث ينتظره القمح النامى ! والويل له إن أبدى ألما أو تذمرا . .

***

ارحموا الفلاح !

إن حياته أصبحت جحيما . طال عليه العهد وهو ينتظر الإصلاح البطىء . وطال به الانتظار حتى ضاع منه الأمل الضئيل الذى كان ينير دجنة حياته الحالكة السواد . ولم يبق له إلا شقاء الفقر ومرارة اليأس وذل الاستبداد !

هناك بعيدا ! فى القرى التى نجهل شقاءها وشقاء من فيها . يفرض العمد نظاما هو أعجوبة الأنظمة فى القرن العشرين . أى بعد مرور ثلاثة قرون على صرخة المصلحين أمثال موليير ومونتسكيو وفولتير ، بأن الحاكم الصالح هو خادم الشعب !

إن العمدة لا تجرى عليه نظرية فصل السلطات التى تجرى على الوزراء وكبار الحكام ، ففى يده سلطة الاتهام والحكم والتنفيذ . والحكومة لا تعلم عن هذا شيئا كثيرا . لأن صغار القرويين لا يجرؤون على الشكوى والصراخ

خشية الاضطهاد والإهانة . بينما لا يجد كبار المزارعين ما يشكون منه لأن العمدة يكلف الفلاحين الأجلاف بدفع ثمن سكوت السادة الأغنياء . وفى ذلك يقول « الفلاح المسكين » فى رسالته إلى بالاهرام الغراء ١٤ - ٨ - ٩٣٥

« لو وقف شقاء الفلاح عند هذا الحد - فداحة الضرائب - لكان الأمر أسهل مما تظن الحكومة ولنادى الفلاح بعالى صوته . الفلاح الصغير فى حاجة ملحة إلى حمايته من اضطهاد حضرات العمد ومشايخ وأعيان القرى . فدافعو أجور الخفر هم الفلاحون الفقراء . ورجال تنقية دودة القطن فى زراعات العمد والأعيان هم الفلاحون الفقراء . وواضعو فوانيس الإنارة أمام منازلهم فى القرى هم الفلاحون الذين لا يتمكنون من إنارة مساكنهم »

« تذاكر التمثيل والجمعيات التى يتبرع حضرات العمد والأعيان بتوزيعها ، تحصل أثمانها من فقراء الفلاحين . وتطهير مساقى الأعيان وتسهيل الطرق لسياراتهم فى داخل قراهم ، وفعلة مبانيهم ، وخدمة منازلهم ومزارعهم هم الفلاحون البؤساء التعساء . الذين إن اشتكوا أهينوا وإن صرخوا عذبوا »

هذه الصرخة الداوية التى يرسلها « الفلاح المسكين » من أعماقه يجب أن يكون لها صدى فى قلوبنا وفى عملنا . شقاء الفلاح وصل إلى درجة لم يعد ينفع معها علاج الكلام . والفلاح نفسه أصبح لا يطمئن إلى سياسة الوعود الخلابة التى يلوح بها المصلحون . والحاجة ملحة إلى علاج عملى عاجل .

إن التمثيل الحكومى معدوم فى القرية كأنما هى كم مهمل على الهامش ، وكأن مصر ليست « بلدا زراعية قبل كل شىء . ولا يزال أهم قوام معيشتها مرتكزاً على الزراعة . فهى لمصر أهم بكثير منها لإيطاليا مثلا » وانعدام التمثيل الحكومى ، والإشراف الفعلى على عمل العمد ، يفسح المجال لعبث صغار النفوس منهم ، واستبدادهم بصغار المزارعين دون خشية أو رقيب ، والمثل العامى يقول « المال السايب يعلم الناس السرقة » . وبين تغافل حكام المراكز ، واستبداد العمد ، يلاقى الفلاح صنوفا من الهوان والذل والشقاء ، لم يعد فى إمكانه تحملها ، وليس من العدل الإغضاء عنها .

هذا « الفلاح المسكين » أتاحت له « الأهرام » الغراء فرصة الاحتجاج . فأرسلها من قلبه صرخة أليمة حافلة

بالمرارة والشقاء ! ترى كم من صرخة تقف فى حناجر غيره من القرويين ، ولا تجد مجالا للانطلاق ، لأن صاحبها لا يملك ثمن طابع بريد يحمل شكواه إلى منبر الأهرام ، فتعذبه وتضنيه !؟

لست أطلب تحقيقاً حكومياً فى ذلك الموضوع . لأنى موقنة بصحة كل ما جاء فى خطاب « الفلاح المسكين » بل إنى لأعلم يقيناً أن ما خفى علينا من شقاء الريفيين أكثر . والعمدة لا يعدم مئات من الشهود ، يبيعون ضمائرهم برضاء العمدة . ويلفقون التهم على الأبرياء فراراً من قسوة الاضطهاد . أجل لست أطلب تحقيقاً ، ولكنى أتساءل هل تعجز الحكومة عن الإشراف على القرى ؟ إن فى المراكز وعواصم المديريات آلافا من الموظفين ، يعملون أعمالا تافهة . ويشغلون وظائف لا تتناسب أسماؤها ومرتباتها مع ما يقومون به من عمل فعلى ، وقد آن لهم أن يفهموا أن الوظائف كما قال حضرة الأستاذ حسين عنان السكرتير العام لوزارة الزراعة . « ليست أرائك للجلوس عليها . ولكنها مراكز محفوفة بالتبعات » فماذا لو أشغلت الحكومة بعض هؤلاء الموظفين فى حماية رعاياها القرويين ؟ وما الذى يمنع

من أن يختص كل واحد منهم ببضع قرى . يتغلغل فى دور صغار مزارعيها . ويستمع إلى صرخات الأطفال . ويصغى إلى شكوى النساء . ويكشف الستار عما تخفى صدور الرجال من ألم مكبوت وثورة مكبوحة ؟ وعما يجرى فى الريف من مهازل لا تليق بعصر يسمونه عصر الحرية والنور ؟

ارحموا الفلاح !

لا بل ارحمونا نحن ! ارحموا الأجيال القادمة من هول المستقبل إذا ظل الفلاح كما هو كتلة ذليلة مهملة ، ارحموا أبناءنا وأحفادنا واذكروا واجبنا نحوهم .

لقد تستطيع الحكومة أن تلتمس لنفسها بعض العذر فى بطء الإصلاح . ولكنها لن تجد عذراً فى التقصير عن حماية مواطنيها التعساء من استبداد بعض الأفراد . ولا بد للفلاح من قانون حازم يحميه من الظلم ومن القسوة والاضطهاد !

***

إن مجرد التأمل فى نظام العمدية ، يكفى للدلالة على استبداد شهوة الحكم ببعض الأفراد . فالعمدة لا يقبض مرتباً ولا ينال على مركزه أجرا ، وكل ما يكسبه رسمياً هو ...اء بعض أطيانه من الضرائب ، وإعفاء أولاده من واجب

القيام بالخدمة العسكرية – وتلك لعمرى مهزلة ! – فلو كان العمد يدركون مسئولية المركز حق الإدراك ، لما استماتوا فى سبيل العمدية ، ولما استفحلت العداوة بين كبار الأسر فى الريف من أجل العمدية ! هل يمكن تعليل تلك الاستماتة بغير شهوة السلطة ، وبغير الأرباح التى يجنيها العمدة ظلماً وعدوانا من استغلال صغار المزارعين ؟! إن الثمن البخس الذى يناله العمدة بالإعفاء من بعض الواجبات ، لا يغرى بتحمل أعباء المسئولية ، لولا أن الكثيرين لا يفهمون أن للمركز أعباء وتبعات ولا يجعلون منه إلا أداة تحكم ورياسة واستبداد واستغلال .

الضرورة قاسية ملحة ، وقلم قضايا الحكومة لن يكلف الخزينة شيئاً فى سبيل القيام بوضع القانون المنشود . وقد آن لحضرات العمد أن يفهموا أنهم وصغار المزارعين سواء أمام الحق والعدل ، وأن أكرم الأفراد على الوطن ، أكثرهم قياما بواجبه ، وهم لن يفهموا ذلك إلا إذا حال بين الفلاح وبين استبدادهم وتمسكهم قانون حازم . يوقف كل فرد عند حده لا يتعداه . ويحمى الفلاح المسكين من قسوة الظلم وفاحش الاستغلال .

فى قبور الاحياء المجاهدين

آن لنا أن نفتش فى القرى المهملة عن قبور الأحياء المجاهدين ، وأن نزيح عنها الأغطية الزائفة لنرى الجثث الحية ، يقتلها الجوع وتنهشها الأمراض .

قال لى البعض : لم تدعى فى قاموس البؤس كلمة واحدة إلا استعنت بها على وصف شقاء الفلاح ، أما آن لك أن تهدئى ؟ ! فأذهلنى ذلك التعبير ومضيت أفكر . ذكرت أننى حين مررت فى طرقات القرية ، وحين تغلغلت فى دورها القذرة المظلمة ، وأنصت بقلبى إلى الأنات اللاهثة الضعيفة التى تذيب القلب وتضنيه ، وحين ازدحمت الآلام فى دماغى تستبد به وتريد انفجارا ، لم أكن أفكر فى أن للبؤس قاموساً ، وأن الكلمات التى نعبر بها عن الألم قد تنفد إذا طالت بالإنسان الشكوى وطال منه الحديث ، والآن أتساءل أحقا قد تنفد الكلمات ؟ أترانى قد أقف مكتوفة اليدين صامتة اللسان وأنا أرى أمواج البؤس تطغى على الفلاح

نشرت فى الأهرام فى ٢ من أكتوبر سنة ١٩٣٥

الشقى المجاهد فتغمره و تغمره حتى يختنق ، ثم أفتش فى دماغى فلا أجد كلمات جديدة تصف بؤسه ، و لا أستطيع أن أرسلها من أعماقى صرخة حزينة تهيب بالناس أن أنقذوا الفلاح ؟!

فى صميمى ، أعتقد أن نظرة شاردة عجلى ، يلقيها الإنسان عرضاً على فلاح مهدم يدب على الأرض وكأنه يخطو إلى القبر ، ويعمل فى الحقل وكأنه يذيب قواه وقطرات حياته فى الأرض التى يحرثها ، نظرة واحدة تكفى لأن تحمل إلى قلوبنا ، حديثاً بليغاً عن الشقاء العجيب .

لو أن طائفة المزارعين كانت أقلية ضئيلة لاستطعت أن أخنق فى صدرى لهفة عطفى عليهم ، و لقلت فى شجاعة متكلفة : لا بأس ، فئة قليلة تشقى لتسعد الأكثرين ، إذا كانت سعادة المجموع لا تأتى إلا بشقاء البعض و تضحية البعض وإذا كنا نحن أنانيين بطبيعتنا ، ففيم يا قلب التألم وفيم الأنين ؟ ولكن القرويين هم الأغلبية الساحقة فى مصر الزراعية . بضعة ملايين تشقى و تتخبط فى ظلمات مرضها و عوزها لتسعد الآخرين ، فلو أفناها الشقاء كان فى فنائها هلاكنا جميعا .

« شقاء الفلاحين فادح ، وإصلاحه يقتضى جهودا

جبارة ، وليس من المستطاع أن نصلح قرى كل ما فيها يقتضى إصلاحا » هكذا يقولون دائما ، ولكن هل تدعو فداحة الشقاء إلى الصمت والسكون ؟ وهل كون كل مافى القرية يقتضى إصلاحا ، يقعدنا عن الإصلاح ؟ إذا كنا فى مصر نفهم ذلك ونهضمه فى سهولة ويسر ، فالناس جميعا يعتقدون أن فداحة الشقاء تدعو إلى الإسراع فى الإصلاح ، وأن جهودنا يجب أن تتناسب مع قسوة الواقع ، وهكذا يفهم غيرنا ، وهكذا علمنا أساتذة المنطق .

***

لست أخشى أن يتهمنى البعض بأننى خيالية، وما أسهل اتهام الفتيات بذلك ! - حين أتحدى جميع المصريين متسائلة هل فينا من لا يعترف بشقاء الفلاح ؟ وهل من فرد ينكر أن الفلاحين غالبا ، هم أشقى الناس وأشدهم عوزا ؟

قد أفهم أن يتردد البعض فى وجوب الإصلاح ، وقد أفهم أيضا أن يظن البعض أن الفلاح لاتزال لديه قوة الاحتمال ، ولكنى لا أصدق أن إنسانا يقول - وهو يعنى ما يقول - إن الفلاح (أحسن من غيره !)

نحن إذن مسلمون جميعا بشقاء الفلاح ، ولكن هذا

هذا التسليم معناه فى بلادنا أن يسخر الفلاحون فى أعمال مضنية مرهقة ، والأجر هو سلسلة من الشتائم القذرة الأليمة ، يقذفها أصغر موظف منتدب المراقبة ، فى وجه الفلاح (الجلف الحمار ابن الحمار) .

***

عند ما تمتلىء منابع النيل العليا بالماء ، ويدفعها التيار فتسير فى طريقها إلى البحر الأبيض ، قوية صاخبة دافقة ، حاملة بين أمواجها الحياة والموت ، وحين تمضى إليناثائرة غلابة ، تطغى أحيانا على الشواطىء ، وتغرق الأراضى المنخفضة بسيل من المياه وكأنما تقول للفلاح الحزين : إذا كنت تريدنى سماءك التى تمدك بالحياة بإذن الله جل شانه فلا تنكر أن يكون لى مع أنوارى سحاب ورعد وبرق !!

وعلى جسور النيل الثائر يحتشد الفلاحون . . . الفلاحون المحرومون الأشقياء ، ليصدوا هجوم المياه بأجسامهم الناحلة المنهوكة المريضة ، وليعملوا طول النهار تحت رحمة المندوبين السادة وفى قسوة الظهيرة ! ينتزع الرجل من حقله ومن بين أولاده ، ويرحل إلى مكان بعيد لتتم المهزلة ! ليعمل مسخراً بينما تعمل الآفات والمياه الثائرة

فى أرضه الصغيرة التى لا يكاد ثمن محصولها يرحمه من قسوة المحصلين وظلم المرابين ! وبينما تخط دودة القطن فى حقله سطور ذله وعاره وخرابه !

يارحمة الله ! الفلاح الشقى المجاهد ، الذى يؤدى واجباته نحو الوطن كاملة ، والذى لا يظفر بعد جهاده وتعبه بمال يدفعه للضرائب المرهقة ، الفلاح الذى تلتهم الملاريا والبلهارسيا والانكلستوما والبلاجرا والأنيميا قواه ، وتهد كيانه هدأً ، ثم يسكن إلى آلامه ويحتملها صابراً صامتاً لا يئن ولا يتوجع ، فيعانى الموت البطىء حتى لا يكلفه ذهابه إلى مستشفى المدينة ترك أرضه التى لا تكاد تمده بالكسرة يتبلغ بها والسترة يستر بها عورته ، هذا الفلاح ، ينزع قهراً واعتسافاً إلى جسور النيل فى أى مكان ليعمل مجاناً ؟ وليحمى ثروتنا الزراعية من النقصان ولو كلفه ذلك حياته !

ومهزلة المهازل أن ينتدب الموظف المنعم لمراقبة تسخير الفلاحين التعساء فيمنح مكافأة إضافية فوق مرتبه كأنما كان فى مكتبه بالقاهرة عاطلا فهو يمنح مرتبا إضافيا حين يعمل ، مع اعتبار مرتبه الأصلى ميراثا أورثه إياه آباؤه أو أجداده من قبل ! أو كأنما ننسى أن الموظف الذى

يندب لعملٍ ما ، لايحق له أن يأخذ مليما واحدا فوق مرتبه الأصلى ، لأنه لايعمل عملين فى وقت واحد . . . لقدترك عملا وندب لعمل آخر فكيف يكافأ على العمل الواحد مرتين ؟ .

المال لمثل هذه المكافآت الظالمة موجود ومتوفر والحمد لله ، وإن استنفد ففى الاحتياطى العام مايسد الفراغ ويملأ الجيوب المنتفخة الأنيقة ، ولكن المال لإصلاح القرى ، المال الذى قال « الدكتور أبولس بولس » إنه الداء والدواء ، هذا المال من نوع آخر . . . من عملة أخرى لم نهتد إليها بعد ولا محل لها من خزينة المصروفات فى مصر !

مائة ألف من الجنيهات أنفقت كاملة فى هذا العام لمقاومة الفيضان من وزارة الأشغال ، وما يقرب من نصف هذا المبلغ فى وزارة الداخلية ، وما كان لنا أن نشكو هذا الإسراف ، لو لم تقترن به حقيقة فادحة وهى أن هذا المبلغ الضخم ينفق فى فيضان يقاومه الفلاحون الفقراء دون أجر مطلقاً !

وأعجب من هذا ، أن يحدث ذلك فى وقت يكاد أكثر الفلاحين يموتون فيه جوعا وأن نطلب نصف هذا المبلغ

لإنقاذ آلاف من المزارعين الذين هم ثروة الأمة ، فتصاب الخزينة فجأة بصداع هائل وشلل فى اليد ومرض الإرهاق والعسر !

معالى وزير المالية أجدر الناس بالعطف على تلك الفئة الضالة ، وأعتقد يقيناً أننا لا نطلب محالا حين نسأل أن يكون الفلاح آخر شخص فى مصر نفكر فى تسخيره وتشغيله دون أجر ! حسبه شقاؤه ومرضه وعوزه ! حسبه الحياة الوضيعة المنحطة التى يتخبط فى ظلامها ! حسبه المذلة والاحتقار وكونه لا يحيا كإنسان !

مسألة عدم مكافأة الموظفين المراقبين حين الفيضان لا يعدو أثرها حرمان الموظف من صيف ممتع يقضيه فى أوربا وتحت ظلال الأرز فى جبال لبنان الساحرة ، أو تغيير السيارة طراز سنة ١٩٣٠ بأخرى رشيقة « موديل ١٩٣٥ ! » بينما مسألة عدم منح الأجور للفلاحين ، هى مسألة حياة وموت ! له ولنا وللأمة جميعاً !

***

آن لنا أن ننبش قبور الأحياء المجاهدين !

يترك الموظف عمله الأصلى ، ويندب لمراقبة العمال

ـ وهو مركز أدبى يطيب للبعض التمتع بما يلابسه من رياسة وسلطة ـ فيمنح أجراً مضاعفاً ، ونفقات انتقال ، وبدل اغتراب ، ثم يعود فيجد فى انتظاره خطاب شكر رقيق من المصلحة ، وخطاب تمجيد لبطولته ينشره النفعيون الصغار فى الصحف ، وتبحث معى عن العمل المجيد الذى قام به ، فتجده ممثلا فى أوامر قاسية مستبدة وقحة ، يذل بها الفلاح المسكين ، ويتمتع بشهوة الأمر والنهى حين يبتعد عن أوامر رؤسائه ونواهيهم ، ويجرب فى الفلاح مقدار استعداد حضرته لمراكز القيادة وكراسى الرياسة !

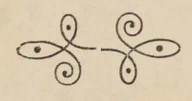
وينزع الفلاح الجائع المريض من أرضه للعمل ، فيكون جزاؤه الإذلال والحرمان ، ثم يعود فيجد فى انتظاره الخراب حيناً ، والعمل المترا كم أحياناً !

ورغم هذا كله نعترف جميعا بشقاء الفلاح ، وهذا هو أقسى مافى الأمر كله !

***

كم من المصريين يعرفون أن حفر ترعة المحمودية وحدها سنة ١٨١٩ أهلك اثنى عشر ألفا من الفلاحين المسخرين ؟ إنها حقيقة صادقة دامية ، ومع هذا دارت عجلة

الحياة فى سيرها المعتاد ، وظلت السماء زرقاء صافية ، ولم تجعلها دماء الضحايا التى تبخرت مع الشمس ، حمراء قانية ملتهبة ! والآن ؟ كم من ضحية لقانون العونة حين الفيضان كل عام ؟ لا أدرى ! فقد تعودنا أن نقرأ إحصاء دقيقا عن الأموال التى أنفقت ، وألا نقرأ شيئا عن عدد الضحايا وعدد الأسر الريفية التى قد يهدمها ذهاب عائلها إلى مناطق المقاومة دون أجر ! ولعل إغفال هذه الناحية فيه نظر وإلا فمتى كان لأرواح الفلاحين سعر وثمن فى سوق التعامل ؟ ولكنى أخيراً ، أرجو ألا يخدعنا أن عجلة الحياة تسير ، وأن السماء ليست دامية حمراء ، فلا تزال لها زرقتها الصافية الفاتنة !



القسم الثانى

متى نستيقظ ؟

خطر نلهو عند فيلهو بنا

بدا صوته مرتعشا تخفق فيه رجولة تأبى أن تكون ذليلة ، فيكبح جماحها ويتكلف عدم الاكتراث وهو يقول :

— فقط أريد أن أعيش .

قلت ولكنك تسألنى البحث عن عيش ذليل .

— ذليل ؟ إن جوع يوم واحد يا سيدتى ، كفيل بأن يمحو هذه الكلمة من قاموس ريائنا العجيب ، وقد يقذف بالإنسان وراء إنسانيته وإنسانية الناس جميعا ، فلا يهمه فى سبيل تهدئة ثورة أمعائه ، هل يهيم مع الحيوان يأكل العشب ويقتات بقشور البطيخ وورق النبات ، أو يثور على القوانين فيسرق ويختلس .

— إذن فأنت تصر على أن أبحث لك عن منزل تخدم فيه ؟ إنى لمشفقة على رجولتك يذلها الزمن ، فتنال لقمتك مغموسة فى الذل والمهانة .

— وما العار فى أن أكون خادما ؟ أو أنال طعامى أجرا

نشرت فى الأهرام الغراء فى ٢٧ من يونيه سنة ١٩٣٥

على عملى ؟ ومع هذا فأرجو أن أوفر عليك شفقتك . فأنت لا تشفقين على رجولتى ، وإنما - اغفرى لى صراحتى - تخجلين من أن يعمل رجل تربطك به صلة قرابة بعيدة ، فى منازل معارفك كخادم . لاألومك على هذا بل أؤكد لك أننى سأخفى عن الناس جميعا ، أن أخى كان زوج ابنة خالة أبيك . لماذا يبدو عليك الألم هكذا ؟ أو تظنين أننى أتألم ؟ أنت إذن غبية ، معذورة فى غبائك . لقد مرت علينا فى الريف أيام كان كل منها عمرا من الشقاء كاملا ، كنا نضع فى «المشنة» بضع لقمات من الخبز الجاف ونجلس حولها - أنا وأمى وزوجى وطفلتى - أتناول اللقمة متباطئا ، وأضعها فى فمى فى بطء أشد . ثم أطيل المضغ حتى أترك للباقيات فرصة الأكل دون أن يشعرن بأنى إنما أتظاهر بالأكل . كانت هذه العملية تضغط على قلبى بألم ، لولا نبل التضحية ، لكاد يهدمنى . غير أنى نظرت عفوا إلى زوجتى نظرة شاردة عجلى ، فأحسست بأنى أختنق . والتفت عامدا إلى أمى فاذا بقلبى ينخلع ، وكأننى من هول الألم فى ذهول عن الألم ، كانت كلتاهما تتكلف الطعام وتعانى التجربة الهائلة التى كنت أعانيها ، كان كل منا يخدع نفسه ويضلل رفقاءه ، أفبعد هذا تظنين أن فى خدمة

البيوت مذلة ومهانة ، وأية عزة أبقتها لى نظرتى إلى أمى وإلى زوجتى، وهما تتظاهران بالأكل ، وتبطئان فى المضغ كأنما هما موكلتان بتنفيذ الحكمة الطبية «أطيلوا المضغ» فى دقة بالغة ، لقد عدت حينئذ طفلا ذليلا مسكينا يود لو يبكى ويسرف فى البكاء ، وأحسست بسهم يخترق أحشائى حين سمعت أمى تردد فى مسكنة وخضوع ، الحديث الشريف « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع » .

قلت وأنا أغالب الدمع :

- إلى هذا الحد المؤلم وصلت بكم الحال فى الريف ؟ ومع ذلك فأنا لا أفهم فيم يأسك وعلام الحزن ؟ الرأى عندى أن تعود إلى القرية الحبيبة ، فاستأجر لك فدانا .

- وبعد ؟

- ازرعه قمحاً ثم ذرة ، تأكلون منهما طول العام ، ثم ازرعه فى المرة الثالثة قطناً لسداد الإيجار ، وأجر السماد والعمال .

- كل هذا جميل ومعقول ، بشرط أن نسمعه ونقوله ، أما إذا تعدى القول إلى العمل ، فهنا يتبخر المنطق ، ويطير العقل ، وتسخر منا الحقيقة المروعة ، لكى أستأجر فدانا

يجب على أن أدفع عشرة جنيهات للمالك ، وخمسة للعمال حين الرى وحين محاربة الحشرات ، وحين الجنى والحصاد . وثلاثة جنيهات للسماد فى ثلاث زرعات ثم يجب أن يكون لدى حمار وجاموسة ، وأن يتوافر لهما طعام ليتنا نجده لنأكله نحن .

فإذا دفعت هذا كله من المحصول ، فلن يبقى لنا إلا ما يكفينا شهراً واحداً مع شديد التساهل ، خبزا فقط ، ثم لا كساء ولا طعام ، وهذا هو ثمرة جهاد عام طويل .

يا سيدتى ، أنا لم أفر من القرية إلى المدينة إلا بعد أن أجهدت نفسى فى التفكير فاحتسبيها يدا عند الله ، لن ننساها لك ، وابحثى لى عن عمل خادم ، فسأجد ما آكله ، وأبعث أجرتى إلى من أشقاهم الله بى ، وبعد فلست أطلب إلا عملا شريفاً ، لا أمد يدى للسؤال ، وإنما أبحث عن عمل أعيش به .

***

قام المسكين إلى الصلاة ، فالفلاح المصرى يذكر ربه فى السراء والضراء ، يذكره فى الأولى شاكراً ، وفى الثانية راضياً ، قام وتركنى أفكر :

وهاجمتنى الذكريات . . .

ذكرت أن هذا البائس هو أحد الآلاف الكثيرة التى نزحت وتنزح من الريف إلى المدن ، فى سبيل لقمة ذليلة متواضعة .

ذكرت ثلاثة من أقوى شبان قريتنا ، جاءوا منذ شهرين إلى القاهرة ، واشتغلوا فى أحد المخابز ، يحملون (العجين) من البيوت ويعودون به خبزاً فى آخر النهار قانعين بثلاثة قروش لكل منهم وخمسة أرغفة شهية .

وذكرت أخوين من جيرتنا فى القرية ، يهزآن بالضعف ويحتملان أشد الجهد ثم لا ترى للتعب أثراً عليهما ، تركا القرية واشتغلا بخدمة أسرتين ، فأما أولهما ، فيحمل سيده الطفل ويدلله ، ويسير بسيدته الشابة التلميذة بالسنية الثانوية ، وأما الآخر فيحمل السلة ويذهب إلى السوق ، يشترى الفجل والبصل والخيار .

ومددت يدى أمسح دمعة حارة ، ألهبت وجنتى حين ذكرت أبا إحدى صديقاتى الريفيات . كان فى رغد من العيش وسعة يعيش على غلة أفدنة ثلاثة ، ويعمل مع ولديه فى الحقل راضين قانعين ، ثم ألحت عليهم الأزمة فاستحال عليهم دفع

الأموال الأميرية . ثم أعلنهم المحصل ألا فرار من بيع أفدنتهم - وهى حياتهم - بالمزاد . فقر وعار فأين الرحمة ؟ رأتها أعينهم العمياء فى بنك رهونات . وفى عام واحد غلق الرهن ! فتشتتوا فى البلاد لم يعرف أحد مصيرهم ، إلا أنى رأيت أحدهم يتقدم إلى ذليلا بأوراق اليانصيب ، يا سبحان الله ! ألئن باع فى يومه خمس ورقات ، فكم يكون مكسبه فيها ؟ قرش ، قرشان ؟ اللهم رحمتك !

يا بائع الفجل بالمليم واحدة ✡ كم للعيال وكم للمجلس البلدى ؟

دسست فى يده خمسة قروش ، فتفرس فى وجهى ثم قذفها على الأرض ، وفر من أمامى كالمجنون لا يعى .

ثم ذكرت أيضاً خمسة شبان أعرفهم كانوا يشتغلون فى زراعة أحد أقاربى ، واستغنى عنهم ، فجاءوا إلى القاهرة ، وانضم أربعة منهم فى سلك حرفة عجيبة ، يحملون الخيار فينادى أحدهم (خيار يالوبيا) فيرد الباقون بصوت واحد فيه حزن رغم ما له من جرس (عشرة بقرش) .

آه ! إن صوتهم لا يزال يلاحقنى فى كل مكان داويا حزيناً متهدجا . وأما الخامس فيبيع أكياس النفتالين . ومحله المختار سلم (الترام) . وأقسم لقد سمعته بأذنى عند باب الخلق

يقول : « ما حدش عنده نفتالين فى البيت ؟ نا كل إحنا وأولادنا النفتالين بأه يا ناس يا هوه »

* * *

والآن إلى مصر المسكينة . . .

أرأيتم هذا المصير المحزن الذى يصير إليه أبناؤها الأقوياء؟

لقد فكرنا طويلا فى جيوب الأجانب ، تلتهم الثروة المصرية ، فجاهدنا فى تشجيع الصناعة المصرية ، وفكرنا طويلا فى البحر الأبيض المتوسط ، يفغر فاه فيلتهم ماء النيل أحوج ما نكون إليه ، فأنشأنا الخزانات وأقمنا القناطر والسدود .

وفكرنا فى المخدرات تتقد ناراً ، وقودها ثروة أبناء مصر ، فتبخر قواهم وعقولهم وحيويتهم ، فأنشأنا مكتب المخدرات ، تساعده مصالح الحدود وخفر السواحل والطيران .

وفكرنا فى كل شىء ، إلا شيئا واحدا هو مع شديد الأسف أخطر الأشياء .

لم نفكر فى المدن تجتذب شبان الريف ، لأن انحطاط مستوى المعيشة فى القرية ، يغرى أبناءها بالنزوح إلى المدينة ، وفيها عيش وماء نقى ، وفيها لهو ميسور .

لم نفكر فى الأعمال الحقيرة ، يشتغل بها أقوى شبان الريف ، وأقدرهم على خدمة مصر .

إنهم يدللون الأطفال ويخدمون فى البيوت فهل يسمع المصلحون ؟ وهناك فى الريف ، أرض خصبة غنية تحتاج إلى سواعدهم ، وثروة مخبوءة فى الأرض ، تريد أبناء الريف الأشداء .

وإذا مضينا فى تغافلنا عن هذا الخطر ، فمن للقرية والزراعة إذن ؟ ألا فاسمعوها كلمة صريحة : إن استمرار نزوح الشبان من القرية ، واحترافهم أبسط الحرف فى المدينة ، سيؤدى بنا الى المجاعة ولن يشفع لنا حينئذ خصب التربة المصرية ، وسحر ماء النيل .

لقد اشتغل بعض الشبان فى مخبز ، وآخرون فى خدمة البيوت ، فهل خسروا شيئا ؟ لا ، فهم يعيشون عيشة إن لم تكن أفضل من معيشة الريف فلن تنحط عنها ، ويشربون ماء نقيا منعشا ، ومصر هى التى خسرت وتخسر ونحن لاهون .

والآن أتساءل ، إذا كان هذا هو مقدار النازحين من قريتنا ، وهى فى صميم (المنوفية) أخصب بقاع العالم ، فما هو

حال قرى شمال الدلتا والوجه القبلى ؟

ثم لا تنسوا أن أبناء الصعيد الذين يملئون المدن وخاصة مدينتى مصر والإسكندرية ، هم من صميم الريف .

حدثنى أحد كبار الملاك فى مديريتى الشرقية والدقهلية قال : إن مائة فدان من أرضنا لاتنتج ما تنتجه عشرة أفدنة من اراضى المنوفية . .

لا تحسبوه مغاليا .

والعلة ليست ضعف الأرض كما توهمت وكما تتوهمون . . بل هى فى قلة الأيدى العاملة .

مصر بلاد زراعية ، وستظل هكذا ما عبد الله فى الأرض ، ثروتها فى أرضها ونيلها ، وحياتها فى يد الفلاح الجائع المحروم ، فلا تنسوا هذا واذكروه دائما .

هل نلوم الفلاح ؟ إننا إذن نكون كمن :

ألقاه فى اليم مكتوفا وقال له ✡ إياك إياك أن تبتل بالماء !

أصلحوا القرية فيتشبث هو بالبقاء فيها ، مهدوا له عيشا سهلا ميسورا فى تواضع ، فلا يستبدل به حياة المدن . إنه يعشق الريف وهو يتركه محسورا ملتاعا بعد أن تعييه الحيل ، وبعد أن يجد العيش فيه غير مستطاع .

حين تفكر الحكومة فى مصايف الأطفال ، يجب ألا تنسى أن فى الريف أطفالا قد لا يجدون كسرة أو سترة ، يذهب الرمد بجمال عيونهم وتضرب عليهم الذلة والمسكنة.

وحين تفكر مصلحة السكك الحديدية فى تسهيل النزهة لمتوسطى الحال ، بقطر البحر والنزهة ، يجب ألا تنسى أن فى الريف رجالا مصريين ، يشربون الداء مع الماء ، ويحيون حياة لا نرضاها لحيواناتنا .

إن أول الواجبات هو تيسير العيش الممكن ، لمن صارت حياته أقل من الممكن .

نحن لا يضيرنا أن نقضى الصيف بعيداً عن السواحل فلكل بلدة فى مصر مغانيها ومناظرها الجميلة ، ولمصر فى ليالى الصيف هواء منعش جميل ، ولن تفارق أرواحنا أجسادنا إذا لم تسعفنا الحكومة بتسهيل وسائل الترف لنا ، ولكننا جميعاً ، بإهمالنا الفلاح ، نخسر اليد العاملة التى تمدنا بالطعام ، والخادم القنوع الأمين الذى يفنى فى سبيلنا صابراً صامتاً .

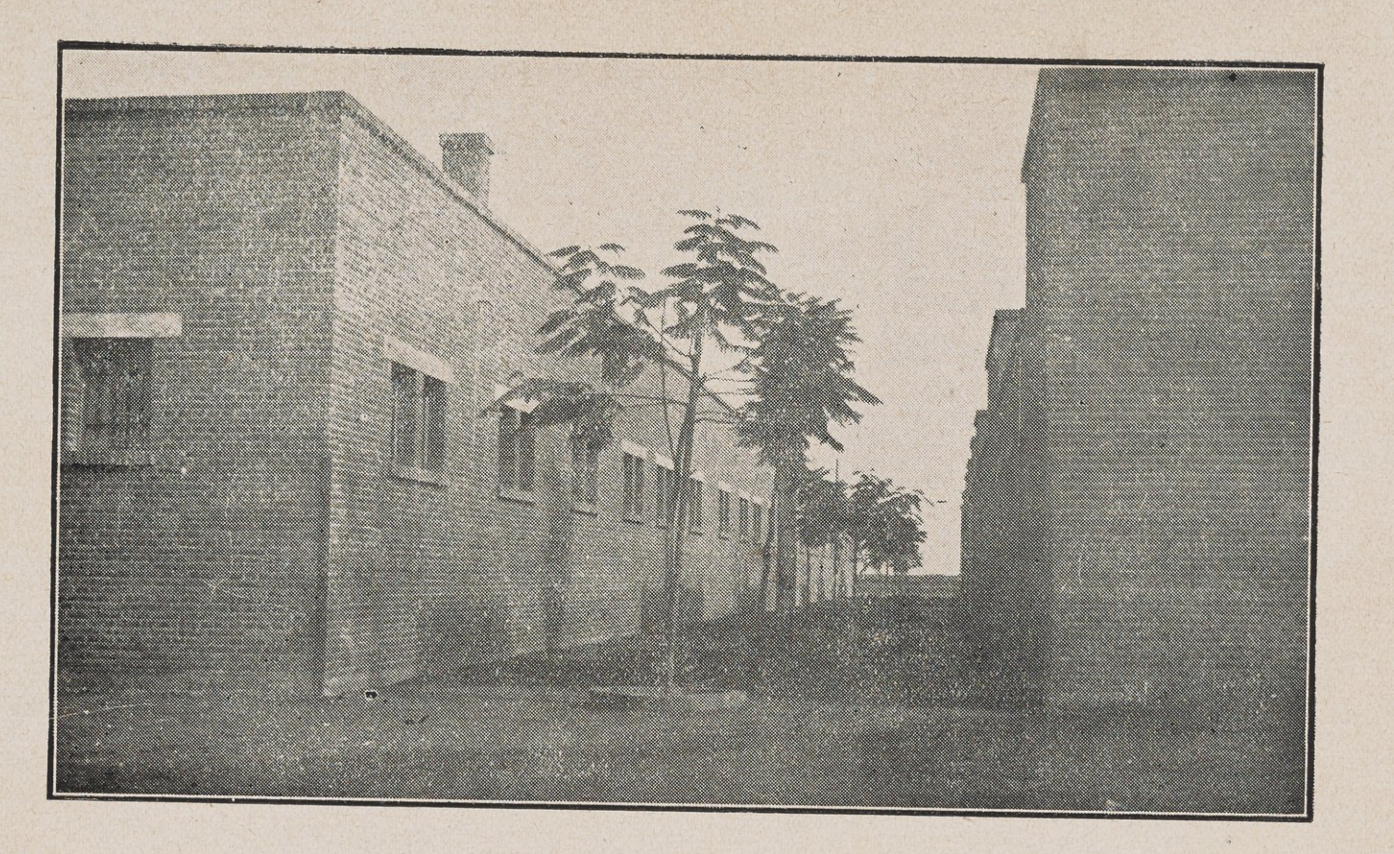
وكلنا فى الخسارة سواء .

إن الفلاحين - سواء رضينا أو كرهنا - هم أعضاء من جسم الأمة ، لا يجوز التغافل عنهم وإلا فالويل لنا منا .

فلنفكر جديا فى مصلحة القرية وإصلاحها ، ولنصلح حال الفلاح بمال الفلاح ، فإن مهزلة المهازل أن يكون لنا معشر سكان المدن الحقوق ، وعلى الفلاحين الواجبات .

القرية ! إن فيها مقتل الأمة ، كما أن منها حياتها





صحة وجمال (طرق القرية ، كما يجب أن تكون)



ماذا أعددنا للغد ؟

أفتغفر لى صديقتى القروية ، جهرى بما يغمرها من فقر وشقاء ؟ لقد تشبثت بى يوم الرحيل ، تسألنى فى تواضع ذليل أن أنسى الصور المحزنة التي طالعتنى فى القرية وأن أذكر دواما جمال الريف وسكونه وفتنته ، حتى أحن إلى زيارته ، ثم تفرست فى وجهى ، وأحسبها لمحت فى عينى صورة الألم الدفين فأشاحت بوجهها ثم قالت وكأنها تحدث نفسها : ستشغلين عنا وسنشغل بك ! متى العودة ؟ هل أطلب محالا إذا سألتك أن تنسى شقائى وشقاء الريف وألا تدعى تلك الذكرى تفسدك علينا وتفسد عليك حياتك ؟

وتحرك القطار وهو يلهث فى حشرجة بطيئة ، وظلت هى تشير بيديها إلى أن ابتلعها الظلام ، وبذلت مجهوداً جباراً لأنسى القرية فلم أوفق ، كانت الصور التى شاهدتها هناك ، تتتابع سراعا أمام مخيلتى ، متلاحقة مترنحة ، مستبدة بأفكارى .

نشرت فى الأهرام الغراء فى ٨ من أغسطس سنة ١٩٣٥

ويح الفتاة التعسة ! إن كبرياءها تخفى الكثير من الألم العساف وإن لها لجلداً عجيباً ، كان أبوها يملك ثلاثة أفدنة يوم بنى بأمها ، وأحاطت به ظروف عصيبة كفيلة بابتلاع عشرة أفدنة وعشرين ولكنه ظل محتفظاً بها حتى اليوم ، بعد أن كلفه ذلك ثمناً غالياً . واليوم ؟ لقد أصبح رب عائلة كبيرة فله ابنته الشابة وابنه المراهق ، وثلاثة أطفال ، وقد مات أخوه ولم يخلف شيئاً إلا زوجة حزينة محطمة وأربعة أولاد أذلهم اليتم والفقر ، والرجل يعول هؤلاء وهؤلاء بأفدنته الثلاثة .

وتلك مسألة المسائل فى الريف اليوم ، فالأراضى الزراعية فى مصر لا تزداد ، بينما يزداد عدد السكان فى سرعة عجيبة . ومصر التى تبلغ مساحتها حوالى مليون كيلو متر مربع لا يصلح للزراعة منها إلا « ٣٢٠٠٠ ك م م » أو أقل من ١/٣٠ من المساحة الكلية، وهذا الجزء الصالح للزراعة يسد حاجة عدد محدود من السكان ، ويزدحم بالسكان إلى حد كبير ، فأكثر من ٩٩ ٪ منهم يسكنون فى الأراضى الزراعية المحدودة والموزعة فى الوادى والدلتا .

ثم إن هذه الآلاف المعدودة من الكيلومترات

المربعة الصالحة للزراعة ، موزعة بين الأفراد توزيعاً
عجيباً ، فعدد الذين يملكون من عشرين فداناً إلى مائة
ومائتين قليل فى حكم النادر ، بينما يتضخم عدد كبار الملاك
الذين يملك الواحد منهم أقل من مائتى فدان إلى عدة آلاف ،
تضخما هائلا لا يشبهه فى الكثرة إلا عدد صغار المزارعين
البؤساء ، الذين يملك الواحد منهم أقل من خمسة أفدنة ،
وأحسب أن ضخامة عدد كبار الملاك توهم البعض منا بأننا
قوم أثرياء ، ولكن الحقيقة غير ذلك ، ففى هذا التقسيم
دلالة على فقد التوازن فى تملك الأرض الزراعية ، وعلى
أن العدد الضخم الذى يعبث بالنضار ويتراكم المال لديه
إلى حد الحيرة فى كيفية إنفاقه ، يقابله عدد ضخم كذلك ،
لا يكاد يجد الكسرة من الخبز يتبلغ بها .

وفئة صغار الملاك تسير إلى نهاية أليمة ، إذا لم يوفق
أولو الأمر إلى إيجاد حل حاسم عاجل ينقذها . . . إن
الموظفين المصريين مثلا ، ينعمون بحياة مترفة إذا قيست
بحياة الفلاحين الأشقياء ، ومع هذا نحن نصغى دواماً إلى
صيحات عالية ، يشكون بها من إطالة فترة العلاوات ، نصغى
إلى شكواهم وهم يتساءلون كيف يسير المرتب سيراً بطيئاً

وأسرة الموظف تزداد فتكثر مطالبها ؟ بينما تنبعث من الريف صيحات خافتة لاهثة ، ترسلها حناجر منهوكة أضعفها المرض وذهب بقوتها الشقاء ، تتساءل هى الأخرى كيف يعول الرجل أسرة يزداد أفرادها كل عام بالزواج والتناسل ، بقطعة أرض لا تزيد إن لم تنقص ؟ تنبعث هذه الصرخات خافتة ولكنها لا تصل إلى آذاننا ، إما لأننا عنها فى شغل ، وإما لأنها لا تملك من الوسائل ما يساعدها على إبلاغ صرخاتها إلى الرأى العام ، قوية عالية ، فيها قوة الحق ومرارة الاحتجاج ، ودوى الشقاء .

***

لم تعد الأرض مصدر ربح لصغار المزارعين ، كما اعترف بذلك سعادة وزير المالية القائم على ثروة البلد ، والفلاح اليوم يدفع الضرائب التى كان يدفعها منذ أكثر من ثلاثين عاماً ، ولا يزال يسرى عليه الأمر العالى الذى وضع فئات الضرائب على أساس ٢٨ر٦٤ ٪ من قيمة الإيجار المقدرة بمعرفة لجان شكلت خصيصاً لهذا الغرض فى عامى ١٨٩٥ ، ١٨٩٦ لا بمعرفة لجان مركزية تشكل

فى كل عام ، وتقدر الإيجار تبعاً للزمان والمكان . وفى القرية يحيا المزارع حياة أليمة لا تساعده على كثرة الإنتاج او على الاحتفاظ بمستوى إنتاجه العادى ، وتفترسه الأمراض ، وتلتهم الآفات الزراعية ثروته ، فإذا استطاع بعد هذا كله أن يخلص بأرضه من براثن الأزمة ، وأنياب المرابين ، فذلك مجهود جبار نقنع به منه وتلك نتيجة سارة يشكرها هو لله جل شأنه .

وفى هذا جواب لمن يتساءل كيف لا تزداد ثروة الفلاح بعمله وباستغلالها . اطلبوا الماء من الحجر الصلد واسألوا الجبل أن ينتقل من مكانه ، ولكن لا تسألوا الفلاح أن ينمى ثروته . إن الضرائب تبتلع نصف إنتاجه وثمن المحصولات فى تدهور مستمر ، والفلاح بشر ، ولاحتماله حد معقول لا يتعداه . هذا الحد أشبه بما يعرف فى علم الطبيعة بدرجة نهاية الضغط ، حيث تتهشم الأجسام عندها مهما عظمت صلابتها . والفلاح المصرى كما يقول سعادة وزير الزراعة « وهب صبرا على العمل وقناعة فى المطالب ، وبساطة فى العيش » ولكنه لم يوهب قوة فوق البشرية . فحسبنا منه إذن أن يحافظ على ملكيته الصغيرة

أما أن نعجب لعدم نمائها . فاسألوا عن ذلك حياة الفلاح .. ولكن لا تسألوا الفلاح !

ونحن نحيا فى بلاد تزدحم بالسكان إلى حد التخمة ، وتكاد تضيق بنا لولا رحمة الله ! والفلاح يتزوج ، ويفعل ذلك مبكراً لا يعوقه عن الزواج فقره وعوزه مهما اشتدا ، والقرية لا تعرف شيئا اسمه أزمة الزواج ، فيكفى لصداق الفتاة ما يمكنها من شراء لوازمها الضرورية المتواضعة ، ويكفى لتأثيث البيت صندوق خشبى للملابس ، وحشية من القطن نادراً ، ومن قش الأرز حينا ، وقطعة من الحصير أحيانا ثم عدد قليل من الأوعية النحاسية تدخرها الفتاة قبل أن تتزوج .

والفلاح يرغب من النسل ، لا يزهده فيه عوز ولا فاقة ، ولا يرغبه عنه جوع واحتياج . ولست تدرى السر فى ذلك ! قد يكون لأن عيشه بلغ من الضعة حدا لا يمكن تجاوزه ، فوجود الأولاد لن يزيد فى شقاء عيش هو غاية الشقاء ، أو كما يقول الشاعر :

ولو أنى استزدتك فوق ما بى
من البلوى لأعجزك المزيد ..

ولو عرضت على الموتى حياة

بعيش مثل عيشى لم يريدوا .

وقد يكون لأن الفلاح يحيا على الفطرة و يؤمن بالله ، و يثق فى أن خالق الطفل كفيل برزقه ، وأن المولى عز وجل أرحم بالولد من أبيه وأمه .

وفى سرعة عظيمة يزداد عدد سكان القطر المصرى ، ولسوف يزيد من هذه السرعة ارتقاؤنا فى الشئون الصحية ، والنقص الظاهر فى الوفيات تبعا لذلك ، ويقابله دون شك زيادة فى المواليد ، ولو كانت هذه الزيادة ناشئة من ازدياد الأسر الغنية الموفورة الرزق لما قابلناها إلا بالغبطة والحمد ، ولكن الأغنياء فى مصر هم المتعلمون فى الغالب ، ولهم من مالهم وعلمهم مايجعلهم يتحكمون فى عدد الأولاد إلى حد ما ، وأغلب الشبان المترفين لا يعرفون الزواج المبكر ، حيث تلهيهم عنه ثروتهم التى تفتح لهم أبوابا من اللهو والمتعة لا حظ للفقير فيها ، بينما الأسر الفقيرة تزداد ويزداد فقرها وكل زيادة فى عدد سكان البلاد هى زيادة فى عدد مواطنينا الفقراء .

وانى لألمح شبح العاصفة فى نهاية الأفق يقترب فى بطء

ولكن بالتأكيد ، فهل ناهو عن الخطر كعادتنا حتى نصبح ونمسى فإذا بمصر تضيق بسكانها ، أم ماذا أعددنا لهذا الغد الخطير ؟

ليس لمصر مستعمرات حتى يجد أبناؤها مكانا لعيشهم ، وحتى السودان الشقيق ابتلعته السياسة الانجليزية فى جوفها ، وتمخضت لنا عن نظام هو أعجوبة الأنظمة فى القرن العشرين . فرضت علينا أتاوة ندفعها سنويا لحكومة السودان ، كأنما هى الجزية التى كانت الأمم المغلوبة على أمرها تدفعها للدولة الحاكمة الغالبة ، ويبقى لنا بعد هذا كله ، قطعة واحدة من الأرض يحدها البحر الأبيض المتوسط شمالا والسودان جنوبا والبحر الأحمر شرقا والصحراء غربا ، وفى هذه القطعة سكن أبناء مصر فى أوائل القرن التاسع عشر حين كان عددهم مليونين ، وفيها سكنوا فى أواخر ذلك القرن حين كان عددهم لا يتجاوز سبعة ملايين ، وفيها سكنوا فى الربع الأول من القرن العشرين حين كان عددهم اثنى عشر مليونا ، وهم يسكنون فيها الآن بينما يتجاوز عددهم ستة عشر مليونا ، وفى تلك الحالات كانوا يستغلون المزرعة المعروفة ، التى لا تنمو إلا ببطء عجيب . فهل سيستغلون القطعة نفسها

حين يصبح عددهم عشرين مليونا فى القريب وثلاثين أيضا؟

أنا أضع الآن أرقاما رسمية توضح مقياس زيادة السكان ، التى تكاد تتضاعف فى فترات متقاربة ، كما حدث فى سنة ١٨٤٦ حين زاد عدد السكان بقدر الضعف فى ربع قرن ، ولمصلحة الصحة برنامج صحى للمستقبل ، لا أشك فى أنه سيجعل الزيادة أكثر إسرافا وسرعة ، وهذه الأرقام وحدها تدعو الى التأمل وتقتضى منا اليقظة :

عام	عدد السكان	مصدر الإحصاء
١٨٠٠	٢ر٤٦٠ر٢٠٠	من الحملة الفرنسية
١٨٢١	٢ر٥٣٦ر٤٠٠	من كشوف الضرائب
١٨٤٦	٤ر٤٧٦ر٤٤٠	من تعداد المساكن
١٨٨٢	٦ر٨٣١ر١٣١	من تعداد الأفراد
١٨٩٧	٩ر٧٣٤ر٤٠٥	من تعداد الأفراد
١٩٠٧	١١ر٢٨٧ر٣٥٩	من تعداد الأفراد
١٩١٧	١٢ر٣٥٠ر٩١٨	من تعداد الأفراد
١٩٢٧	١٤ر٢١٧ر٨٦٤	من تعداد الأفراد
		(الإحصاء الأخير)

ثروة مهملة

طال حديثى عن الريف ولكن ماحيلتى ؟ كلما حاولت الصمت التماسا لتهدئة ذهنى المكدود ، شعرت بأنى إنما أطفىء النار بالزيت . وأقسم غير حانثة ، أننى يوم ذهبت إلى الريف لم أكن أنوى أن أكتب حرفا واحدا لأن الطبيب أمرنى ألا آخذ معى كتابا واحدا ، وأن أنقذ نفسى من أكداس الكتب وضوضاء المدن ، ولكن كل ساعة قضيتها فى القرية ، وكل دقيقة ، كان لها حديثها وشقاؤها ، وأثرها البعيد القرار فى نفسى ، وكانت كل خطوة فى أرض القرية ، تنكشف لى عن شقاء أليم يصعب تصوره . ولقد أفلح الطبيب وأفلحت أمى فى الحيلولة بينى وبين الكتب ، ولكنهما عجزا عن شل ملكة التفكير فى دماغى ، وسلب قوة الإبصار من عينى ! كان يجب أن أكون ساذجة عمياء حتى لا أفكر ولا أرى ، أما وقد كنت غيرهما ، فقد رأيت وما أهول ما رأيت ! كنت أشهد شقاء القرويين ، وأنا

نشرت فى الأهرام الغراء فى ١٧ من أغسطس سنة ١٩٣٥

صامتة مكتوفة اليدين ، ثم ما كدت أعود إلى المدينة حتى شعرت بالأفكار تزدحم فى رأسى وتشقينى وتريد انفجارا ففزعت إلى قلمى ، أحاول أن أنفث فيه بعض الآلام المتجمعة فى رأسى ، وأن أخفف به شيئا من الضغط الهائل الذى أشعر به جاثما على صدرى وفى دماغى .

* * *

مساحة القرية : ٣٥٤ فدانا .

عدد السكان : ٦١٣ نسمة .

عدد المزارعين وأفراد عائلاتهم : ٥١٣٢ نسمة .

المتوسط بالنسبة للمزارعين ١٤ نسمة لكل فدان تقريبا .

لم أكد أشهد هذه الأرقام حتى زالت دهشتى من فقر قوم يمشون على أرض من الذهب ؛ أربع عشرة نسمة يأكلون ويكتسون ويدفعون الضرائب ويطعمون حيواناتهم بريع فدان واحد ؟ إن الفدان يؤجر هناك بثمانية جنيهات ، يدفع الفلاح منها ١٦٤ قرشا ضريبة أطيان وتسعة عشر قرشا ضريبة لمجلس المديرية (١٢ ٪ من ضريبة الأطيان) وثلاثة وثلاثين قرشا ضريبة للخفر ، ويبقى بعد هذا كله مبلغ يزيد قليلا عن خمسة جنيهات ونصف . أمن

السهل أن يتصور أحدنا إمكان كفاية ذلك المبلغ التافه لمطالب شخص واحد عاما طويلا ؟ كلا بالتأكيد ، ولكن من السهل أن ندرك جميعا إلى أية درجة انحط عيش الفلاح ما دام ذلك المبلغ هو قوام حياة أربعة عشر نفرا !

وفى الغد ؟ سيزداد عدد سكان القرية دون شك ، وستبقى مساحة القرية كما هى دون أقل ارتياب ، فمن لى بعقل آخر أتصور به إمكان حياة الفلاحين فى ذلك الغد القريب ؟

لقد بينت فى كلمتى السابقة كيف يتضخم عدد السكان فى سرعة غريبة ، وكيف يزداد عدد مواطنينا الفقراء بازدياد عدد سكان القطر ، لأن الفقراء والفلاحين هم أسرع المصريين تكاثرا ، وأبعدهم عن فكرتى الزواج المتأخر وتحديد النسل ، كما بينت أنه بينما تزدحم الأراضى الزراعية فى الوادى والدلتا ازدحاما لا طاقة لهما بأكثر منه ، توجد أراض أخرى فى مصر أيضا ، لا تكاد نسبة عدد السكان فيها تبلغ نسمة واحدة لكل ثلاثة عشر كيلو مترا مربعا .

ليست المسألة مسألة الأرض التى نحيا فوقها ، وإنما

يكمن الخطر فى الأرض الصالحة للإنتاج ، فالقرية التى تسكنها مائة أسرة وفيها مائتا فدان مثلا ، ستبقى كذلك حتما من حيث المساحة ، حين يزداد عدد الأسر إلى مائتين . ترى هل يحتمل الفلاح شقاء أقسى مما يتخبط فيه الآن ؟ ونحن لا نملك حيال هذه السرعة العجيبة إلا أحد حلول ثلاثة ، أولها تحديد النسل حتى نحفظ النسبة بين عدد السكان ، وبين الأرض الصالحة للإنتاج ، فنحفظ التوازن بين حاجة الاستهلاك والكمية المعروضة له ، وثانيها استغلال ثروتنا غير الزراعية ، لأن سياسة الاقتصار على استغلال الثروة الزراعية لم تعد صالحة للمنافسة فى عصرنا الحافل بالاضطراب ، ولن تقوى مصر بها على الكفاح فى المحيط الاقتصادى العالمى المضطرب ، وثالثها إصلاح الأراضى البور حتى نجد منفذا لتضخم عدد السكان وحتى يكفى الإنتاج لسد حاجة المستهلكين الآخذ عددهم يقينا فى الازدياد .

***

فأما تحديد النسل فلا سبيل إلى البحث فيه ، لأن هذه المسألة تتصل اتصالا وثيقاً بالناحية الدينية ، ولأن

الفلاح كما قلت يرغب فى النسل ، ولا يزهده فيه عوز ولا فقر ، لثقته فى الله عز وجل من ناحية ، ولانحطاط مستوى معيشته ، انحطاطاً كلياً من ناحية أخرى . على أن تحديد النسل لا يخلو من خطر ، من حيث الناحية الاجتماعية ، فليس من المعقول أن تتقدم بنا الأيام وعددنا لا يتغير ولا يزداد . ثم إن الأمم التى أخذ أبناؤها بهذا المبدأ ، عادت حكوماتها تجأر بالشكوى من قلة النسل ، كأنما هى تخشى الانقراض . وفى إيطاليا قانون يمنح الأسرة إعانة كلما ازداد عدد أفرادها بالتناسل ، وينظر إلى رب العائلة نظرة خاصة فى الوظائف وأجور المساكن ، وفى ألمانيا قضى هتلر بأن تمنح العاملة إعانة لتتزوج وتترك عملها ، ولها أن تحل خطيبها العاطل محلها ، ولها أن تؤثث بيتها على أن يدفع الثمن أقساطاً متباعدة معقولة ، لا تشعر بضيق أو إرهاق ، وقد يبدو هذا كعلاج للبطالة ، ذلك حق ، ولكنه فى صميمه تشجيع لإنشاء الأسر الجديدة ، وازدياد عدد الأفراد .

وفى فرنسا تمنح الأم إعانة معينة إذا بلغ عدد أولادها حداً معيناً ثم يزداد مقدار الإعانة بازدياد عدد الأولاد .

ونحن أمة تجتاز الآن فترة انتقال حافلة بالقلق والاضطراب ، وعلى كتفيها أعباء ثقال من أثر الجهاد فى سبيل الحياة منذ عهد البطالسة حتى مارس سنة ١٩٢٢ ، وفى سبيل الحرية والاستقلال غير المزيف حتى اليوم والغد . ولابد لها فى هذا الجهاد من قوة معنوية تستمدها من أبنائها وقد يكون من الجناية عليها منع التكاثر فى الأولاد .

***

أما استغلال ثروة مصر غير الزراعية فلست أقصد بها مجرد الاهتمام بالصناعة والتجارة ، وإنما يجب أن يتعداهما إلى الثروة المعدنية والحيوانية ، ومصر غنية بهما إلى حد يجهله الكثيرون . إن ارتفاع سعر الذهب حالياً فرصة يجب ألا ندعها تفلت من أيدينا ، فمناجم الذهب فى الصحراء الشرقية أهمل استغلالها لعظم النفقات لا للشك فى وجود الذهب بها . وتلك العقبة لم يعد لها أثر منذ ارتفع سعر الذهب ، والأمر لا يحتاج إلا إلى شىء من العزيمة والمثابرة ، ثم إن الأبحاث التى ساهمت فيها مصلحة المناجم

والمحاجر ، أثبتت وجود خامات الزنك والرصاص بالقرب من القصير ، ويتراكم حجر الزبرجد فى البحر الأحمر إلى درجة كبيرة ، وحجر الزمرد جنوب القصير ، هذا إلى وفرة البترول والأحجار فى مصر .

فأما الثروة الحيوانية ، فيكفى دليلا صادقاً على إهمالنا إياها كوننا نستورد سنوياً من الأغنام ١١٫٠٠٠ رأس ثمنها ١٠٠٠٠ ج م ومن الجبن ٢٤٠٠ طن ثمنها ٢٠٨٠٠٠ ج م ، ومن الأسماك المملحة والمحفوظة ٤٧٢٧ طنا ثمنها ٢٠٨٠٠٠ ج م ، بينما تملك مصر من الماشية عدداً ضخما يكفى لتوفير تلك المبالغ الطائلة لو أحسن استغلاله ، ففى إحصاء وزارة الزراعة لسنة ١٩٣٤ ما يأتى :

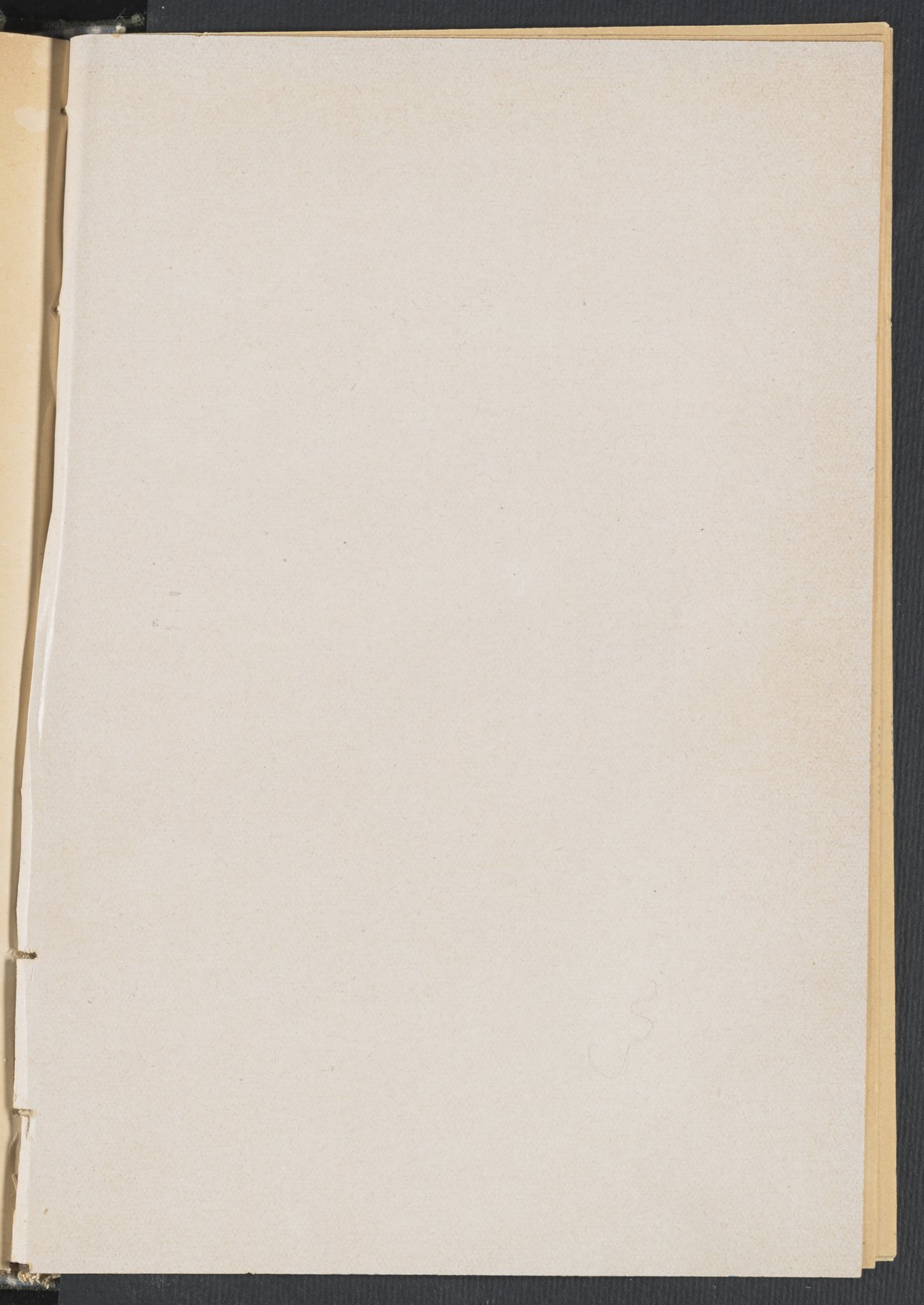
٢٩٢٠٣٤ ثوراً و ٦٣٢١٧٤ بقرة فتكون الجملة ٩٢٤٢٠٨ رأسا .

و ٤٣٠٨٣ ذكر جاموس و ٨٤٤٤٩٣ جاموسة فتكون الجملة ٨٨٧٥٦٦ رأسا .

و ٢٧٣٣٣٧ خروفا و ١١٣٤٣٠٣ شاة فتكون الجملة ١٤٠٨٧٤٠ رأسا .



الراعي



و ١٨٠١٣٤ جديا و ٥٠٨٢٢٧ عنزة فتكون الجملة ٦٨٨٣٦١ رأسا .

وهذه الأرقام تشير إلى أنه قد آن الأوان للاهتمام بصناعة منتجات الألبان ، كصناعة رئيسية مضمونة الربح موفورة الخامات ، ثم إن الأسماك تتراكم فى النيل والمياه البحرية ، وفى البحيرات المصرية ، وقد شاهدت بعينى رأسى أكواماً من السردين فى بور سعيد ، لا تجد من يشتريها ولو بأبخس الأثمان ، والسردين المصرى كما صرح سعادة خيرى باشا لا يقل جودة وصلاحية للحفظ ، عن الأنواع الأجنبية ، ويبقى لى بعد هذا كله أن أصرح فى حق ويقين ، أن للأجانب بعض الحق إذا « استغفلونا » واحتلوا أسواقنا الاقتصادية ، مادمنا نهمل موارد الثروة العجيبة فى بلادنا ، وإلا ففيم الشكوى من الفقر ، وموارد الثروة لدينا مفرطة شاذة ؟ وفيم سكوتنا عن استغلال الثروة الكامنة فى كل شبر من أرض مصر ومياهها ؟

لقد طال علينا الأمد ونحن نتغنى بمصر الزراعية ، ويبدو لى أن تلك الفكرة قد دعتنا إلى الاستكانة ، وحببت إلينا الدعة والسكون ، ولكن ها هو ذا الفلاح المصرى

يد مصر العاملة ، لم يعد فيه شيء من القوة يعينه على القيام بحاجة ملايين المصريين ، فحياته البائسة الشقية قد استنزفت كل ما فيه من قوة ، وهى فى طريقها إلى التهام ما احتازه من جلد واصطبار ، وهاهى ذى الأراضى الزراعية تضيق بسكانها اليوم ، وسيشتد ضيقها غدا ، أفما آن لنا أن نفسح المجال لصناعتنا المصرية كى تأخذ نصيبها من الحياة ، وتظفر بمكانها اللائق ؟

إن لبنك مصر من المجهود الجبار فى إحياء بعض الصناعات ، ما يكفل ملء شيء من الفراغ العظيم فى نهضة مصر الصناعية ، ولكن هناك بعض الصناعات التى تقوم على غير المنتجات الزراعية ، ولا تنال حقها من الرعاية والاهتمام ، ولست أشك فى أن قليلا منهما ، كفيل بأن يبقى فى جيوب المصريين مبلغ ٥٠٦٣٤ ج م متوسط قيمة الوارد من الأثاث سنويا . ومبلغ ٧٤٠٠٠ ج م ثمن ما نستورده من الأحذية . ومبلغ ١٥٣٠٠٠ ج م ثمن ما نستورده من الصابون المنزلى العادى . ويحضرنى فى تلك اللحظة ، حقيقة مؤلمة ذكرها حضرة الرجل المصلح فؤاد أباظة بك عن دمياط الصناعية ، عند افتتاح المعرض العام ١٩٣٠

حقيقة لا تزال تترك فى قلبى أثرا داميا كلما ذكرتها - وقليلا ما انساها - أكد ما معناه أن الأحذية المحلية تفوق الأجنبية جودة ومتانة ، ولكنها لا تروج لأن بعض الأغنياء المولعين بالظهور الزائف ، يفتخرون بلبس الحذاء الأجنبى ، ويرون أن أحذية الشاذلى والرفاعى مثلا - هما صاحبا مصنعين للأحذية بدمياط - لا تأتلف مع أقدامهم الأنيقة الرشيقة ، وقد رأى بعينيه أحذية مصرية ، مصنوعة فى دمياط ، تنزع بطاقتها الداخلية ليكتب عليها زورا وبهتانا أنها مصنوعة فى خارج مصر . وكل ما أرجوه أن يكون المصريون قد أدركوا الآن واجبهم نحو أمتهم ، وأن من غير المعقول أن تنهض صناعتنا ، دون عطفنا وتشجيعنا ولو اقتضى ذلك منا بعض التضحية .

والأثاث المصرى أصبح يضارع الأثاث الأوربى ، ويمتاز عنه برخص الثمن . ولم يعد ينقصه إلا الكثير من اهتمامنا وتشجيعنا .

***

والحل الثالث والأخير لمشكلة ازدياد السكان ، هو

إصلاح الأراضى البور . إن فى شمال الدلتا وحده ، مساحات واسعة من الأراضى البور تبلغ مساحتها نحو مليون فدان ، موزعة فى مديريات الدقهلية والغربية والبحيرة ، وهى لا تستغل ولا تنتج ولا تخفف شيئا من ضغط السكان فى الأراضى الزراعية . والى هذه الأراضى يجب أن نتجه بأنظارنا ، وأن نهتم بها كمنفذ للزيادة المطردة فى عدد السكان. لدينا الآن مئات من متخرجى مدارس الزراعة ينتظرون عملا ، وتحتشد فى أدمغتهم نظريات عملية يودون لو تتاح لهم الفرصة لتحقيقها عمليا . ولدينا مئات الآلاف من القرويين ، يريدون العيش ومن واجبنا أن نمهده لهم ، وينتظرنا فى الغد ملايين من المصريين يريدون مكانا جديدا ومنتجات أخرى ، ولئن أقعد الحكومة عن الإسراع فى إصلاح تلك الأراضى كلها قلة المال ، ومشاكل السياسة الداخلية والخارجية ، فإن الجمعية الزراعية الملكية ذات الأثر المشهود فى حياتنا الزراعية ، ترحب بالعمل ، وقد عرضت فعلا على أولى الأمر ، أن تمنحها الحكومة من عشرين ألفا إلى أربعين ألف فدان ، لتصلحها الجمعية بمعرفتها

وعلى نفقتها وبإشرافها ، وعرض خريجو مدارس الزراعة مثل هذا الطلب على الحكومة ، فلو تعاونت الهيئات الثلاث - الحكومة والجمعية وخريجو الزراعة - على إصلاح تلك الأراضى التى لانستفيد منها شيئا ، لصارت فى القريب العاجل أراضى زراعية يدفع أصحابها الضرائب للحكومة ، وينتجون القطن وهو أكسير الحياة الذهبى للخزينة المصرية ، وقد تكون النتيجة إصلاح حال الفلاح الذى يهيم فى ظلمات الجوع والعوز والشقاء .

ترف بالغ وشقاء أليم

ما أقسى شعور الشقى بمرور لحظات السعادة القصيرة التى تلوح فى حياته التعسة كالبرق يلمع لحظة فى السماء المظلمة ثم يتلاشى ! ولشد ما يعذبه شعوره بها وهى تمر سراعا مخلفة له مرارة الذكرى ولوعة الحنين !

لقد قضيت لحظات هادئة سعيدة فى بهتيم ، وهناك بين الفلاحات السعيدات كنت أنظر إلى ساعتى فى حركة عصبية مؤلمة ، وكنت أود لو أوقف عقربيها حتى لا تشعرنى دقاتها بأن الزمن يلتهم فى جوفه لحظات الهدوء والسعادة التى نعمت بها هناك ، لولا علمى أن ساعة الحياة تسير فى انتظام ، غير مكترثة بآلامنا وآمالنا إلا بقدر ما تكترث الرياح بذرات الغبار المتطايرة فى الفضاء ! ومرت الساعات وعدت إلى المدينة ، ولكن ظلت لى غيبوبة الحلم !

وانتزعتنى من أحلامى رسالة قصيرة من الآنسة « م . أحمد بالحوتية » حملها إلى بريد الأهرام الغراء صباح اليوم الثانى من سبتمبر ، كان كل ما فيها « لن تبخلى علينا بلحظات

نشرت فى الأهرام فى ٦ من سبتمبر سنة ١٩٣٥

قصيرة تقضيها فى قريتنا الحوتية على مسير ثلث ساعة من كوبرى الزمالك . نريد أن نراك وأن نلمس فى وجهك نظرة العطف التى يفيض به حديثك عن الريف ، ونريد أن نبكى بين يديك وأن نريك بؤسنا ، لا لتنقذينا منه ولكن لنشعر بعزاء الرحمة والحنان »

وساقتنى قدماى إلى هناك ، رغم يقينى أننى إنما أسير إلى البؤس والشقاء . لم يكن فى استطاعتى أن أصم أذنى عن النداء المتلهف الحار الذى فى سطور خطاب الأخت الفلاحة .

قضيت فيها ساعة واحدة ، وكأنما كانت وحدها عمراً كاملا من الشقاء ! لقد أثر فى قلبى ترحيب القرية بى وألهانى كرم لقاء أهلها عن التطلع إلى أجسامهم الهزيلة الشاحبة ، ولكننى لم أكد أتجول فى القرية ، وأشهد نوع الحياة الوضيعة الذليلة التى يحيونها حتى شعرت برغبة فى البكاء ! وحتى أيقنت أن من المحال أن تنهض مصر ، وفى جسمها تلك الأعضاء المريضة التعسة !

***

فلنعترف بريائنا !

إن فى الكثير من أعمال الإصلاح شيئاً من الرياء ، وتلك حقيقة يجب الاعتراف بها رغم مرارتها ، ذلك لأن

الباحث المدقق حين يقرب المجهر من بعض المشروعات الإصلاحية الهامة ، يرى أنها لم تكن خالصة لوجه الإصلاح المحض ، وإنما قصد منها نوع من الغرور والتظاهر الزائف!

ونحن فى حاجة إلى عيون نفاذة بصيرة تخترق ستار الرياء الذى يلف الشقاء المنحط الكامن فى صميم مصر ، وتتخطى المدن الجميلة المزوقة إلى القرى التى أصبحت وكأنها تحمل العوامل الهدامة فى نهضة مصر بعد أن كان تاريخ مصر كما قال حضرة الأستاذ حسين عنان السكرتير العام لوزارة الزراعة « يكاد يكون جهاداً فى استثمار الأرض ، فقد أقام الشعب المصرى مجده على أسنة الفئوس »

ولست أجد وصفاً أبلغ فى الدلالة على حالنا من البيت الكبير ، يروقك ما على جداره الخارجى من نقوش ورواء ، حتى إذا ما تغلغلت فيه طالعك منه بناء خرب مهدم ، تتصاعد منه رائحة نتنة عفنة ، وتحتل الحشرات ضيافة منه.

هذه المبانى الفخمة التى تملأ المدن والتى شيد أكثرها أغنياء فروا بأموالهم من سكنى الريف القذر ، وتلك الطرق النظيفة الممهدة ، والمدارس المنبثة فى كل حى من أحياء المدن ، والمستشفيات الكثيرة التى تسهر على صحة السكان ،

هذه الأشياء وأمثالها ما كان أصدقها فى الدلالة على نهضتنا لولا أن وراءها قرى يحيا فيها ملايين المصريين ، حياة لا يشرق فيها شعاع واحد من أشعة الإصلاح والاهتمام ، حياة شقية أليمة مريضة ما أشك فى أنها ستبث سمومها فى المدن كما يقتل الجسم عضو واحد مريض !

هذه المشروعات الإصلاحية ماكان أجدرها باسم النهضة لولا أنها طلاء مزوق لبيت خرب مهدم !

وبعد هذا يخدعنا ويطربنا إطراء الأجانب حين يهدئون شهوة غرورنا ويؤكدون لنا أن مصر صارت حقا قطعة من أوروبا ؟

أقول الآن — وأنا أعنى ما أقول — أنهم يسخرون منا ويتفكهون بنا ، وإلا فما هذه المساخر والأكاذيب ، التى يفتريها كبار الكتاب الغربيين على مصر وأبنائها فى كبريات صحفهم ومجلاتهم ؟ وفيم تشبثهم بالتهامنا ما داموا يعترفون بمدنيتنا الأوربية ؟ وهل ترى يغنينا هذا الاعتراف يوم نطالب جديا بحقوقنا وحين تريدهم أهواؤهم على إنكار ما أكدوه من قبل ؟

إن المؤرخ المحقق ، حين يهمه أن يسجل لمصر نهضتها ،

لن يكتفى بالنماذج التى نقدمها له ممثلة فى المدن ، وإنما سيتجول فى نواح أخرى غير هذه المدن ، ليشهد من شقاء الفلاح وانحطاط مستوى معيشته ، ما نحاول دائماً أن نتغافله ونتناساه ، كيلا يشوه علينا ترفنا ونعيمنا ! ومثله فى ذلك مثل المفتش الماهر حين يفاجىء المدرسة بزيارته ليرى جهودها فى التعليم ويحكم لها أو عليها ، فهو يتغافل عن نماذج « الكراسات » التى يجتهد المعلمون فى اختيارها ، ليبحث فى كراسات يطلبها بنفسه من التلاميذ !

والأجنبى ، حين يهمه أن يقف على حال مصر لغرض فى نفسه ، أو لمجرد المتعة ، أو لمحض الاطلاع ، أترى يشرفنا عنده جمال المدن وبهاؤها حين ينتقل فجأة من القاهرة إلى شبرا البلد مثلا ، وكأنما يقذف به من النعيم إلى الجحيم ؟ أتراه لا يحتقر زيفنا ورياءنا حين يسير به ترام الهرم من الزمالك إلى الجيزة ، فيشهد عن يساره أنوار العائمات الساطعة تخترق الظلام ممتزجة بضحكات أهل الثراء والنعيم بينما يرى عن يمينه قبيل « العجوزة » أكواخا حقيرة واطئة لا يصلح أحدها لسكنى الحيوان ، وتضىء كلا منها ذبالة ضئيلة باهتة لا تقوى على اختراق الظلام ، بينما تختفى فى

طيات الهواء أنات ضعيفة من أجسام منهوكة مريضة ، تتراكم في هذه الأكواخ وقد هدمها العوز وأذلها المرض والشقاء.

***

بينما كان أعضاء المؤتمر الجغرافي الذي انعقد في القاهرة في إبريل سنة ١٩٢٥ يزورون القصير طبقاً لبرنامج النزهة الذي أعدته لهم الحكومة المصرية ، أرادت آنسة بلجيكية في كثير من الإلحاح أن ترى « عزبة مصرية ؟ » ثم اختفت الآنسة وكأنما ابتلعتها الأرض ؟ أين عثروا عليها بعد الجهد ؟ في قرية مصرية من القرى البائسة التي لا تشرفنا بالطبع وفي يديها آلة التصوير تلتقط بها مناظر شقية قذرة ، لأقوام يتخبطون في ظلمات الفقر والمرض ، لتعود بها إلى بلادها وقومها وتريهم نماذج من حياة المصريين ! ولعلها نسيت أمام ذلك البؤس الأليم ، الصور الشيقة التي أعدها البرنامج ! ومن يدري ؟ ربما أصبحت هذه الصور وثائق في يد السياسة الغربية ، تقدمها دليلا على انحطاطنا وقت الحاجة ، كتلك الصور التي يلوح بها موسوليني ، ويرى فيها مبرراً لإخراج الحبشة من عصبة الأمم ، حتى يخلو له الجو ولا يفسد احتجاج جنيف عليه لذته وهو يلتهم الفريسة في نهم واستمتاع ؟

لست أجهل أن نسبة الإصلاح لا يمكن أن توزع عادلة على جميع البقاع المصرية - وهى ليست كذلك فى أوروبا - ولست أجهل ما لنظرية التفاوت فى الثروة من أثر كبير فى حفظ كيان المجتمع ، ولكنى أفهم أن التفاوت فى الثروة ، ليس معناه أن يكون نصف الناس ملوكا ، ونصفهم شحاذين مثلا ، كما أفهم أن صعوبة حفظ النسبة فى توزيع الإصلاح ، ليس معناه أن ترفل المدن فى ترف بالغ وتهيم القرى فى شقاء أليم !

أصلحوا المدن ، ارتقوا بها إلى عظمة المدن الأوربية لكن لا تنسوا القرى ومن فى القرى !

اجعلوا المدن قطعة من صميم أوربا كما تريدون ، ولكن على ألا يكون الفرق بينها وبين القرى ، فرق ما بين السماء والأرض !

لقد توهم البعض أننى أبتغى إنهاض الفلاح ، عن طريق رفع سعر الحاصلات الزراعية ، حتى يبقى له بعد دفع الضرائب وأجر السماد والرى ، ما يمهد له حياة معقولة ، ولكنى لم أفكر فى هذا ولن أفكر فيه ، ذلك لأن الأخذ بتلك النظرية الخاطئة - إن أمكن ذلك جدلا - معناه القضاء

على ثروتنا ، واضطراب ميزانية الدولة ؛ لأن انخفاض سعر القطن مثلا ، هو أكبر العوامل التى تمنحنا قوة المنافسة العالمية وتثبت أقدامنا فى المحيط الاقتصادى المضطرب ، وقد أيد ذلك الرأى ، الأستاذ جون تود كبير خبراء القطن فى انجلترا فقال : « كان القطن المصرى يخشى عليه من مزاحمة أقطان السودان وبيرو وإفريقيا الشرقية ، ولكن الآن وقد أصبح القطن المصرى أرخص أقطان العالم نسبيا ، فقد بدأ يسترجع مكانته ، وأصبح ينافس الأصناف المتفوقة من القطن الامريكى منافسة جدية » ، فإصلاح حال الفلاح عن طريق رفع الأسعار يكاد يكون مستحيل التنفيذ والفائدة .

إصلاح الفلاح يجب أن يقصد به تمكينه من زيادة الإنتاج ، ولن يتيسر له ذلك إلا إذا مهدنا له حياة صحية ممكنة ، وإلا إذا عملنا على تخفيض نفقات الإنتاج .

يقوم الفلاح المصرى بواجباته نحو الوطن كما لا يقوم بها سواه ، إنه يطيع القوانين ، ويدفع الضرائب الفادحة ، ويتقدم إلى الخدمة العسكرية دون أن تساعده ظروفه المادية العصيبة ، على تمثيل مهزلة البدل النقدى ، الذى يعتبر وصمة

فى جبين المصريين ، وهو بعد يعمل نهاره وليله فى ملء أسواقنا بالخيرات ، وخزانة الدولة بالمال ، فأما حقوقه ، فاما واجباتنا نحوه ، فعبثا نعثر على شيء منها ولو بمصباح ديوجين !

إن الفلاح الذى يملك ستة أفدنة دخلها أربعون جنيها ، يدفع اثنى عشر جنيها ضريبة سنوية للأموال ، عدا ضريبة الخفر ، وهو بعد هذا لا يشعر بأننا نحس بوجوده إلا ساعة يطالعه وجه الصراف ، بينما يدفع ساكن المدينة ثلاثة جنيهات عن مثل ذلك الدخل فتمهد له الحكومة سبيل العيش الآمن الصحى الراقى ، فهل تكون القرية جزءا خارجا عن الحدود المصرية ؟ هل هى من القلة والتفاهة بحيث لا يؤثر شقاؤها ومرضها فى جسم الأمة ، ولا يعوق سير القافلة ؟ أم قد فرض القانون حقوقا لسكان المدن وواجبات على القرويين ؟

يقول « الفلاح المسكين » : « لقد عزم كثير من إخوانى الفلاحين على الهجرة من أوطانهم ، فهل لك يا سيدتى أن ترشدينا إلى بلد نعيش فيه آمنين مطمئنين ، ولك من الله الأجر الجزيل ؟ » وأنا لا أملك إلا أن أوصيهم بالصبر

إن كان إلى الصبر سبيل . إن الفلاح يفارق القرية الحبيبة
إليه وفى قلبه لوعة وفى عينيه دموع حبيسة توشك أن
تنهمر لولا الحياء المداراة . والفلاحون يتحملون هول الفراق
لو كان هناك مكان آخر يعيشون فيه آمنين مطمئنين ، ولكن
أين هذا المكان وكل الأراضى الزراعية فى مصر تضيق
بسكانها ، وكل القرى المصرية يغمرها الشقاء ؟ لم يبق إلا
أن ننتظر كلمة المجلس الاستشارى لمصلحة الأملاك فى
مسألة إصلاح الأراضى البور ، ويهمنى والمجلس على وشك
الاجتماع كما جاء فى الأهرام الغراء ، أن أردد ما قاله سعادة
مدير الجمعية الزراعية الملكية : « إذا لم يستنفع بهذه
الكميات العظيمة من المياه التى صرفت الملايين من الجنيهات
المصرية فى سبيل الحصول عليها ، لتحسين وسائل الرى
الحالية وإصلاح الأراضى البور ، فإنها تترك لتذهب سدى
فى البحر الأبيض ، وهذا يبدو أمرا عجيبا أمام العالم ، مهما
قدمنا المعاذير والأسباب فالواجب القيام بأسرع ما يمكن
فى العمل على إصلاح البور من الأراضى ، حتى يمكن الانتفاع
بهذه المياه ، وتشغيل الأيدى العاملة العاطلة التى تضيق بها

الأقاليم المصرية ، وتكتظ بها المدن ، فيمكن تخفيف الضغط عنها واستغلال رؤوس الأموال المخزونة فى الإنتاج النافع فيقل العاطلون »

فاذا ماسعت الحكومة إلى الإصلاح العاجل ، فيومئذ نوفق إلى إنشاء مناطق زراعية جديدة يفر إليها الفلاحون الذين ضاقت بهم قراهم ، وضاقوا هم ذرعا باستبداد العمد ، فيجدون شيئا من الرحمة والرخاء ، ينسيهم ما قاسوه من ظلم وقسوة وشقاء .

***

لقد قست الحياة على سكان الصحراء الغربية ، من المصريين الأعراب الذين يعتمدون على الزراعة فى عيشهم ففروا إلى الإسكندرية ، مفضلين ذل الخدمة وقسوة العمل فى المبانى ، على الموت جوعا ، وأحسب أن هجرتهم يجب أن تكون نذيرا لنا ، كى نفكر فى البؤس الأليم الذى انحط إليه عيش الفلاح ، أما إذا تغاضينا أو اعتمدنا على الإصلاح الاسمى البطىء الذى لا يتناسب مع فداحة شقاء الفلاح فان العاصفة ستفاجئنا ويومئذ لن نملك إلا قولنا «ليتنا!!» حين لا تنفع ليت .

القسم الثالث

اصلاح القرية

فى جنة الريف !

١ - بين الحقيقة والخيال :

أما أن قرية بهتيم النموذجية كانت تلوح لى فى أحلامى فاتنة رائعة الجمال فهذا ما لا شك فيه ، وأما أن خيالى استطاع أن يصور لى حقيقة تلك الفتنة ومقدار ذلك الجمال ، ففى هذا الشك وفيه الارتياب !

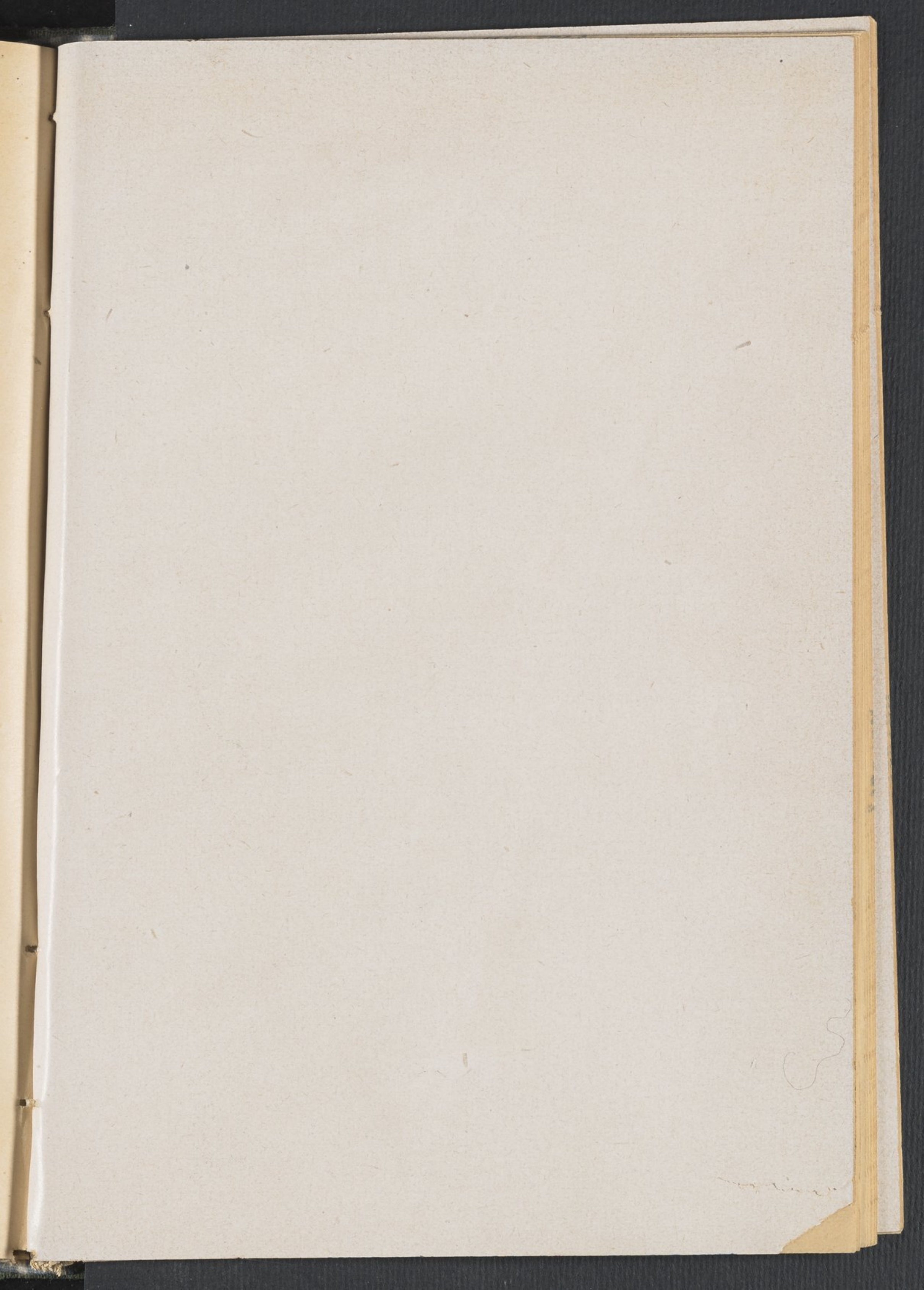
لقد اعتدنا أن نقرن الخيال بالإسراف والمبالغة ، وتعودنا منه أن يجمح فيرينا صوراً أروع من الحقيقة والواقع ولكن هذا الخيال قد يعجز أحياناً عن السمو إلى روعة الحقيقة ، ولا يقوى بجناحيه على التسامى بنا إلى جمال الواقع .

عزبة بهتيم ليست مدينة صغيرة بديعة وسط المزارع كما توهمت ! وكم كنت فى هذا التوهم ساذجة حمقاء ، لأنها لو كانت نموذجاً مصغراً للمدينة ، لكانت أشبه بالغراب الذى فتن بالطاووس ، فغطى جسمه بالريش الزاهى البديع واندس بين أسراب الطاووس ، فأهاجها حمق ذلك الدخيل

نشرت فى الأهرام بتاريخ ٢٩ من أغسطس سنة ١٩٣٥



منازل موظفى قرية بهتيم فى أحضان الحقول والأشجار



المفتون ، وأرغمته على الابتعاد عن حظيرتها ، فلما حاول الرجوع إلى حاله الأولى ، كان قد نسى مشيته وعوائده ، وكل ما ناله هو التعلق بين السماء والأرض ! لا يقوى على الصعود إلى سماء الطاووس فيهدأ غروره ، ولا يذكر طريق النزول إلى أرضه فيستريح !

وعزبة بهتيم . . . أين يكون سر الجمال فيها لو أنها كانت صورة للمدينة مصغرة ؟ أكانت تسمو إلى المدن الكبيرة فتذكر بينها ؟ أكانت تعد شيئاً مذكورا بجانب أبسط المدن وأصغر المراكز ؟ لا والله ، وتكون بعد هذا فقدت سحر الريف وسذاجة القرى وفتنة البساطة !

***

٢ - كيف وضع المشروع ؟

حين عمدت الجمعية الزراعية الملكية إلى إنشاء المثل الأعلى للقرى ، لم تفكر فى المدن كما فكرت أنا ، ولم تلق بالا إلى نظام المعيشة والمبانى ، وإنما عمدت إلى الريف ، تستلهم من عيوب القرى وانحطاط مستوى المعيشة فيها ، وحياً لتصميم العزبة النموذجية !

لقد نشأ مدير الجمعية فى صميم الريف وشاهد عن كثب وهو طفل ، أى نوع من البؤس يهيم فيه الفلاح ، فلم يملك

له إلا التألم والرثاء ، ولكن هذا التألم كان نواة المشروع ، التى نمت مع نمو الطفل ! فلما شب غلبت عليه نزعته العملية الصميمة فرأى أن نظام تأجير الأطيان غير عادل ! ذلك لأن تأثير الظروف الجوية والمائية على كمية المحصول ، وتأثير تقلب الأسعار وكثرة المضاربات فى سعر المحصول يجعلان أحد الطرفين ـ المالك والمستأجر ـ ظالماً ، والطرف الثانى مظلوماً ! وأرقه التفكير أياماً وليالى حتى اهتدى وهو فى سن العشرين ، إلى نظام الاشتراك ، يزرع الفلاح الأرض ويقتسم هو والمالك ما ينتج منها !

ثم مرت الأيام ، وأتاح له عمله كمدير للجمعية الزراعية الملكية ، أن يعيد التغلغل فى الريف ، وأن تعاوده ذكرى الشقاء الأليم الذى شاهده بعينيه يستبد بالفلاح المجاهد ! وتحركت بذرة المشروع فى رأسه تطلب الحياة . . فحمل أوراقه وقاد قافلة رجال الجمعية إلى القرى ! وهناك . . . فى الغرف الضيقة المظلمة التى يملؤها دخان الفرن ورائحة روث البهائم ، وضع تصميم غرف مزرعة بهتيم ! وبجانب حظيرة المواشى التى تختلط بغرف الدار وتملأ المكان رائحة نتنة قذرة ، وضع تصميم حظائر بهتيم الصحية

النظيفة ، وفى كتّاب القرية حيث يحتشد الصغار أمام « سيّدنا »
وتحت رحمة عصاه الغليظة القاسية ، وضع تصميم مدرسة
بهتيم الصحية المشمسة الواسعة ، وعلى حافة الترعة حيث
تكثر القرويات يملأن الجرار ويغسلن الثياب البالية
والأوانى المتواضعة الرخيصة ، وحيث تعوم جراثيم
البلهارسيا والانكلستوما ، منتظرة أجسامهن الدافئة
لتلتصق بها وتفترسها ، وضع مشروع مياه بهتيم ، التى ترفع
بالآلات الرافعة من بئر ارتوازية إلى خزانين مرتفعين ،
يغذيان مرافق العزبة بالماء النقى الطهور ، وهكذا تم المشروع ،
فى صميم القرى ووسط غمرات شقاء الفلاحين ، وليس فى
المدن كما توهمت وكما يتوهم غيرى كثيرون !

* * *

٣ ـ فى الطريق إلى جنة الريف :

محطة شبرا ، مفترق الطريقين ، المدينة والمزارع !
تطلعت من نافذة السيارة إلى القاهرة ورأئى تتضاءل
وتتلاشى بضجيجها ، وتطلعت أمامى إلى الفضاء المتسع
الرحب الذى لا يدرك نهايته الطرف ، وإلى الحقول الحية
تترامى منبسطة حتى نهاية الأفق نابضة بالقوة والحياة والجمال
ثم . . . تطلعت إلى السماء وفى عينى أذل أنواع الضراعة

والابتهال : رب إنى بائسة تعسة ، وأعلم أن من المستحيل نسيان الآلام العاصفة التى تستبد بى ، ولكن يا رب ! هبنى النسيان !

وانسابت السيارة بنا وسط المزارع الرائعة ، وكلما بعدت عن المدينة وتلاشى الصوت ، خف ضغط الألم الذى يجثم على صدرى ، ثم ما كادت السيارة تجتاز بنا ممر شبرا (المزلقان) حتى تحررت من أفكارى – لا أدرى كيف ؟ – وأحسست كأنما أنا بعيدة عن العالم بشروره ومتاعبه ... كم وددت لو أغادر السيارة ، وأغمر وجهى الملتهب ، برطوبة سيقان القطن الفارعة الخضراء ، ثم أصلى ركعتين لله العلى العظيم !

ولمحنا عن بعد لافتة كبيرة عليها « مزارع الجمعية الزراعية الملكية » فعلمنا أننا مشرفون على معقل الجهاد والوطنية العاملة ، ثم انحرفت بنا السيارات يميناً وكأنما هى تنحرف بنا إلى حياة أخرى غير الحياة المقيدة التى نعرفها ! وبدأت أفواج القرويات تطالعنا وتهتف بى أن ألتفت محيية ! فانصرفت بوجهى وقلبى إليهن لأشهد وجوهاً مشرقة بسامة تفيض سحراً وصحة ووداعة ، ولأذكر الوجوه الشاحبه الذليلة التى تشوه جمال الريف المصرى ، ووجوه

النساء الكاذبة المزيفة المصنوعة التى تطالعنا فى المدن ! ولم أملك أن صحت من أعماقى : ما أجملكن !

أين نحن ؟

فى العزبة القديمة ! آه . . . كأنما خشيت الجمعية على زائريها قسوة المفاجأة ! أو كأنما أحبت أن تدع لنا فرصة المقارنة . . .

وأحاط بى الأطفال يسألوننى فى سذاجة محببة إلى النفس عن اسمى ، وكأنهم ينكرون على سعادة المدير عدم تقديمى إليهم ! ولما أجبت مطلبهم عادوا منتصرين ، وسمعت زينب الطفلة الصغيرة الوديعه تهمس فى أذن أخيها الصبى : أنت مش عارفها ياعبيط ؟ دى ست فلانه ! وألحوا على أن أزور دورهم ، فاستسلمت فى ضعف مضحك ، وقادتنى زينب إلى الدار ، حيث كانت أمها تقطف ورق الملوخيه فى نشاط وبشر . وقدمتنى إليها فرحبت بى أكرم الترحيب .

وساءلتهن . . . ألا يؤلمكن العيش هنا فى العزبة القديمة ؟ فأجبن جميعا : حفظ الله سعادة البك ، سيبنى لنا عزبة ثالثة إن شاء الله ، لأن الجديدة لا تتسع لنا جميعا . . . دور القرية القديمة لا تختلف عن الدور الريفية المعتادة

ولكن ساكنيها ينعمون بعيش هنيء إذا قيس بحياة غيرهم من القرويين ؟ ففى الدور خبز وافر وجبن مخلل ، وفى أغلبها طيور وحبوب كثيرة ، وعلى المواقد شاهدت أوانى البامية والملوخية والفاصوليا . ووجوه المزارعين تشعر بأنهم يحيون حياة بسيطة معقولة .

إلى العزبة الجديدة إذن ؟ لا وإنما إلى معامل التجارب وحظائر الماشية واصطبلات الخيول أولا ؟ وأشرفنا على فناء متسع رحب ، على جانبيه اصطبلات صحية جميلة التنسيق ، تضم أكبر وأجود مجموعة للخيول العربية الأصلية . وأعطيت الإشارة ففتحت الأبواب ، ووقف على كل منها سائس ممسك بعنان جواد وأشار إلينا الجميع مرحبين ثم سارت الخيول أمامنا فى استعراض دائرى عجيب ، يتقدمها « ابن ريدان » الجواد العجوز الذى سئم المجد وكسب معارك السباق ما يقرب من عشرين عاما حتى لم تعد تغريه ، فهو ينظر إلى بقية الخيول وكأنه يدل عليها بتجاربه وسعة علمه ، وكأنما تبدو له آمالها صغيرة ساذجة . وتبعه خميس وعمره تسع سنوات ، مثال الجواد العربى ! ضامر البطن طويل السوق والعنق ، مرفوع الرأس فى شيء

من الدل والكبرياء ، وانتهى الاستعراض « بابن ابن ريدان » الصورة المصغرة من « ابن ريدان » الشيخ فى سن الثمانية ، ومثال الجمال والقوة والشباب — أخبرنى يا دكتو ! أئذا أعقب « ابن ابن ريدان » مهرا ، أفتسمونه ابن ابن ابن ريدان أم ابن حفيد ريدان ؟

فعلا ضحك الجميع وأنبئت أن الجمعية ستختار له اسما آخر كما ستغير اسم جواد أوربى الاسم.

وانطلقنا إلى ضيافة البقر والعجول ! فحيتنا صغارها بالقفز والوثب ، وحيتنا كبارها تحية رزينة حيث ضربت الأرض بحوافرها لتشعرنا بقوتها وهيبتها .

وشاهدت بقرة لها لون نادر لا عهد لنا به فى مصر ، وأخبرنى حضرة الطبيب البيطرى أنها أوربية ، اشتريت لتجربة الإنتاج المختلط ولأنها تدر لبنا أوفر من البقرة المصرية ، وإن يكن مقداره أقل مما لو كانت فى موطنها . فقلت : هذا كرم منها ! واستدرك الطبيب : لا ولكنها تأكل طعاما أكثر من البقرة المصرية - يا سبحان الله ! حتى البقر الأجنبى لا يعطى شيئا إلا بالثمن !

واسترعى سمعنا صياح الديكة ، فلبينا النداء وانطلقنا

إليها فاذا بها حبيسة فى أمكنة ضيقة ! هل جنت ذنبا ؟ لا .
ولكنها تجربة لمعرفة أثر قلة الحركة فى زيادة « السمنة » .
وتركت حضرة الأخصائى يشرح نظرياته ، وذهبت
إلى أسراب الأوز التى فتنت عينى بريشها الأبيض الناصع
المنفوش كأنه ريش النعام !

***

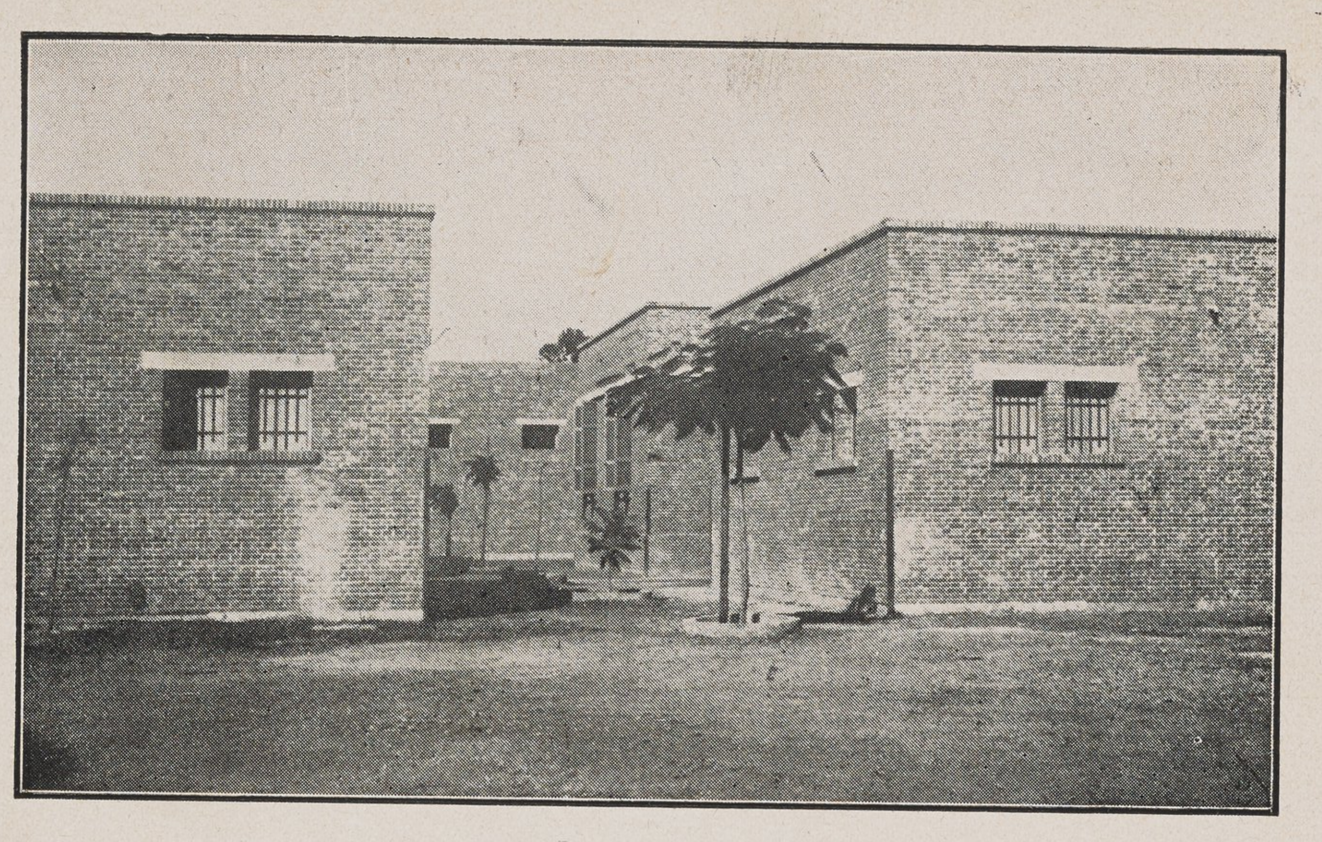
٤ - فى جنة الريف !

واحتوتنا بعد هذا العزبة النموذجية لتفتننى عن حياة
المدن ، ولتثيرنى على المعيشة بها ! الجملة الصادقة التى تصف
العزبة هى أنها « شىء لا يتصور بالخيال ولا يوصف بالكلام
المبتذل المعتاد ، وإنما تعرف وتدرك بالعينين ! »

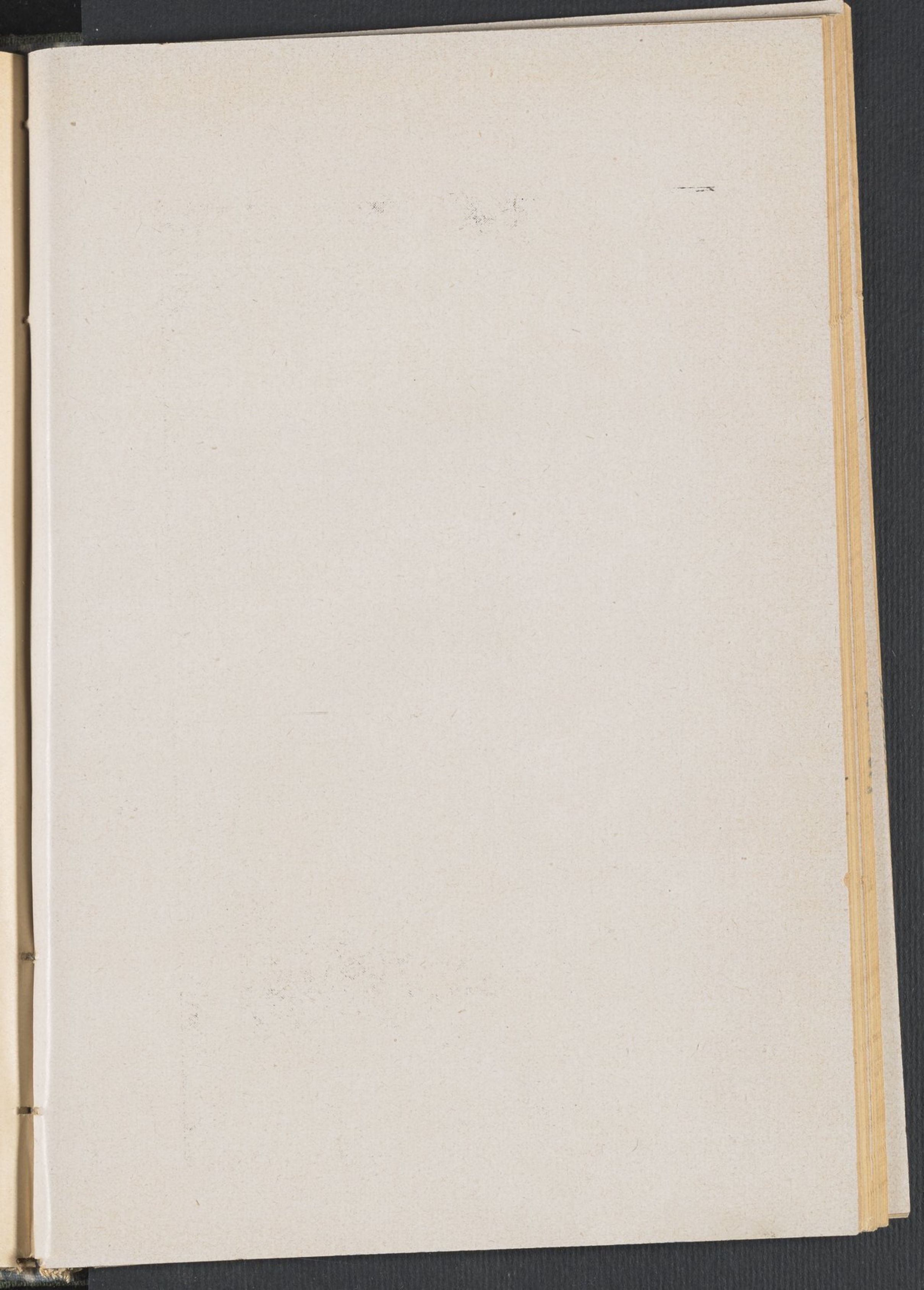
هنا تبدو عظمة الريف المصرى وروعة بساطته !
لا فى القرى الأخرى التى يشوه جمالها بؤس أليم وحياة
شقية ، ومساكن مظلمة بائسة !

هنا يتحقق مبدأ حضرة الرجل المصلح فؤاد أباظه بك
فى أن الإسراف فى الأناقة يجعلنا أصدق شعورا بألم البؤس ،
وأرق قلبا على التاعس المسكين .

هنا يتخلص الإنسان من آلامه ومتاعبه وينسى كل
شىء إلا روعة الجمال الذى ينكشف أمامه سافرا !



فتنة الريف كما تبدو فى القرية النموذجية



هنا يحتقر الإنسان رياء المدن ، وتبدو عظمتها ضئيلة تافهة أمام روعة الفطرة والبساطة .

أفى الريف نحن ؟ أجل ، ولكن فى أفتن جنة به !

المبانى لا ترتفع فى الجو ولا تحجب الهواء ، والطرق نظيفة واسعة تسمح للشمس بأن تلقى أشعتها على الدور طول النهار ، وتنتهى إلى ميدان متسع كأنه قلب القرية ، والغرف صحية عالية الجدران يملؤها ضوء الشمس والهواء ، والقرويون يمشون هنا وهناك ، وعلى وجوههم نضرة الصحة والقوة والرضاء ! والأطفال يملئون المكان بهجة ومرحا ، ويلوحون فى ثيابهم النظيفة البيضاء كالملائكة . .

دخلت فى أول دار قابلتنى فأخذتنى روعتها وبساطتها ، هذا « الزير » فى الصدر محمولا على حامل ساذج من جذوع الشجر ، وحظيرة المواشى والمرحاض الصحى النظيف إلى اليمين ، والفرن إلى اليسار وفناء الدار رحب مكشوف يتجدد هواؤه فى كل وقت ، وتغمره أشعة الشمس ، وفى الصدر بهو يؤدى يمينا إلى غرفة نوم على أرضها قطعة حصير وعلى المصطبة - سرير الفلاح - كليم مصرى زاهى اللون ، وعلى الصندوق الخشبى وسادتان وغطاء ، ويؤدى يسارا

إلى حجرة واسعة أعدت للجلوس واستقبال الضيوف ، أنيقة على بساطتها وبساطة ما فيها ، فقد صفت الأرائك الخشبية مغطاة بالأكلمة ، وزينت الأرضية بقطعة حصير نظيفة . واسترعى انتباهنا نقطتان من الأهمية بمكان ، الأولى : كون الفرن بعيدا عن غرفة النوم ، والفلاح مولع بالنوم فوقه عند ما تشتد قسوة البرد فى الشتاء ! والثانية ، كون باب حظيرة الماشية مطلا على فناء الدار .

وتمهلت قليلا أفكر ! لو أن الفرن وضع فى غرفة النوم لضاعت الفائدة الصحية التى ضحت الجمعية فى سبيلها بآلاف الجنيهات ، ولتصاعد الدخان مختلطا بهواء الغرفة ليستنشقه أخونا الفلاح كما هو الحال فى القرى الأخرى ، ولو أبعدنا حظيرة الماشية عن الدار ، لفرقنا بين الفلاح وبين ما يحب ! فللجاموسة عند المزارع منزلة الابن ، ولن يهدأ فى نومه ما لم تملأ الدار بصوتها المنكر ! ما العمل إذن ؟ الجواب عند حلال المعضلات ، فؤاد أباظه بك صديق الفلاح .

فأما عن الفرن فهو يرى أن خير وسيلة تحقق رغبة الفلاح ، ولا تتنافى مع قواعد الصحة والاقتصاد ، هى أن

يخترق الفرن الجدار ، بين غرفة النوم وفناء الدار ، بحيث تكون فتحته فى الفناء لتقذف بدخانها إلى الجو بعيدا عن الفلاح ، بينما يكون جسم الفرن فى غرفة النوم ، حتى لا نحرم الفلاح ولا نحرم دليلنا عم الحاج أمين (وهو شيخ فى الثمانين من عمره يتمتع بصحه جيدة) من نشوة الاستمتاع بنوم الفرن فى الشتاء !

وأما عن حظيرة المواشى ، فالرأى عند سعادة حافظ عفيفى باشا ، أن يسد الجدار المطل على فناء الدار ، ويفتح لها باب آخر من الخارج تدخل الماشية منه وتخرج ، على أن نرضى لهف الفلاح عليها بفتحه صغيرة فى الجدار « كوة » يطل منها على ما شيته كلما أحس برغبة فى رؤيتها والاطمئنان عليها !

واقترحت أنا ــ العفو ! ــ أن يدق مسماران على جانبى إحدى زوايا غرفة النوم ، يوضع بينهما حبل من الليف يجدله العم أمين وتعلق عليه ملابس النوم والمناشف والجوارب حتى تجف من عرق أو بلل ، بدلا من وضعها رطبة فى الصندوق .

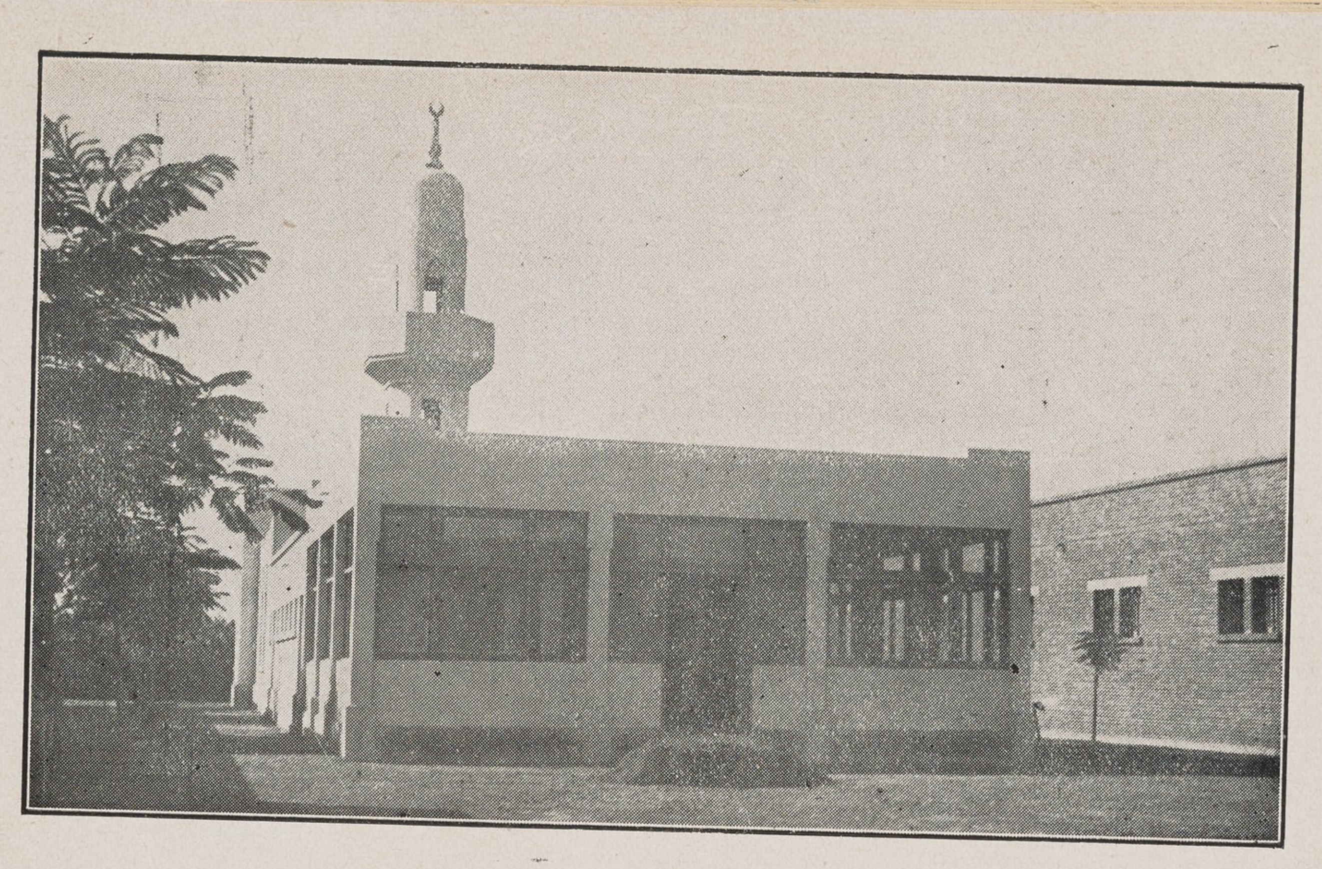
وذهبنا إلى المدرسة حيث رحب بنا حضرة الناظر فى

أدب جم غزير ، وأفرحتنى بساطة ثياب الأطفال وتقارب بيئة المدرسة من بيئة البيت ، وشاهدنا من ذكاء الأطفال عجباً ! وفى قسم البنات راعتنا نظافة الطفلات وجمالهن فى الثياب الزاهية البراقة بقدر ما أعجبنا بطريقة المناقشة فى درس الحساب ،وحسن استعدادهن وتفكيرهن !

وهتفت وأنا أضحك ! إنهم أسعد حظا منى ! كنت أجلس على أرض كتاب القرية وأنا أرتعد من (فرقلة سيدنا) التى أذاقتنى هولا !

وانتهينا إلى المضيفة ! أين منها شرفة أفخم الفنادق ؟ إنها أشبه بالجوسق الذى يتوسط الحدائق الكبيرة عادة . بناء رحب يسع نحو سبعين شخصا ، يغمره النور من جوانبه المكشوفة ، ويتوسطه صفان من الأعمدة تزيد من بهائه ، وإلى الجدران صفت الأرائك ليجلس عليها القرويون ليلا يسمرون ويتناقشون ، ترى كم هى فاتنة فى ضوء القمر الفضى الهادىء ، حين يهب نسيم الليل محملا بعطر الورود وشذا الأزهار !؟ ترى كم هى فاتنة فى المساء الساكن حين تحييها أسراب العصافير مغردة بلحنها الشجى الحنون ؟

وفى الجامع الجميل قرأت سورة الفتح ، ثم ابتهلت إلى



جمال وجلال

مضيفة قرية بهتيم وخلفها المسجد



الله أن يوفق رجال الجمعية ، فيما يبغون من خير للفلاح ، يد مصر العاملة ، وخادمها المخلص القنوع ، ثم تركت الجمع أسيراً فى قيد الفتنة ، وجريت منفردة إلى دور القرويين !

كنت موقنة أنى سأحب نساء القرية فصح منى اليقين ! إذ ما كدت أفاجئهن حتى أحسست وأَحسسن بأنى واحدة منهن ! غلبت على نشأتى الريفية ، فأخذت أقفز وأصيح أشد ما أكون سعادة وانطلاقاً ! وأبت كل واحدة إلا أن تضيفنى ! فاعتذرت مؤكدة أنى لا شك سأعود . . .

ونسيت نفسى ! ونسيت الزائرين والزائرات ، ونسيت أعمالى ومشاغلى بالمدينة ! عميت عيناى عن كل شىء إلا عن المكان الذى هو صدى لأحلامى منذ شاهدت الشقاء الأليم الذى يغمر الفلاح !

سرعان ما ائتلفت بكل من فى القرية ! لم هذا ؟ أيكون لأنى ريفية المنشأ والنزعة ؟ أم يكون لأن فى قلبى جراحاً دامية من ذكرى شقاء الفلاح فتشبثت بالمكان الذى تسعد فيه فئة من الفلاحين ؟

وفى الدور شاهدت مثال الحياة التى يجب أن تمنح

للفلاح ، وأفتن ما راعنى صوت القرويات المرح ، يملأ المكان جمالا وحياة !

سألت كلا منهن على حدة : أسعيدات أنتن ! فكان جوابهن الواحد : وهل فى ذلك شك ؟ ثم تتجه كل منهن إلى السماء بقلبها ، تسأل الله للمنقذ النبيل سعادة وتوفيقاً .

وأحاطت بى الصديقات مودعات ، يسألننى متى تكون العودة ، قلت : قريباً إن شاء الله ، أقرب مما تتوهمن ! أفتحسبن أنى أجلد للفراق طويلا ؟

وتطلعت ورائى أسائل النفس : هل يمكن أن أنسى اللحظات السعيدة التى قضيتها فى عزبة بهتيم ؟ هل يقوى الزمان على طرحها فى زوايا النسيان ؟ وهتف بى قلبى أن اطمئنى ، فلن تنسى مادمت أنبض فيك !

وخلفت العزبة ورائى ، واعتمدت رأسى بين يدى وأنا أجتر الجمال الذى وعيته هناك فى ذهول حالم ! بينما كانت رائحة المانجو التى أتحفتنى بها الأخت الكريمة « السيدة هانم » تملأ أنفى ودماغى ! وبينما كانت زهرة الفل المرتعشة فى يدى الذاهلة ، توحى إلى أننى لا زلت فى جنة الريف !

موسولينى الفلاح

فى قسوة الظهيرة من شهر يونية ، حيث السماء تقذف الأرض بالنار ، وحيث الهاجرة تغلى الدم وتصهر العظم ، وقد احتمى الناس بالجدران من قسوة الطبيعة ولاذوا بالبيوت فرارا من اللهب ، وقف الفلاح وسط الحقل ، عارى الجسم إلا مما يستر العورة ، وعلى رأسه قبعة كبيرة من الخوص ، يود لو تحميه من أشعة الشمس المحرقة ، وقد سال عرقه فاختلط بالقمح الذى يحصده ! وكلما أنهكه التعب وأدركه الاعياء ، ألقى نظرة على العمل الذى ينتظره بين يديه ، وعلى الحقول الواسعة المترامية الأطراف تنتظر آلافا من المزارعين أمثاله ، يشقون طول العام فى انتظار موسم الحصاد ، وتساءل : ترى هل يشعر السادة المنعمون بالثمن الفادح الذى يدفعه الفلاح فى إعداد طعامهم الفخم ؟ ترى كيف يكون المصير لو مضى الزملاء يلتمسون الراحة ويحتمون بالجدران ؟ ولا يصل به التفكير إلى هذا الحد حتى يشعر

نشرت فى الأهرام الغراء فى ٤ من أغسطس سنة ١٩٣٥

فى ساعديه بقوة جديدة تطلب العمل ، وفى قلبه بنشاط يصرفه عن التفكير فى القصور وما تخفى جدرانها من راحة ونعيم ! وربما حانت منه التفاتة إلى جاره الفلاح ، فيرى أن ما قد حصده زميله أكثر مما حصد هو ، فتثور فى نفسه حمية أقوى ، ويظل فى العمل المرهق إلى أن يدركه المساء ، فيتراخى جسمه يطلب الراحة بعد الجهاد الطويل الشاق .

من الرجل ؟

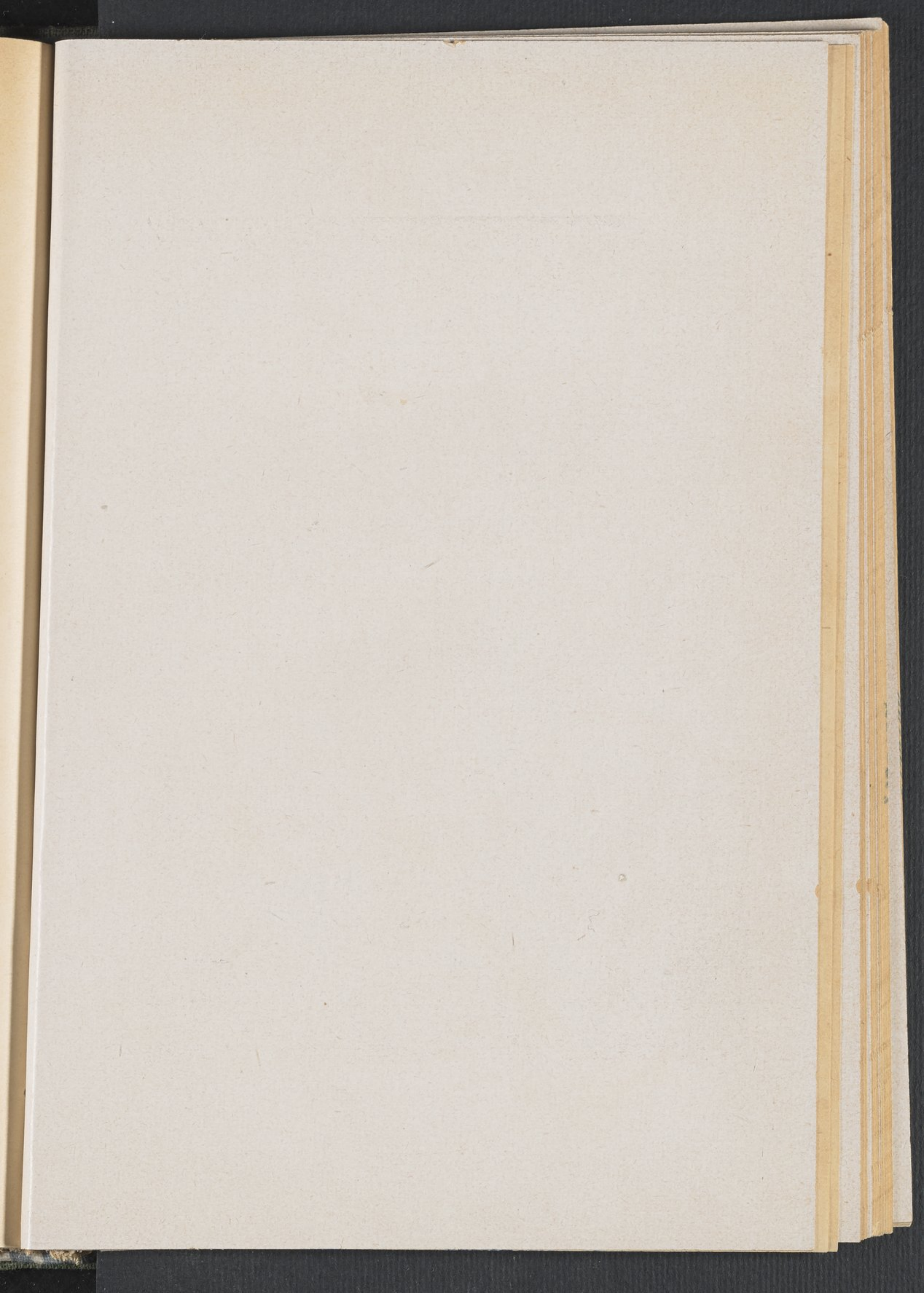
إنه موسولينى ، زعيم إيطاليا وحاكمها الدكتاتور ؟ انسوا لحظة شخصية الجبار الذى قال عنه السير صموئيل هور وزير خارجية انجلترا ، إنه يبغى الانتقام من الأحباش ، لأنهم لم يقدموا بلادهم هدية لجشعه الاستعمارى ، وانسوا لحظة شخصية المستبد الذى يقذف بمعارضيه فى مستعمرات بلاده بعيدا عنه ، واذكروا فى تلك اللحظة التى نكاد نسمع فيها دوى المدافع ، موسولينى الفلاح !

***

لقد أراد موسولينى أن يرقب حال الفلاح الإيطالى عن كثب ، ليقرر بشأنها ما يراه ، فاتخذ لذلك طريقا أشبه



منزل مزارع بمنطقة الاصلاح فى إيطاليا



بطرق المربين ، الذين لا يدرسون طبائع الأطفال مثلا ، إلا إذا نزلوا إلى مستوى تفكير الأطفال ! وفى شجاعة جريئة خلع ثيابه المثقلة بالأوسمة والنياشين ، وأمسك بالمنجل والفأس ! وبحث الايطاليون عن زعيمهم ، ليؤيدوه بهتافهم ضد انكلترا واليابان فى ثورتهما على سياسته الاستعمارية الفاضحة الكفيلة بتقويض الاستعمار كله ، فإذا بهذا الزعيم وسط الحقول ! يحصد القمح عارى الجسم تحت لهب شمس الصيف المحرقة ، ووسط فئة من الفلاحين المنبوذين !

هل قرأتم خطبة المصلح الاقتصادى فؤاد أباظه بك عن حركة الإصلاح الزراعى فى إيطاليا ؟ إذا كنتم قد دهشتم لهذه النهضة الحاسمة العاجلة ، فاذكروا أن موسولينى وضع خطة الإصلاح فى الحقل ، فبينما كان يمسك بالمنجل ويحصد القمح ، كانت عيناه تدرسان حال الفلاح وشقاءه ، وكان رأسه يدبر المشروعات ويرسم الخطط ، بعيداً عن المكتب الفخم ! وما أحسب أن نابليون يضج فى قبره إذا استعرت عبارته المشهورة ، وقلت : « إن موسولينى الذى يمسك بالفأس فى يمينه ، يمسك بمصير العالم فى تلك الآونة العصيبة فى يساره ! »

وإيطاليا ليست بلاداً زراعية ، ولا تعتمد على الزراعة فى ثروتها العامة ، فالأقاليم الزراعية فيها لا تعدو حوض نهر البو حيث يستمد النهر ماءه من الأمطار شتاء ومن الثلوج الألبية الذائبة صيفاً ، وحوض نهر أرنو وحول خليج نابولى ، ومحصولاتها الزراعية تنحصر فى القمح والتوت والكروم والزيتون ، وفيما عدا ذلك ، فإيطاليا بلد صناعى تجارى ، ولكن من أفرادها آلافا يشتغلون بالزراعة ، وهم أعضاء من جسم الأمة ، يؤدون واجباتهم نحوها ، فلهم أن ينالوا حقهم من الإصلاح ، وراح موسولينى يدرس حالهم عن كثب ، بل تواضع واختلط بهم وقاسى مشقة عملهم ، فثارت نفسه كزعيم أمة مسئول عن توفير الراحة لكل فرد من أفرادها ، واستطاع أن يغمر الزراعة والمزارعين بفيض من الإصلاح العجيب !

***

والآن إلى مصر !

مصر البلد الزراعى المحض ، الذى قال عنه سعادة كامل ابراهيم بك وزير الزراعة « مصر بلاد زراعية ،

بل هى من أصلح أقطار العالم للزراعة بما وهبها الله من تربة خصبة ومناخ صالح ، وبما وهب فلاحها من صبر على العمل وقناعة فى المطالب ، والزراعة فى بلادنا ما تزال هى المنبع الأول للثروة »

ظل الفلاح المصرى قروناً عدة يرسف فى أغلال البؤس والعوز والشقاء ، وكانت تتصاعد بين حين وآخر صرخات بعض الأفراد ، تهيب بالحكومة أن تيسر للفلاح الشقى المجاهد ، حياة ممكنة ، وهذه الصرخات تحدث صدى خافتاً لا يلبث أن تتلاشى ، وأخيراً تثاءبت الحكومة بعد نوم طويل عميق ، نعمت فيه الحكومات السابقة بأحلام ذهبية لا صلة بينها وبين فئة الفلاحين التعساء ، فألفت لجنة التعديل الضرائب !

نفهم أن يتفضل أعضاء اللجنة بزيارة القرى ، ولكن كيف يلمسون شقاء الفلاح وهم فى طريقهم إلى كفر المصيلحة وميت خلف ، يركبون السيارات الفخمة ويحيط بهم الموظفون المنعمون على حساب الفلاح المنكوب ؟

إن موسولينى رجل عصامى ، بنى مجده بيديه ، وذاق

فى طفولته ألواناً من الشقاء المرير ، وإذن فما كان أغناه عن التجربة القاسية ، تجربة الفلاحة والحصاد ، وله من حياته السابقة مقياس يفهم به درجة شقاء الفلاح ! ولكنه أدرك أن إصلاح حال الفلاح لا يمكن تمهيده وإعداده بين المقاعد الوثيرة ، وعلى الموائد الفخمة ، وأن كل إصلاح يأتى عن هذا الطريق هو نوع من الزيف والرياء !

***

هى جرأة منى أن أطلب إلى كبارنا زيارة للريف ؟ ما دام حسن النية متوفراً فلا بأس من الجهر بطلبى الجرىء المتواضع !

حين يشرف السادة أرض القرية لن أتصنع الجنون وأطلب إليهم أن ينزعوا ثيابهم الأنيقة ويمسكوا بالفأس ويشتغلوا فى الحقل ساعة ، كما فعل زعيم إيطاليا ! ولكنى أرجو أن تكون زيارتهم مجهولة المقصد والموعد ، حتى لا يحتشد السادة الموظفون المنعمون فى استقبالهم ، وينشئوا بأناقتهم وترفهم ستاراً زائفاً أمام أعينهم ، يحجب عنهم رؤية شقاء الفلاحين التعساء .

وستستقبلهم إذن جموع حاشدة من الأطفال ، حفاة

الأقدام عراة الأجسام إلا من ثياب مهلهلة لا تكاد تستر العورة ، وسيحملقون فى الضيوف الكرام بأعين ذاهلة لم تتعود رؤية ذلك النعيم ، فسادتنا حكام الأقاليم يحرصون دائما عند زيارة العظماء لأقاليمهم ألا تشهد عيونهم تلك الأجسام الريفية الخشنة القذرة ، وألا يلوثوا معدات الاستقبال الفخم ، بتلك المخلوقات التعسة التى تبدو كأنما هى غريبة عن البشر !

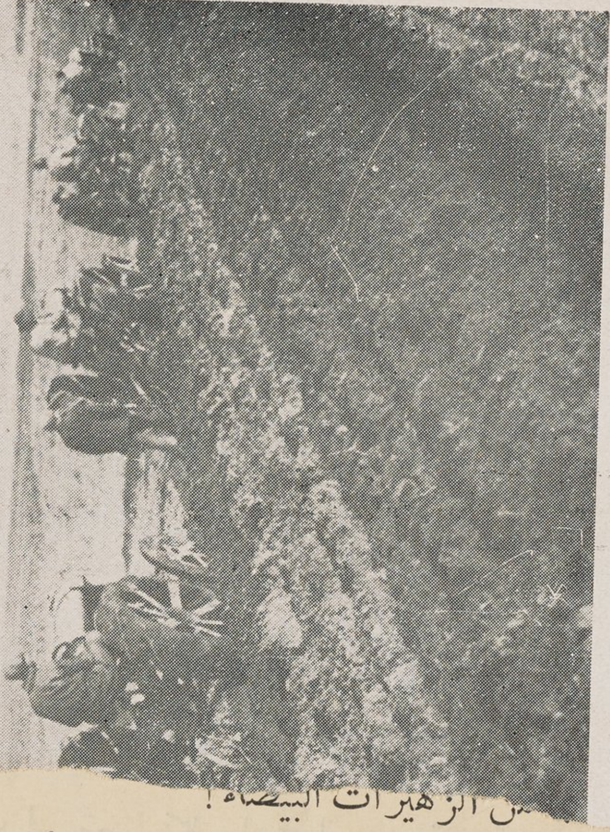
ويسرى الخبر فى القرية فيجتمع الفلاحون على رؤوس حقولهم ، وقد حمل كل منهم فأسه أو أمسك بزمام دابته ، وضم ثيابه على كمية من الأمراض ، يطالعون السادة بوجوههم الصفراء وأجسامهم القذرة المهدمة وبؤسهم البادى الأليم .

وحين يدرك التعب حضرات الزائرين ، أرجو ألا يمنحوا شرف ضيافتهم للعمدة وحده ، فحضرته قد يكون فى غنى عن هذا الشرف بشرف عمديته ، وإنما ألتمس أن يدخلوا أى دار من دور القرية ، ليروا عن كثب كيف يحيا أخونا الفلاح وكيف يأكل وكيف ينام !

وفى فناء الدار بجانب حظيرة البهائم وأمام الفرن

وأكداس الحطب والغاب ، يجب أن توضح خطة الإصلاح للقرويين ، الذين يحترقون ليضيئوا للناس وما أحسب حضرات المسئولين فى حاجة إلى أن أنبههم إلى أن الفلاح مهما طال زمن إضاءته ، فلا بد أن يحترق إذا لم نمده بعوامل الحياة ، ولنا الله يوم يحترق ويتركنا نتخبط فى ظلمات المجاعة والشقاء .





ضرب الأرصفة بالدبابات البريطانية في إ...

... الزهيرات البيضاء !

وقلت لصديقتى : اسمعى ، هذه رغبة لا أقاومها ، سميها ما شئت ، واختارى لها ما يحلو لك من أسماء . . . ولكن يجب تحقيقها !

وتقدمت أتغلغل بين الأشجار المحملة بالأزهار والأثمار وتقدم منى صاحب الحديقة باسما مرحبا ، فألقيت عليه

نشرت فى الأهرام الغراء فى ٢٨ من يوايه سنة ١٩٣٥

والاّن .. هل يسمع المصريون ؟

أرأيتم ذلك الشاب البرىء الممتلىء بالحياة ، يحكم عليه بالإعدام فينتظر الموت يسير إليه ببطء ولكن بالتأكيد ، ويموت فى كل لحظة من هول التفكير فى الغد وعذاب الانتظار ؟ لقد رأيت ذلك بعينى ، وكنت أسير مع صديقتى القروية بجوار حديقة ليمون فى القرية - ولحدائق الليمون فى المنوفية سحر عجيب - فامتلأ أنفى برائحته النفاذة العطرة ، وأحسست بنشوة ذاهلة أغمضت لها عينى وأنا أستنشق الشذا فى شهوة ونهم ، ثم تملكتنى رغبة جامحة فى أن أعمل لرأسى تاجا من الزهيرات البيضاء !

وقلت لصديقتى : اسمعى ، هذه رغبة لا أقاومها ، سميها ما شئت ، واختارى لها ما يحلو لك من أسماء . . . ولكن يجب تحقيقها !

وتقدمت أتغلغل بين الأشجار المحملة بالأزهار والأثمار وتقدم منى صاحب الحديقة باسما مرحبا ، فألقيت عليه

نشرت فى الأهرام الغراء فى ٢٨ من يوليه سنة ١٩٣٥

نظرة عجلى ، ارتد إلى طرفى بعدها دامعا محزونا .

كانت عيناه مثل كرتين صغيرتين من شدة الورم ، وقد سال منهما صديد أزرق لوث وجنتيه الشاحبتين ، وبدا على المسكين كأنه يعانى مجهودا هائلا ، ويستنجد بما بقى له من قوة إبصار ضئيلة مولية ، كى ينظر إلينا ، ويرينا فى عينيه كرم الفلاح المصرى النبيل ! كان يبتسم لنا ، ولكنها ابتسامة باهتة ، أبلغ فى الدلالة على الألم من الثورة ومن البكاء . لقد جثمت كتلة لحمية منكورة فوق عينيه ، ولم يبق له إلا شق ضيق ينظر به نظرات الوداع ، وقد تعتريه نوبة إفراز الصديد فلا يرى شيئا !

وحدثته ، فأيقنت أنه يعرف مصيره المحزن ، وهو لذلك يود لو يقضى كل ما بقى له من وقت قبل أن يصير أعمى ، فى النظر إلى زوجه وأطفاله ، وفى التهام جمال حديقته التى ارتوت بعرقه ودمائه وقوته ، وهو يرى الزمن يلتهم فى جوفه تلك الأيام القليلة الباقية ، وعما قليل يسدل على عينيه ستار أسود حالك السواد ، لا يتزحزح ولا يريم ، ولا تجرى عليه سنة التطور والفناء مادام حيا ، وسوف يحجب عنه رؤية أطفاله وهم قطع من قلبه وكبده ، ومشاهدة زوجه

البارة التى قاسمته حلو العيش ومره سنوات طوالا ، ثم ينكمش ذلك الفضاء السافر الرحب ، حتى يتلاشى ويكتنفه السواد !

وقلت ما يردده رجال مصلحة الصحة : ما عذرك والبلاد يحتلها جيش من أطباء الرمد ؟ وفيم السكوت والمستشفيات تملأ المدن ، وتقدم إليك العلاج مجاناً ، وترد إليك بمشيئة الله نور البصر ونور الحياة ؟ فأجاب وهو يبتسم ابتسامته الحزينة : لا طبيب فى القرية ، وحتى لو وجد فلا طاقة لى بأجره وثمن ما يصف لى من دواء ، أما المستشفيات ، فأن أستطيع أن أترك أطفالى وزوجى ؟ وأين أعيش فى بنها ؟ وأنى لى ثمن طعامى وأجر مسكنى إنى أفوض أمرى لله ! عليه توكلت وإليه أنيب .

***

وكما يجتمع أشتات الجند حين ينطلق فى المعسكر صوت صفارة القائد ، اجتمعت فى دماغى من أغوار سحيقة ، أشتات أفكار مبعثرة ، لم يكن ثم سبيل إلى تجمعها وترابطها لو لم ينطلق فى رأسى صوت الرجل .

فلمصلحة الصحة جهود موفقة فى خدمة الصحة ، ولكن

هذا التوفيق لا يمنع من الاعتراف بأنها جهود محدودة النتائج ، لأنها قامت على سياسة خاطئة ، فالمستشفيات كثيرة فى المدن ، حيث الطرق مرصوفة يسهر على نظافتها عمال مصلحة التنظيم والمجالس البلدية والمحلية ، وحيث المياه نظيفة مرشحة موفورة ، وحيث أحقر المساكن يعتبر قصرا بجانب أبنية القرى ، وما أحسب أن فى هذا مجالا واسعا لانتشار الأمراض المتوطنة ، وإن وجد فما أحسبه بالخطورة التى هو عليها فى القرى .

يقينا إن المدن بحاجة إلى المستشفيات ، ولكن أما آن لنا أن نهتم بالقرية وهى أشد من المدينة عوزا ، وأحوج منها إلى الرعاية ؟ وأعرف أن مصلحة الصحة يرضيها ويقنعها كثرة المقبلين على مستشفيات المدن من القرويين ، ولكنه عدد محدود نسبيا ، استطاع أن يضحى بأرزاقه فى سبيل الصحة بينما الأغلبية الساحقة من القرويين ، لا تبارح القرية مهما برح بها الداء ، وإلا فهل يفرون من المرض إلى الجوع ؟ إن القول بأن الصحة سبيل الكسب فيجب تضحيته فى سبيلها ، فلسفة تصلح لملء الكتب والنشرات الصحية ، ولكن عقول الفلاحين الساذجة ،

لا تستطيع هضم هذه النصائح السلبية العميقة .

وأعرف أيضا أن المصلحة تود لو أتيح لها تعميم المستشفيات فى القرى ، ولكن إذا كانت تلك رغبة صادقة ، فما بال المصلحة جادة فى إنشاء المستشفيات بالمدن العامرة بها حتى لتكاد تصيبها التخمة ؟ إننى أرى - والرؤية أهم من مجرد المعرفة - أنه بينما يقام فى القاهرة مثلا ، مستشفى فؤاد الأول ، وكان يغنى عنه مؤقتا مستشفى القصر العينى ، والرمد بالجيزة ، والحميات بالعباسية ، والملك بالمنيرة ، والأمراض الصدرية بالمنيرة أيضا ، والبلهارسيا والانكلستوما والكلب بفم الخليج ، وبينما يقام مستشفى الولادة بالإسعاف ، بجانب عشرات مراكز رعاية الطفل ، بينما يقام هذا وذاك ، لا يبذل جزء من ألف من هذا المجهود ، فى القرى المفلسة ، التى يقابل هذه المستشفيات عندها أنواع شتى من الأمراض . . . الرمد والبلاجرا ، وفقر الدم ، والبلهارسيا والانكلستوما ، والملاريا ؛ كما يقابل مراكز رعاية الطفل ، ومستشفى الولادة ؛ حلاق الصحة والقابلات الجاهلات .

إن تلك المنشآت جديرة بالتقدير والإعجاب ، ولكن

كان يجب أن يسبقها إنشاء مستشفيات متواضعة - ولو فى
خيام - فى القرى . والنفقات الباهظة التى تبذلها الحكومة
بسخاء فى بناء مستشفى بالقاهرة ، يكفى لإنقاذ قرى مديرية
بأسرها . ولست عدوة مثل هذا التجديد ، سيما فى عاصمة
البلاد ، ولكن ليس مما يشرف الحكومة ولا سمعة المصلحة ،
أن تشيد أفخم المبانى فى المدن حيث يمكن الاستغناء عنها
مؤقتا - وتضن ببضعة جنيهات على كل قرية ، لإنشاء مستشفى
متواضع ينقذ آلاف الأيدى العاملة والأجسام المريضة
القادرة على خدمتنا .

وحسبك داء أن تبيت ببطنة * وحولك أكباد تحن إلى القد .

***

كلما ذكرت أن مشروعى الطبيبين المصلحين ،
عبد الواحد الوكيل وشاهين باشا فى إصلاح القرى ، لا يزالان
يتمتعان بالنوم العميق فى مكاتب المصلحة ، ظهر لى ضآلة
الأثر الذى قد تحدثه كلمات فتاة نكرة مثلى - لا فى العير
ولا فى النفير - ولولا بقية من الصبر يتماسك بها الصدر

وشىء من الأمل يتعلل به القلب ، لحطمت قلمى واحترقت فى صمت !

ولكن ألا يعزينا أن نعلم أن لجنة إصلاح مياه القرى ، التى يرأسها سعادة وكيل الداخلية للشئون الصحية ، تفكر جديا فى المسألة ، وأن المشروع قد اعتمد له مليونان من الجنيهات فى خمس سنوات ؟ ترى هل تحقق الحلم وكان لصرخاتنا صدى ، لعل وعسى !

فلنرقب عن كثب ما ستفعله اللجنة ، وإلى أن يتم لها إنقاذ القرويين من الماء الملوث ، يجب ألا ننسى ضرورة التعجيل بإنشاء المستشفيات فى القرى ، وردم البرك ، وإصلاح المساكن ، ولمصلحة الصحة فى هذا كله الكلمة الحاسمة ، فهى المسئولة أمام الله والوطن والتاريخ ، عن حياة ١٫٢١٣٫٩١٥ من المزارعين - الإحصاء الزراعى الأخير - ومايقرب من مليون من القرويين غير المزارعين ، فى أمة يبلغ عددها خمسة عشر مليونا ، ومن حقهم أن يعيشوا وألا يبلغ بهم الشقاء إلى الدرجة المحزنة ، التى وصفها الدكتور محمود عزمى القطان بقوله : « الماء الجارى ، والصابون ، والبشكير ، الذى لا يعد شيئاً فى نظر الخاصة

هو الترف بعينه عند الملايين من مواطنينا الفقراء ! »

* * *

والآن إلى وزارة الزراعة . . .

ما نصيبها من المسئولية ؟

لا أكاد أفكر فى هذا حتى تبدو لى حقائق تدفع اللوم عن وزارة الزراعة فى حرارة وإخلاص . . فهى رغم كونها المشرفة على ثروة الأمة ، لا تنال من الميزانية إلا ٧٤٢ر٦٥٧ جنيها وهذا لا يزيد عن ٣٥ر٢٫٠٪ من مجموع مصروفات الدولة . ويدخل فى هذا الرقم التافه إيجار المزارع التى تؤجرها الوزارة ، وغير ذلك من أبواب المصروفات .

ولكنها رغم هذا المبلغ الضئيل تجاهد جهاداً ظاهراً فى محاربة الجراد والدودة وخدمة الزراع ، ولها فى الريف موظفون هم أكثر موظفى الدولة اتصالا بالزراع .

ولكن رغم هذا كله ، فالفلاحون لا يزالون كما كانوا يهيمون فى شقاء أليم ، وهم باعتراف سعادة كامل بك ابراهيم وزير الزراعة « أكثر الطبقات تأثراً بالأزمة ، لأنهم يضطرون إلى الاستدانة ، ويعجزون فى أغلب الأحايين

عن أداء ديونهم وفوائدها الفادحة ، وهم بعد هذا كله ، آخر من يتخلصون من أثقال الأزمة وأضرارها . »

وفى هـذا الشقاء المخيم على القرى ، دليل على أن أثر الإصلاح لا يتناسب مع فداحة مجهود وزارة الزراعة، ويقينى أن هذا يرجع إلى أن العلاج بنى على تشخيص خاطىء للمرض ، فالوزارة حين تصدر عدة مطبوعات ، وصوراً رمزية للإرشاد ، تنسى أن القرويين جميعاً أميون ، وأن تلك الصور الرمزية تحتاج إلى مستوى راق من الفهم لا يتوفر حتى للعدد المحدود من القرويين ، الذين تعلموا مبادىء القراءة والـكتابة ، وتجهل أن الرأى فى الريف المصرى لا يزال عند الاعتقاد بأن (فك الخط) هو العلم الغزير !

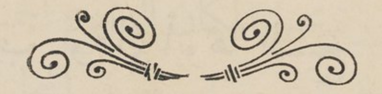
والوزارة حين تعمد إلى المذيع والخيالة والصحف لتبليغ رسالتها الإرشادية ، تنسى أن القرى على الإطلاق لا تعرف من هذا الترف الـكمالى إلا اسمه وما يحيط به من خيال مغر !

أما الموظفون الذين تعتمد عليهم الوزارة فى الإرشاد، فيجب أن نتركهم لتنفيذ القوانين وجمع الإحصائيات

وتحرير محاضر المخالفات ، ومن الإرهاق لهم أن نطالبهم بإرشاد الفلاح ، ومن الحمق منا أن نطلب إلى الفلاح الوثوق بهم والركون إليهم ، وهو يراهم أداة إرهاق فى يد السلطة الحاكمة !

على أن مهمة وزارة الزراعة لا يجب أن تقف عند حد الإرشاد ، فواجبها الأول ترقية حال الفلاح الذى هو المنبع الأول لخزانة الدولة ، إن الضرائب الفادحة التى تبلغ ١٧٠ قرشاً عن الفدان الواحد فى بعض الجهات — المنوفية مثلا — والتى تفرضها الوزارة على المخلوق التعس الذى لا يكاد يجد ما يتبلغ به ، هذه الضرائب ليس من الحق ولا من العدل بقاؤها ، فالفلاح المثقل الكاهل بها ، هو آخر من يستفيد منها ، ألا ولتذكر الوزارة أن إرهاق الفلاح بضرائب لا يستفيد منها شيئاً ، ولا تحتملها ميزانيته المحدودة ، وقسوة بعض محصليها فى تنفيذ القوانين الزراعية ، يدفعان بالفلاح إلى أيدى المرابين (وبنوك الرهونات) يعتصران دمه وقواه ، ويتركانه بعد ذلك كتلة ذليلة يغمرها عار الفقر والإفلاس ، وهو الذى يعمل ويعمل حتى تخور قواه !

إن إعلانات البيوع الجبرية ، التى تحتل أكبر مكان من الصحف الأهلية والصحيفة الرسمية ، دليل على تقصير الدولة فى حماية مواطنينا التعساء ، وإرهاقها إياهم إلى الحد الذى تباع فيه مواشيهم ودورهم ، وتنتزع اللقمة من أفواههم ، فمتى يتحرر الفلاح من كابوس الشقاء الجاثم على صدره يخنقه حتى ليكاد لا يسمح له باستنشاق الهواء ؟



حقائق عجيبة

سألتها فى ضراعة وابتهال أن تصحبنى فى جولة قصيرة ، فى أنحاء القرية المتشحة بالسواد ، وكان سكون القرية فى تلك الأمسية الحزينة يغرينى بالخروج ، ولو حرمت صديقتى القروية من ساعة تعودت أن تستريح فيها وتخرج بالنوم أثناءها من عالم الشقاء والأحزان ، كما قال شاعرنا أبو العلاء :

وفضيلة النوم الخروج بأهله

عن عالم هو بالأذى مجبول .

وكانت صديقتى نبيلة حين تلفعت بخمارها وتبعتنى فى صمت ثائر عجيب . وقال أبوها الشيخ : سأخرج معكما ولكن إلى أين ؟ قلت إلى حيث تقودنا أقدامنا ، ترى كم يخفى هذا الظلام من شقاء ؟ وكم من نفس تبيت فيه على الطوى ! ؟ فرددت الفتاة : أنا أفهمك . وصمتت لحظة ثم قالت : ما أشقانا بحنانك ! كان لنا أن ننعم بقربك طويلا لولم تثر شفقتك علينا ، ولو لم ينسك شقاؤنا جمال الريف .

نشرت فى الأهرام الغراء فى ١٨ من أكتوبر من سنة ١٩٣٥

وسرنا كأشباح تدثرت بأثواب الظلام ، ولم نتحدث طويلا ، شغل كل منا عن الآخرين بأفكاره ! ولعل الشيخ كان يفكر فى دودة القطن تحتل فى تلك اللحظة ضيافة كارهة من حقله ، وتأتى فى نهم على ثروته وثمرة جهاده ، ولعل الفتاة كانت تفكر فى الأيام السعيدة التى قضتها فى ضيافتى ببلدتى الشاطئية الساحرة . أما أنا ففيم كنت أفكر؟ لا أذكر بالتحديد فقد اعترتنى ليلتئذ غيبوبة ذاهلة.

***

بدا المكان صامتا فى غير وحشة ، وخلا من كل صوت إلا من همسات خافتة لاهثة كأنها أنفاس الملائكة أو حركات أشباح غير منظورة تحتل المكان الوادع الجميل، وكانت أمسية فاترة تغرى بالخمول ، بينما وقفت أشجار السرو والجميز الضخمة المعمرة كالأشباح ، تئن فى صوت هامس ويلمسها الهواء فترتعش وتهتز ، ثم تتساقط أوراقها الذابلة الصفراء على الأرض الداكنة فى صوت مختنق أجش كأنه حشرجة الموت .

وأدهشنى أن أجد جمعا من صديقاتى القرويات ، يملأن المكان حولى ويفدن من كل حدب وصوب ، وعلا

ضحكهن المرح فى الفضاء الساكن ، وبدت فى عيونهن رغبة مخلصة صادقة فى إشعارى بالراحة والاستمتاع .

وكان نقيق الضفادع يبعث فى القرية الساكنة نوعا من الحياة المجردة ، فجعل منها مرح الفتيات حياة مرحة ، فيها قوة وفيها شباب !

ولم يكذب الشيخ حين أكد لى أن وراء ثياب القرويين البالية المهلهلة ، نفوسا كريمة عفة ، وأن فى الأبنية القروية الحقيرة قلوبا رحبة نبيلة ، تسكن فى الهيا كل الشاحبة المريضة ، فما مررنا بدار إلا وألح أهلوها فى إضافتنا لتناول العشاء وقدح القهوة ، ولم يكن ينجينا من إلحاحهم وتشبثهم أيماننا المغلظة بأننا تعشينا والحمد لله ، وأن معدة الفرد منا لا تسع عشرات « أقداح القهوة » وكان كل قروى يقول : « شرفونا ياسادة ، الخير كثير والحمد لله » كم وددت لو أن لى طاقة على تحمل ضيافتهم كلهم ، حتى لا يذلهم علمى بعوزهم وفقرهم !

***

فيم المرح ؟

لم أجرؤ على الجهر بسؤالى وتعكير صفو صديقاتى

وهن يبعثن فى حواشى الليل ، بأغانيهن المرحة الفتية ، روعة تنسى الإنسان ماهن فيه من بؤس . وحاولت ان أندمج معهن فى أفراحهن وأشترك فى الغناء الريفى الساذج . فأقعدنى عن ذلك عمق شعورى بعوزهن ، كنت أعلم يقينا أن إحداهن تركت دارها وما فيها شىء يؤكل ، وشاهدت أخرى متخفية فى بنها تبيع أقراصا للوقود صنعتها من روث البهائم ، بينما لمحت ثالثة تسطو على لقيمات قذرة وضعت فى حظيرة المواشى بأحد الحقول ، وتمسحها بطرف ثوبها ثم تلتهمها فى شهوة عجيبة ، فكيف لهن هذا الصوت الحنون ينطلق داويا رنانا فى سكون الليل البهيم ؟ وهمست فى أذن والد صديقتى أسأله إنقاذى من حيرتى ، فلمعت عيناه ببريق الحزن وقال :

يظهر يا ابنتى أنكم فى المدن لن تلمسوا حقيقة ما نحن فيه من بؤس مستبد ، إلا إذا متنا جوعا وتراكمت جثثنا بجانب حقولنا ، وإلا فما دمنا نتحرك ونجىء ونروح ، فالفلاحون بخير ، وفيهم القوة على تعمير الخزانة وإنتاج الخيرات . للكثيرين منكم آراء عجيبة لا تجوز فى غير مصر . لقد شاهدت بعينى جميع الكبراء يسيرون فى

جنازة المغفور له عدلى يكن باشا كما اجتمعوا فى تشييع
كل كبير من قبل ، وكما سيجتمعون من بعد ! رأيتهم يتحدثون
ويتصافحون فنسيت الأقذار التى تلوث بعض الصحف
السياسية ، والفضائح التى تكال جزافا لكبار المصريين ،
وتساءلت لم لا يتحدون هكذا فى إنقاذ مصر ؟ ولم لا تتفق
كلمتهم على الإصلاح ؟

قلت وقد أخذتنى فلسفته الرائعة : ذلك حق يا أبى !

قال وهو يتأمل : والفلاح يا ابنتى ؟ أؤكد لك أنهم لن
يشعروا بحاجته إلى الإنقاذ العاجل إلا إذا مات الفلاحون
جوعا . إن شقاءنا ليس وليد اليوم ولكنها وراثة مثقلة
يتوارثها الحكام منذ آلاف السنين . لقد لمست بيدك نوع
الشقاء الذى نهيم فيه ، ومع هذا تخدعك ابتسامة هؤلاء
الفتيات ويغرك مرحهن فتتساءلين فيم المرح ؟ ولو كنت
ريفية صميمة لأدركت مثلى أن وراء هذا الضحك نفوسا شقية
تجتر آلامها ، ويهد الجوع والمرض كيانها هدا . إنها رحمة
الله يا ابنتى ، تنزل فى قلوبهن ساعة يجتمعن حول الضيف ،
فتنسيهن إلى لحظة قصيرة ثورة الجوع ومرارة العيش ! إنه
الصبر يا ابنتى ، تعودناه منذ تفتحت عيوننا على القرية المهملة

المتروكة ، ولولا ذلك لهدمنا العوز والحزن ، ومن لم يهدمه الحزن انتحر بيديه !

قلت : إنى لأعرف يا أبى أى بؤس تهيمون فيه . إن أجسامكم المنهوكة تعمل فى الحقل و تعمل فيها الأمراض ، ولهذا أسالك السر فى تحمل أجسامكم . قال : الصلاة يا ابنتى وعزاء الإيمان والتسليم لما كتب علينا ، والنوم المبكر والاستيقاظ المبكر ، وشىء من القوة تمدنا به الشمس والهواء ، والحياة العائلية الفطرية التى يتعاون كل فرد فيها مع الآخرين فى تسهيل مشاق العيش ، ولولا ذلك يا ابنتى لما كان هناك عيش أو كان ثم بقاء .

وسكت الشيخ ، فأطرقت فى ذهول أصغى إلى نغمات صوته الحزين ، تتجاوب فى صدرى وقلبي حافلة باللوعة والأنين ، وزميلاتى المخدوعات يحسبن أنى أصغى إلى أصواتهن الحافلة بالجمال والفتون !

* * *

أتحسبون الفلاح الشيخ مبالغا؟ إذاً فأنصتوا إلى الحقيقة يعترف بها الدكتور أحمد حسين مفتش قسم التعاون فيقول « إن الزراع المصريين — وغالبيتهم العظمى من صغار الملاك — يعيشون عيشة لا تليق بشعب ناهض راغب فى

التقدم . وذلك رغم ظروفهم المواتية من جو معتدل ، وتربة خصبة ، هذا إلى جلدهم فى العمل ، وقناعتهم باليسير من مطالب الحياة »

* * *

لقد بلغت ضرائب الأطيان والقطن فى سنة ١٩٣٣ ستة ملايين من الجنيهات إلا قليلا ، فإذا أضفنا إليها ما يقرب من ستة ملايين أخرى ، وهى ما تكسبه الدولة من الفلاحين بطريقة غير مباشرة فى الرسوم الجمركية لغير الدخان البالغة ٧ر٢٧٤ر٤٧٢ جنيهاً مصرياً ، ورسوم الخفر البالغة مليوناً ونصف مليون من الجنيهات ، كان مجموع ما يدفعه الفلاحون اثنى عشر مليونا من الجنيهات ، وذلك من جملة إيرادات الدولة التى بلغت ٣٧١٣٩٨٨١ جنيهاً مصرياً ، فى ذلك العام ، وهذا يقرب من ثلث إيراد الدولة ، ففيم إهمالنا للزراعة ، واحتقارنا للمزارعين ؟ أفيحسب البعض أن فى استطاعة مصر الاستغناء عن ثلث إيراد الدولة ، وعن قمح الفلاح وقطن الفلاح وجهاد الفلاح ؟

كل ما أرجوه هو ألا يخدعنا تحمل الفلاح آلافا من السنين ، فقد يتحمل سنوات أخرى ، ولكنى أعتقد أن

قوة التحمل فيه قد تلاشت ، وأن الصبر على شقائه لم يعد مستطاعا ؟ وإذا ظننا غير ذلك فويل لنا منا ، فنحن نقتل أنفسنا بأيدينا .

إن المسائل الزراعية تحتل مكانا ظاهراً من اهتمام المسئولين ، ولكننا تعودنا أن نهتم بها على حساب الفلاح المسكين ، وقد حان الوقت لنفهم أن إنماء ثروتنا الزراعية لن يكون عن غير طريق إصلاح القرية .



فتياتنا والتعليم الزراعى

فى كثير من المرارة والألم ، قرأت خبر رفض قبول الفتيات فى كلية الزراعة ، وأذهلنى أن يحال بينهن وبين المدرسة الوحيدة التى تحتم ظروفنا وبيئتنا الزراعية وجوب قبولهن فيها .

وفى الحقيقة ماذا يغرى الفتيات بهذه الكلية ؟ هل يتطلعن إلى وظائف ظفر بها زملاؤهن الطلبة ؟ أم تعجبهن الحياة الريفية التى يرشح خريجو الزراعة للمعيشة فيها ؟ أما عن مستقبل طلبة الزراعة فليس فيه مايغرى فى مثل تلك الظروف العصيبة ، التى بلغ من قسوتها أن عين بعض حملة شهادة الزراعة العليا ، بأجر يومى كما يعين صغار العمال ، وأما عن حياة الريف فليست فى حالتها الراهنة إلا حياة قذرة أليمة يغمرها العوز والشقاء والظلام ، ويبقى بعد هذين ، الميل الطبيعى وحده ، وهو الذى يدفع الفتيات إلى صرف خمس سنوات - هى خير سنى حياتهن - فى تعلم الفن

نشرت فى الأهرام فى ١٩ من نوفمبر سنة ١٩٣٥

الزراعى ، وهذا الميل القوى هو أقوى عوامل النجاح ، وهو جدير باحترامنا وتقديرنا .

والأساس الطبيعى المعقول لإنشاء المدارس هو أن تنشأ نتيجة لحاجة الشعوب ، ولست أعرف مدرسة فى مصر تلح الضرورة فى انتساب الفتيات إليها مثل مدارس الزراعة .

***

الريف المصرى محروم من الروح النسوية الرقيقة ، تهذب خشونة الحياة فيه ، وتنير ظلامه بنور الجمال والسلام ، وتحيل حياته القاسية الفقيرة إلى حياة فتية فيها سلوى وفيها عزاء ، وسيظل هكذا محروماً من تلك الروح ما دامت الفرصة لاتتاح للفتاة كى تحب الحياة الريفية البسيطة الساذجة ، مع أنها لو درست تلك الحياة ، لأحبت القرى والمزارع وأسرفت فى ذلك الحب ، فإن الجمال الريفى إذا أتيح له أن يتخلص من شوائب القذارة والفقر والمرض ، لبدا رائعاً جميلا أخاذاً .

الفتاة المصرية تفر من الريف وتعتبر نفسها شقية تعسة إذا قدر لها أن تحيا هناك بعيدة عن المدن الحافلة بالمغريات

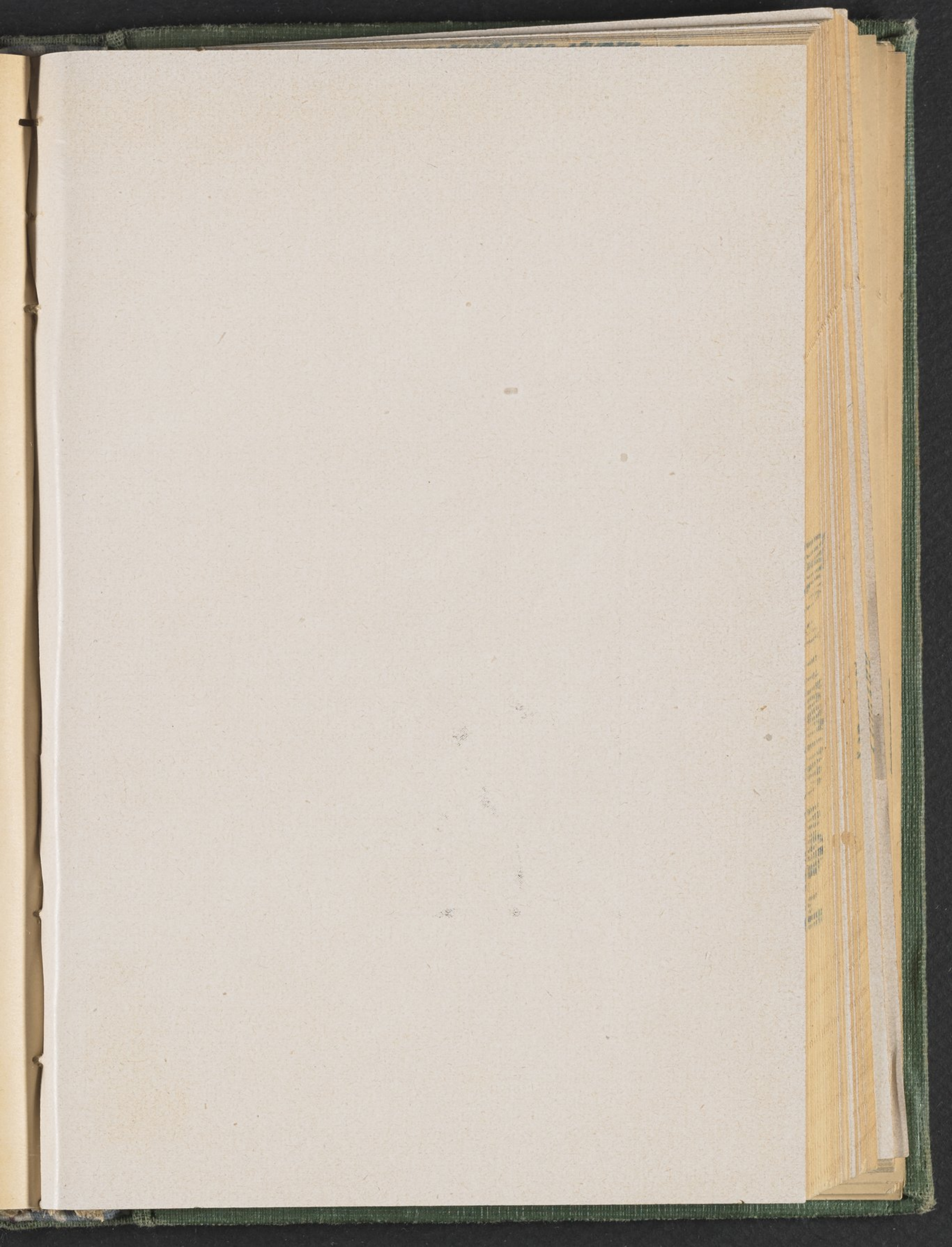
وترفض الزواج من ساكن القرية مهما كان له من ظروفه ومؤهلاته ما ينسيها مرارة التضحية التى تتوهمها ، وهذه ظاهرة خطرة لها ما بعدها ، فما دامت الفتيات المتعلمات يبغضن الريف ، فسوف يظل مغموراً بما يتخبط فيه من ظلام .

تكمن فى الريف المصرى أسرار جمال قوى يكاد يجعله أشبه بالجنة ، لولا هذا البؤس المظلم الذى يغمر القرى ، ويفرض على القرويين التعساء حياة وضيعة شقية ، ولقد أتيح للجمعية الزراعية الملكية أن تكشف لنا عن جمال الريف ، حين خلصت قريتها بهتيم من شوائب القذارة والمرض الذى يغمر القرى عادة ، فبدت القرية النموذجية جنة وسط المزارع والحقول ، وما أحسب الجمعية ندمت على عشرة آلاف الجنيهات التى صرفتها فى إنشاء تلك الجنة وحسبها أنها أنقذت مزارعيها من حياة ذليلة ، يحياها بقية الزراع فى مصر ، وما أشك فى أن انتاجهم سيزيد ويعوض الجمعية عما بذلته .

فلم لا نترك الفتيات يحملن الرسالة ، ويتمتعن بذلك الجمال ؟



روعة الفن ، وسحر الطبيعة



دراسة الزراعة تحبب الفتاة فى الريف وتقربه إلى قلبها ، وتفتح عينيها على الجمال المتغلغل فى المزارع والقرى ، وتثير فى قلبها نوعا من الرثاء للقرويين ، والرغبة المخلصة فى إسعادهم ، فإن كنا لا نحترم ميل الفتيات إلى الدراسة الزراعية ، فلا أقل من أن نصل بين الفلاح الوافر الشقاء ، وبين قلب الفتاة الممتلئة رقة وحنانا ، ولا أقل من أن نمهد السبيل لمعيشة عنصر نسائى مثقف فى القرى المصرية .

***

لو أتيح لنا أن نقوم بإحصاء شامل عن عدد الفتيات اللائى رفضن الزواج من الموظفين فى القرى ، لهالتنا النتيجة ولروعنا أن يقف جهل الفتيات بجمال الريف ، فى سبيل إنشاء أسر متعلمة تبعث فى الريف شيئاً من الحياة ، ولآلمنا أن يخسر الوطن تلك الأسر الجديدة النافعة ، كما آلم ولاة الأمور فى فرنسا ، حيث لاحظوا تلك الظاهرة الخطرة ، وهى فرار الفتيات من سكنى الريف ، وكان من المحال أن يجد المهندس الزراعى فتاة متعلمة تقبل الزواج منه ، وترضى بالحياة الريفية الجافة ، وكاد الشبان ينفرون من التعليم

الزراعى لولا أن تداركت الحكومة الأمر ، فأنشأت مدرستين زراعيتين للفتيات ، إحداهما للغنيات المثقفات اللائى يردن دراسة الزراعة كفن مسل رابح ، يتعلمن فيها فلاحة البساتين وغرس الفاكهة وزراعة الخضر والتكاثر الخضرى ، وهذه الدراسة تعدهن لحياة ريفية سعيدة ، فكانت النتيجة أن غمرت القرى هناك موجة من التهذيب ، أتاحت للفلاح الشقى المجاهد حياة ممكنة ، فى المناطق التى سعدت بوجود هذه العائلات المتعلمة الحريصة على النظافة والجمال . والمدرسة الأخرى ، للقرويات اللائى يشتغلن بالزراعة ويشاركن أزواجهن فى العمل الزراعى ، فيتعلمن الطرق الصحيحة النظيفة لحلب اللبن وصناعة مستخرجات الألبان وتربية الطيور والنحل والماشية ، فيكون للفتاة من هذه الدراسة صناعة رابحة مضمونة الفائدة ، تخفف عن أسرتها عبء الفقر وقسوة الحاجة .

وما أحوجنا فى مصر إلى هذين النوعين من المدارس ، حتى نقرب بين القرية وبين الفتيات المتعلمات ، فلا ينفرن من الحياة فيها ، وحتى تجد الفتاة القروية من دراستها عوناً لها ولأسرتها على شظف العيش وقسوته ؟

إن نساءنا القرويات جميعا يشتغلن بالزراعة ، فلم لانوجههن توجيها صالحا ولعل فى استطاعتهن إنقاذ ذويهن من الفقر الأليم ، عن طريق الصناعات الزراعية الرابحة ؟

لو أتيح لأحدنا أن يشهد كيف تحلب نساؤنا القرويات اللبن ، وكيف يجهزن الجبن والزبد ، لأنف من مجرد رؤيتهما ، فالفتاة تذهب أحيانا إلى البقرة وآثار روث البهائم لاتزال فى يدها ، وتضعه فى إناء قذر يعلوه التراب ، ثم تغطيه بقليل من حشائش الأرض ، بينما يشهد الإنسان فتاة سويسرية تحلب اللبن فيود لو يلتهمه من يدها دافئا ، وينسى أمام روعة النظافه وإغرائها ، حكمة الإغلاء وأناقة الموائد .

***

لقد عارض الكثيرون فى مسألة قبول الفتيات بمدارس الزراعة ، وكانت حجتهم فى ذلك أن الوظائف الزراعية التى يرشح لها خريجو الزراعة تقتضى جلداً وقوة ليسا للفتاة ، وأن الدراسة الزراعية تتطلب مجهوداً شاقاً هو أكثر من أن تتحمله الأنوثة الضعيفة ، فاما عن مسألة الوظائف الزراعية فيدحضها كون الفتاة تلتحق بمدرسة الزراعة وهى

تعرف يقيناً أن الحكومة لن تتعهد بتوظيفها ، وليس يكفى أن نمنع الفتيات عن مدرسة ما ، لمجرد توهم أنهن قد يطالبن بوظائف لا تتقيد الحكومة بها .

وأما عن صعوبة الدراسة فقد أثبتت الفتيات فى جميع الدراسات والأعمال التى قمن بها ، أن لهن جلداً على العمل وتصبراً ، هذا إلى أن الفتيات لا يجهلن هذه الصعوبة ، بل يقدرن مداها حق التقدير ، قبل أن يطلبن الالتحاق بتلك المدارس .

على أن النساء قد اقتحمن على الرجال كل شىء . فالتحقن بمدارس الطيران وفيها من الخطر على الحياة مالا تقاس بمثله مشاق الزراعة ، والتحقن بكليات الحقوق مع أن القضاء لن يعطل يوما ما لقلة المحامين الرجال ، والتحقن بمدارس التجارة وللتجارة مفاجآتها الرهيبة ، ومواقفها الدقيقة ، وهن فى كل هذه الحالات يجدن وسيلة للكسب ولكن على حساب الشبان ، ويشغلن وظائف لا تتفق وطبيعتهن وما يجب لأنوثتهن من حرص وحياء ، وكان يجب أن يشغلها شبان عاطلون الآن ، ولكنا رغم هذا خضعنا للظروف الشاذة التى خلقتها الحرب العظمى ،

وتركناهن يقتحمن على الرجال تلك الأعمال ، فلم نحول بينهن وبين التعليم الزراعى الذى يتفق واستعدادهن ، ويلائم بيئتهن المصرية ، وسيكون من ورائه إصلاح القرى ، وإنماء الثروة القومية التى تعتمد على الزراعة كل الاعتماد ، وإيجاد عمل مسل رابح لكثير من الفتيات ، دون المساس بمصالح الشبان ؟

***

بعد هذا كله لا أتردد من الاعتراف بأن مدارس الزراعة فى برامجها الحالية ، ونظامها الراهن ، لا تكاد تصلح للفتيات ، ذلك لأنى لا أغفل الفرق بين طبيعتى الفتى والفتاة واستعدادهما ، بل وألح فى التفريق بينهما فى برامج التعليم بحيث يراعى فى هذا التفريق ، اختلاف مركزهما المستقبل فى الحياة .

فى البرامج الحالية لمدارس الزراعة ، بعض مواد ترهق الفتاة ، كعملية التدخين والحرث والعزق فى حقول التجارب ، ولئن كان المستقبل للآلات الزراعية التى ستعفى الطلبة من مثل هذا الاستعداد ، إلا أن مسألة تعديل البرامج أمر سهل ، متى سلمنا جميعا بوجوب قبول الفتيات فى مدارس الزراعة

وما أحسب أن كلية الزراعة يعز عليها تأليف لجنة عاجله ، تعد نظاما خاصا للفتيات بتحوير برامج الطلبة ، كما تم فى التعليم الثانوى هذا العام .

إنى أعتقد يقينا أنه متى توفرت لدينا الرغبة فى قبولهن ، ومتى سلمنا بأهمية ذلك القبول ، فإن التعديل سهل ميسور كما كان سهلا ميسورا فى التعليم الثانوى ، حيث تم فى فترة قصيرة معقولة ، ولم يمنع اختلاف البرامج ، تساوى الجنسين فى الشهادة العلمية والدرجة .

مدارس الزراعة هى المدارس الوحيدة التى يمكن أن تتعلم الفتيات فيها علم أصول النبات والحشرات والبكتريولوجيا والكمياء ، والصناعات الزراعية وفلاحة البساتين ، وسوف يكون منهن طلائع الإصلاح فى القرى ورسل النهضة بين أهلها .

على أنى لا أطالب بقبولهن فى كلية الزراعة فقط ، وإنما ألح فى إنشاء مدارس زراعية أولية ومتوسطة فى عواصم المديريات ، فقد آن الأوان لكى نهتم بالتعليم الزراعى ونشر ثقافته فى بلادنا الزراعية التى أقامت مجدها على أسنة الفئوس .

***

فلنفسح الطريق للفتاة كى تتغلغل فى الريف وترى بعينيها أى نوع من الشقاء يتخبط فيه الفلاح ، وأية حياة ذليلة مريضة يحياها ، ولنتركها تدرس الزراعة لتؤدى رسالة الحياة فى هذه القبور المهجورة التى طال اشتغالنا عنها ، ثم فلنذكر دواما أننا لا تنقصنا وسائل إصلاح القرى بقدر ما ينقصنا صدق الشعور بشقاء الفلاح ، وصدق التقدير لحاجتنا إلى الفلاح ، وأخيرا صدق الاهتمام بإصلاح الفلاح !



اقتراح جدى

ترددت طويلا قبل أن أكتب كلمتى هـذه ، وتهيبت البحث فى مسائل فنية ليس من الحـكمة درسها على المـكتب ، وليس من السهل إيجاد حلول عملية ممكنة التنفيذ ، مهما تراءت لنا حلول نظرية كثيرة .

فى وصف شقاء الفلاح ، لم أكن فى حاجة إلا إلى عين تبصر ، وقلب يحس ويشعر ، وقلم يترجم ويعبر . وكانت خبرتى العادية فى الشئون الاقتصـادية ، واتصالى بمعيشة الزراع ، يسهلان على تلك المهمة ، ولـكن مسألة وضع الخطط الإصلاحية للريف ليست كذلك ، إنها تقتضى خبرة فنية لا أجرؤ على ادعائها ، وتستلزم بحوثاً عمليـة منقحة لا أنتحل إمكان القيام بها .

كان هدفى الوحيد فى بحوثى الريفيـة ، إثارة الاهتمام بإصلاح القرى ، وكانت وسيلتى إلى تلك الغاية ، محاولة وصف البؤس الأليم الذى يهيم فيه الفلاح والحياة المنحطة

نشرت فى الأهرام فى ١٢ من نوفمبر سنة ١٩٣٥

التى يحياها ، فأما طريق الإصلاح فأنا أتركه للمسئولين عن شقاء الفلاح وللفنيين وذوى الخبرة .

ولكن كيف يضع الفنيون خطة الإصلاح ؟

فى هذا فقط أستطيع أن أقترح اقتراحاً جديا أرجو أن يكون له صدى .

***

مسألة إصلاح القرية ورفع مستوى معيشة الزراع الأشقياء ، تقتضى دراسة كاملة عاجلة لنواحى الانحطاط الذى يهيم فيه الفلاح ، ويلزمها بحث شامل لحياته تشترك فيه الهيئات المسئولة جميعاً ، وفى مقدمتها وزارتا المالية والزراعة ، ومصلحة الصحة وإدارة الأمن العام وقلم قضايا الحكومة ، ثم الجمعية الزراعية الملكية وجمعية خريجى مدارس الزراعة . فلو عقد مؤتمر زراعى عاجل يتوفر على بحث الداء ووصف الدواء ، لتيسرت للفلاح الشقى المجاهد حياة ممكنة معقولة ، ويقينى أن الجهود الفردية الموزعة بين الهيئات المختلفة بطيئة الأثر وإن كانت محققة الفائدة ، والرأى عندى أن تتعاون هذه الهيئات جميعاً فى إيجاد خطة

منظمة حاسمة للإصلاح ، فتقوم وزارة المالية بتخفيف الضرائب التى ترهق الفلاح وتدفعه قسرا إلى أيدى المرابين الظالمين ، وتتكفل وزارة الزراعة بحماية الملكية الصغيرة فى بلاد يقول عنها عميد كلية الزراعة إنها «عريقة فى الزراعة والزراعة هى جل رأس مالها» والإرشاد المنتج الذى يسهل على الفلاح إدراكه أولا وتنفيذه ثانيا ، وفى الوقت نفسه تخصص مصلحة الصحة أكبر مجهود ممكن فى إنقاذ الفلاح من المياه الملوثة والمساكن غير الصحية والبرك التى تحمل عوامل الفتك بالفلاح المسكين والقضاء عليه . بينما تتكفل إدارة الأمن العام وقلم قضايا الحكومة بالإشراف الفعلى على العمد الظالمين وحماية الفلاح من استبداد بعضهم بقانون حازم صريح ، وإلغاء قانون العونة الذى لا يحترق بناره إلا الفلاحون الأشقياء ، ويأتى ذلك بتفسير قانون تحريم السخرة فى صالح الفلاح وعدم التقيد بحرفية القانون ، والتغلغل فى روحه لنفهم أن قانون العونة ليس إلا نوعا من السخرة البغيضة ، وبجانب هذه الجهود المتكاتفة تنتفع الأمة بنشاط الجمعيات الزراعية فى إصلاح الأراضى البور

وإنشاء مناطق زراعية تساعد على ترقية حال الفلاح وتخفف الضغط الهائل على الأراضى المنزرعة الآن والتى يسكنها ٩٩ ٪ من مجموع السكان ، بينما لا تبلغ مساحتها أكثر من $\frac{1}{30}$ من مساحة القطر المصرى ، وتمهد العيش الهنىء المنتج لعشرات الآلاف من العمال العاطلين والمزارعين البؤساء .

***

ثم فلأكن عملية إلى حد ما ، ولأتساءل مع المتسائلين .

« أمن الممكن إنكار اللجان التى تألفت وتتألف فى سبيل الفلاح ؟ » فى هذا لا أعارض ! لقد اجتمعت لجان كثيرة ، أكثر مما أبغى ومما أطلب ! ووضعت مقترحات عدة ، وتنفذ بعض هذه الاقتراحات .

ولكن ماهى الفائدة العملية التى اكتسبها الفلاح أخيراً ؟ هل ارتقى مستوى معيشته فأصبح يحيا كإنسان ؟ هل خف هجوم الأمراض المستوطنة التى تكمن له فى كل شبر من أرض القرية وفى كل قطرة من مياهها الملوثة ، وفى الهواء الذى يستنشقه متشبعاً بأبخرة البرك والمستنقعات ؟

هل صار يشعر بإنسانيته ويهتم بنظافة ثيابه وجسمه ومسكنه ؟ هل زاد إنتاجه أو احتفظ بمستوى إنتاجه العادى ؟ وإن كان فبأى ثمن ؟ هل تيسر له الغذاء الكافى المتواضع والحياة الآمنة المطمئنة التى تحبب إليه العمل والجهاد ؟

لست أجيب على هذه الأسئلة . وإنما أطلب إلى أولى الأمر أن يبسطوا للناس النتيجة العملية التى عادت على الفلاح من عشرات اللجان التى كثرت حتى لم تعد ذاكرتى تقوى على اختزان أسمائها ! ولست أحب أن نقرأ الأسلوب الذى تعودناه من نحو (قامت المصالح المسئولة بنصيبها من المسئولية) . وإنما أحب أن تبسط الفوائد الجدية المعقولة التى عادت على الفلاح من برامج الإصلاح ، وإلى أن نظفر بهذا البيان لا بأس من الجهر بأنى لا أعترف بسبق وجود برامج إصلاحية ، تمس حياة الفلاح بطريقة مباشرة ، وكل ما تم منها كان يقصد به زيادة الإنتاج ، لا بطريقة معقولة وإنما على حساب الفلاح المسكين .

موقفنا من الفلاح ليس مسألة معقدة يحتاج إدراكها
إلى بحث أو ذكاء ! إنه موقف بسيط لا يمكن تأويله بغير
حالتين ، إما أن نكون لم نهتم برفع مستوى معيشته وإما أن
نكون قد بذلنا الجهد فى هذا السبيل . فإن كانت الأولى فقد
حان الوقت إذن لنبدأ فى الإصلاح بمقتضى خطة منظمة
يرسمها المؤتمر الزراعى العام الذى ألح فى الدعوة إليه .
وإن كانت الثانية فإن هذه الجهود التى بذلناها قد ضاعت
عبثاً لأن الفلاح لايزال يرسف فى أغلال عوزه ومرضه
وشقائه ، وإذن فلا بد من البحث فى أسباب فشلها ، ولا بد
من تغيير خطة العلاج مادام الداء لايزال كما هو قويا
قاتلا ، وفى الحالين تبدو الضرورة ملحة قاسية إلى عقد
مؤتمر عام يدرس حياة الفلاح فى مراحل ثلاث : أولاها ،
حياته المستقلة التى يجب أن يتوفر فيها مايقربها من الحياة
الإنسانية المعقولة ، والثانية نوع الصلة بين إنهاض الفلاح
وبين ثبات الميزان الاقتصادى فى الدولة ، والثالثة مسألة
العلاقة بين الفلاح وبين المالك .

***

فاما حياته المستقلة فأحب أن ننظر إلى الفلاح كإنسان له حقوق بقدر ماعليه من واجبات ، يجب أن تتاح له حياة معقولة ممكنة. وعلى ضوء هذه النظرة ، تبدو لنا فداحة الشقاء الذى يغمر الفلاح الذى لا يعرف من الغذاء إلا ما يسد الرمق ولو لم يمد الجسم بحاجته من عناصر التغذية ، ومن الشراب إلا ما يطفىء لهب الظمأ ، ولو كمنت فيه جراثيم امراض تقتله وتفتك به ، ومن اللباس إلا ما يستر العورة ولو لم تكن له النظافة الواجبة له كإنسان ، ومن المسكن إلا المكان الضيق المظلم الذى يأوى إليه وأولاده ودوابه جميعاً ، ولو لم يتوفر له ما يجب للمساكن من ضوء وهواء نقى واتساع ، حياته الشقية الأليمة لن تصلح إلا إذا نظرنا إلى الفلاح كإنسان مثلنا تماماً ، وإلا إذا جرؤنا على التفكير فى مدى احتمالنا لو قدر لنا أن نحيا الحياة التى يحياها .

* * *

وأما الصلة بين إنهاض الفلاح وبين ثبات الميزان الاقتصادى فى الدولة فتلك مسألة فيها أنانية ، وإن كان فيها نظر ، مصلحة الدولة هى قبل كل شىء وفوق كل اعتبار ، ولكن دراسة حياة الفلاح وتأثيره القوى فى مستقبل الدولة

توضح لنا أننا ننظر إلى المسألة نظرة معكوسة ، فمن الخطأ الفادح أن نمضى فى طريقنا إلى إصلاح ميزانية الدولة على حساب الفلاح المسكين ، وأن ننمى ثروتنا الزراعية بإرهاقه وإهلاكه ، ونحن فى هذا لا نفكر فى المستقبل يوم يهلك الفلاح فتخرب الدولة ، ولا ننظر إلا إلى مدى محدود من إصلاح يقوم على الفساد ، والوضع المعقول لصلة الفلاح بالدولة هو أن نصلحه لتنمو الثروة ، وأن ننهض بحياته ليزداد إنتاجه ونقوى بذلك على مقاومة التنافس فى الأسواق الدولية المضطربة ، ونحن بهذا نستطيع أن ننظر إلى المستقبل نظرة الثقة والاطمئنان ، لأننا أقمنا نهضتنا الزراعية على أساس متين من إصلاح الفلاح وهو يد مصر العاملة القادرة على إسعادها .

***

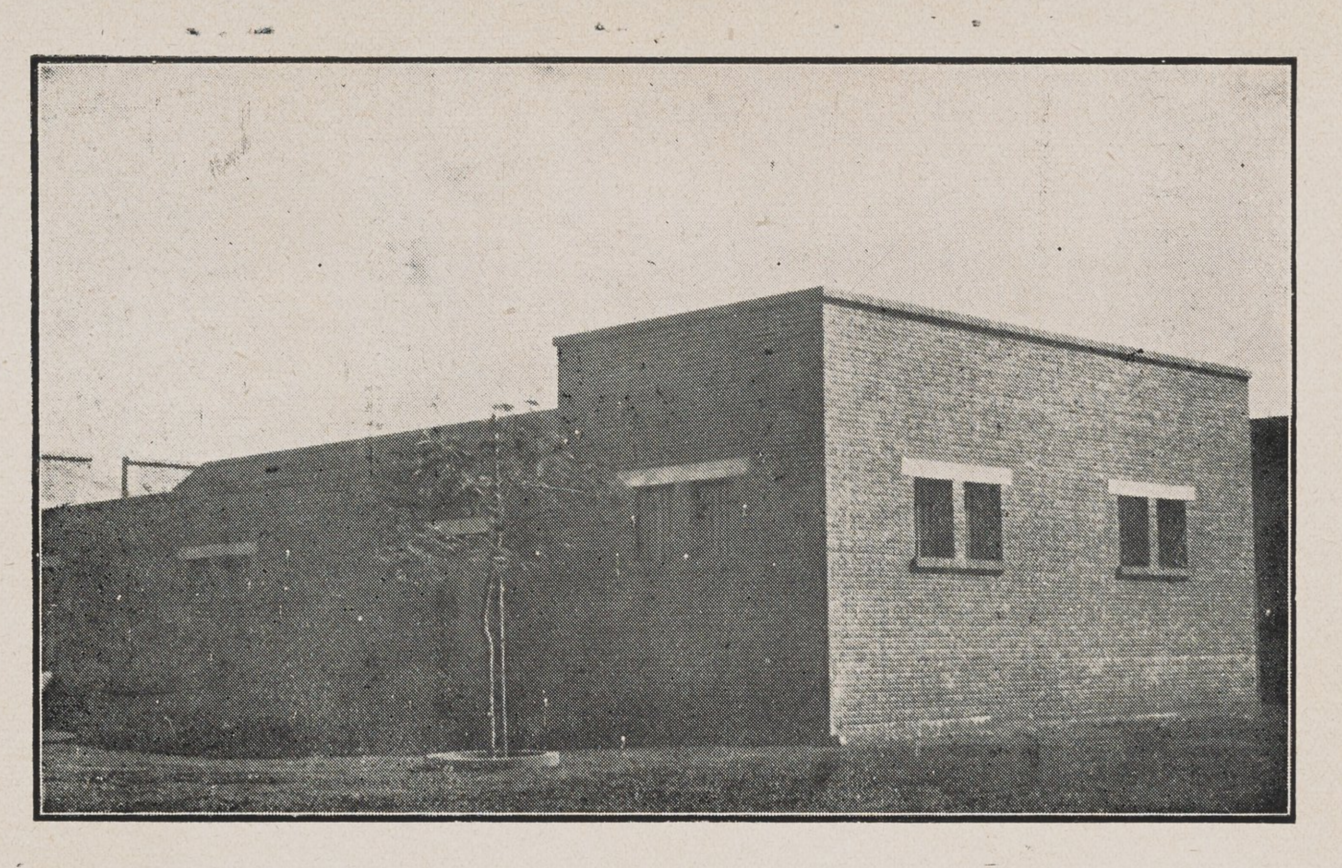
وتبقى بعد ذلك مسألة العلاقة بين الزراع والملاك ، وقد نبهنى إليها أحد كبارنا المشتغلين بالشئون الزراعية ، فقد يكون من السهل أن نجد طريقة لإصلاح حال فئة الزراع ، ولكنها غالباً تمس مصالح الملاك وهنا تبدو صعوبة

الإصلاح ، لأن الطرق العملية التى يؤخذ بها لا يصح أن تتعارض مع مصالح فئة أخرى .

وأرى من ناحية أخرى أن مراعاة مصـالح الملاك ليس معناها إرهاق الفلاحين التعساء ، وأن علينا أن نأخذ بحل أوسط نكفل به إيجاد التوازن بين مصالح الفئتين ، والمؤتمر الزراعى وحده هو الكفيل ببحث هذه المسألة وإيجاد الحل المنشود .

أخيراً . . . لقد ناديت بحماية الفلاح وألححت فى النداء . . والآن أخشى أن أصبح وأمسى فإذا بالظروف تلجئنى إلى الإلحاح فى المطالبة بإنقاذ الفلاح !





المنزل النموذجي للفلاح المجاهد



القسم الرابع

على هامش الريف

قصة ريفية

ذبول...

بقلم المؤلفة

وأخيراً اطمأن الشاب إلى صداقتى بعد أن كدت أيأس منه ، وزالت من عينيه نظرة الشك التى كان يطالعنى بها كلما حاولت التقرب إليه ، واختفى الاحترام المتكلف الذى كان يتكلفه أمامى . وحقيقة لقد كانت الهوة بيننا متسعة لكنى صبرت وثابرت . ومازلت به حتى وثق بى واطمأن إلى ، وأصبح ينظر إلى فى المستوى الأفقى لعينيه ، بعد أن كانت كلماته تنطلق كأنما هى صاعدة من مكان بعيد الغور .

لقد كان موقفنا شاذاً مضحكا ، فبالرغم من كونى صديقة سيدته الهانم ، فقد كنت أحاول التقرب منه ، بينما كان هو - هو البستانى البسيط - ينفر منى ويأبى أن يخاطبنى بغير تلك اللهجة الرسمية الشديدة التكلف . وبدلا من أن تسير علاقتنا سيراً طبيعياً يتناسب ومركز كلينا ، بحيث

يتقرب هو إلى ، وأترفع أنا عن التحدث إليه ، كان يتهرب من محادثتى ويتجنب النظر إلى ، فإذا سألته عن شىء أجاب إجابة مقتضبة تتكرر فيها كلمة « سيدتى » بكثرة مملة بينما يكون نظره عالقاً بالأرض دائماً ، كأنما كان يظن أننى لست بريئة فى التحدث إليه ، وأننى لا أتنازل لمحادثته إلا سخرية به أو تهكما عليه ، فإذا أحسن الظن بى فلا أقل من أنه كان يعتقد أنى لاأمنحه كلماتى وعطفى إلا كما يمنح المحسن السائل دراهمه ! !

وحاولت كثيراً أن أجعله يفهم أننى لست من الثراء كما يتوهم ، وأن صداقتى للعائلة الثرية ليست لتساوينا فى المركز والثراء ، وإنما لأن لى فضلا على سيدته الصغيرة الآنسة خديجة هانم أيام كنا نطلب العلم فى مدرسة واحدة ، وكان لى حظ من التفوق أمتاز به عن بقية الزميلات ، وفى دور العلم حيث الجميع سواء ، صارت خديجة هانم وهى ربيبة العز والثراء ، صديقة لى ، أنا الفتاة التى لا حظ لها فى مجد أو ثراء ! غير أن هذا لم يقنعه ، وازددت أنا تشبثاً بنيل ثقته لأعلم ماذا وراء تلك الثياب البالية ، ولأرى أى نفس تتعمق فى هذا الجسم البادى

الشحوب ، وأى أسرار تختفى وراء تلك النظرات الشاردة العجلى ، فكنت أجلس بجانبه وأتناول الطعام من أمامه إذا مررت وهو يأكل ، فإذا لمحت قذارة فوق ثوبه الأزرق الباهت ، مددت يدى فأزلتها دون تكلف أو امتعاض ، وهكذا بدأ يطمئن إلى ، ويثق بى بعد طول تشبث وعناد .

* * *

كنت أتردد على قصر صديقى كثيراً لشغفى بالجلوس وسط أحواض الأزهار واستلهام الخيال فى هذا الهدوء الشامل ، ووسط ذلك الجمال الطبيعى الساحر الأخاذ ، فقد كنت محرومة من ارتياد الحدائق العامة احتراماً لتقاليد الأسرة ، ولأن حريتى ستكون محدودة ما دمت محتجبة حريصة ، ولهذا لذ لى أن أستعيض بجمال حديقة القصر عما فقدته .

وكان كوخ يوسف ـ الشاب البستانى ـ يكاد يختفى بين الحشائش الطويلة وشجيرات البرتقال ذات الرائحة النفاذة العطرة ، ولا يصل المرء إليه إلا بعد أن يمر على

أحواض منسقة بديعة من زهور البنفسج الزرقاء وزهور العايق البيضاء. كان الشاب فناناً يعرف سر مهنته ويتفانى فى عمله ، ويسرف فى إرهاق نفسه كأنما كان ينشد فى العمل عزاء وسلوى عن شىء نجهله !

ذهبت إلى القصر فى أوائل شهر يونيه الماضى حيث اشتدت قسوة الحر فى بعض أيامه إلى درجة كادت تصهر فيها أبدان أبناء الطبقة الثرية المترفة ، وهى أجسام ناعمة غضة لينة ليس فيها خشونة أجسامنا وليس لها تحملنا . وكان طبيعيا أن تعجل أسرة خديجة بالفرار من القاهرة إلى إحدى موانى الاصطياف ، لأن لأفرادها أجساما يكاد يؤلمها مرور النسيم ، إنى لأذكر أن « حمدى » أخا خديجة شاكته يوما شوكة الورد فى إصبعه فاستدعى له طبيب العائلة ! ! ترى كم منا من لدغته العقرب ، أو أصابه صداع هائل ، فاكتفى فى الحالة الأولى بإسعافات ذويه الأولية ، وقنع فى الحالة الثانية بقرص من « الأسبرين » ؟ ذهبت لتوديعهم فوجدت يوسف ينسق تاجا بديعا من الزهور البيضاء والزرقاء ، أية فتنة وأى سحر فى هـذا التنسيق الفنى المنسجم البديع ! ! حييته فابتسم وصافحنى ، ثم جلست

بجانبه أناوله الزهيرات ليتفرغ هو للتنسيق ، فلما انتهى سألنى
عما إذا كان التاج قد أعجبنى ؟ فتغاضيت عن الجواب و قلت :
ما أبدعها هدية تقدمها يا يوسف لخديجة يوم سفرها ! فابتسم
ابتسامة ساخرة وقال هامسا : ليست لها . فتساءلت مندهشة :
ولمن إذن تـكون ؟ ؟ ؟ وهنا تجهم وجهه ، وغاضت تلك
الابتسامة الشاحبة التى كانت كقطعة من وجهه ، فحسبت
أنى آلمته وأردت أن أغير مجرى الحديث فقلت أسأله . .
ترى لماذا اخترت اللونين الأبيض والأزرق لزهيرات
كوخك وتاجك ؟ فصمت برهة وقال فى ذهول : ـ هذا
الزهر الأبيض الناصع البياض كبراءتها وحبها وطهرها ،
وهذا اللون الأزرق الباهت لجمالها وشبابها ، أو ليست
هى الأخرى زهرة شاحبة يكاد يصيبها الذبول ؟ كادت
الكلمات تفر من بين شفتى لتسأله (من هى ؟) لـكنى
أدركت أن ذلك ربما أذهب عنه ذهوله فيصمت . ولذلك
قلت وأنا لا أفهم ما أقول : مسكينة ! لها الله ! لشد ما يهمنى
أمرها ! فقال يوسف وهو لا يزال فى غيبوبة مطلقة وكأنه
يخاطب نفسه : قذفوا بها وهى الزهرة الناضرة بين مخالب

الوحش المفترس ! باعوها بالمال وذهبوا يتمتعون بثمنها وهى وحدها تذبل وتموت ! ماتت أمها وهى فى الثانية عشرة من عمرها . قلنا لا بأس ، فستجد من عطف أبيها ما ينسيها لوعة اليتم . وهناك فى الريف المصرى الساحر ، حيث الجمال والفتنة والسكون ، نما حبي لها ، فلما تزوج أبوها - وهو عمى - بعد أربعين يوما من وفاة أمها الشابة ، عولت على أن أحميها من قسوة زوجة عمى ! كانت هذه الزوجة عقيما قاسية القلب متحجرة الفؤاد ، لا تتعفف عن نيل ما تشتهى ولو خاضت فى سبيل ذلك بحرا من الدماء ! فأصبحت (زهرة) الفتاة المدللة الصغيرة فى جحيم من الشقاء فهى لا تكاد تظفر براحة ولا طعام جيد ولا حنان . . . كان عليها أن تنقل - السباخ - الى الحقل خمس عشرة مرة فى اليوم على ظهر الحمار الأعرج الهزيل حيث تبخر الشمس قطرات قواها وشبابها وجمالها . وكان عليها أن تجمع روث البهائم كل يوم وتعده أقراصا للوقود . فإذا أقبل الليل وتراخت الأجسام تبغى الراحة ، تفرغت (زهرة) الطفلة لخدمة الدار ! ولم تكن المسكينة تشكو ، لكنى كنت

أفر من عملي أحيانا ، مضحيا بأجرى كى أنتظرها على حافة الترعة ، فأقوم بتوصيل الحمار إلى الحقل والعودة إليها ، وهى جالسة مختبئة عند أمى ترتجف رعبا وفزعا ، وكانت تمنحنى من عطفها الشىء الكثير ، لكنى فضلت أن أتريث حتى تكبر وتنمو ، فمن الإجرام أن أفاجئها بحبى وهى بعد طفلة ساذجة صغيرة .

كان شقاؤها يميتنى ، وكان أملى فى أنى سوف أسعدها فيما بعد يحيينى ، وما زلت بين إشفاق يميت وأمل يحيي ، حتى فوجئت القرية بإعلان خطوبة (زهرة) . ممن ؟ من (الشيخ متولى) فقيه كتاب القرية ! روعتنى الصدمة وفجعنى التألم لها أشد من التألم لنفسى . (زهرة) الطفلة الجميلة الصغيرة ، تزف إلى الشيخ نصف الأعمى ، الوحشى الطباع الشرس الأخلاق ، الذى أربى على السبعين من عمره؟ لم أبك ولم أثر ، وإنما تملكنى حزن عساف مستبد ، جعلنى مطرقا ذاهلا أعمل كآلة صماء ، وكنت أتهيب الذهاب إلى (زهرة) حتى لا تقتلنى رؤيتها حزينة ثائرة ، ولكنها أرسلت تدعونى إليها فذهبت ، ولقد كنت أخشى أن يؤلمنى

حزنها فإذا بفرحها يقتلنى قتلا . رأيتها فرحة مجنونة فى فرحها تقلب الثياب الحمراء التى أعدوها لها فى غبطة ظاهرة وفرح أحمق ، سألتها : هل أنت سعيدة ؟ قالت ولم لا ؟ أو ليس هو السيد المطاع فى الحى ؟ انظر يا ابن عمى : لقد أصبحت سيدة فلم أعد أذهب إلى الحقل وراء الحمار ، ولم أعد أقوم بعمل الأمس المرهق ، وفى كل يوم يرسل لى (الشيخ متولى) قطع الحلوى وبعض الفاكهة .

أما ثوبى المزمن الذى كان كقطعة من جسدى فقد قذفت به بعيدا ، إذ ما حاجتى إليه وقد صار لى عشرة أثواب ؟ ثم انظر . . هذا النحاس الأحمر البراق لى وحدى ، وهذا الصندوق المزركش سيصبح مستودع ملابسى العزيزة ، وهذه الحشية الناعمة سأنام عليها بعد الحصير البالى ! ما بالك تبدو واجما لقد كنت أنت الشخص الوحيد ، الذى غمرنى بحنانه أيام تعاستى ، فاليوم حيث يذهب شقائى إلى حيث لا رجعة ، لا بد لك أن تباركنى ! وقفزت من مكانها وأنا حائر ، ثم طبعت على شفتى قبلة خرساء لا زلت أحس بحرارتها حتى اليوم .

كانت كلماتها الساذجة تعذبنى ، كم وددت لو أنها تثور !
ولكن لم أقل إنها طفلة ؟ طفلة تماما لا تهتم إلا بالحلوى
والثياب الحمراء ، وزوجة أبيها تمعن فى تضليلها .

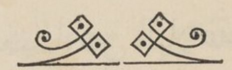
وتسألينى لماذا رضى أبوها ؟ لقد دفع الشيخ ثمنها ،
كم تظنين ؟ أربعين جنيها ، وهو مبلغ لا يحلم به الحاج
(سيد احمد) عمدة القرية ؟ ولقد زفوها إلى الشيخ وهى
حتى اللحظة الأخيرة تملأ الدار ضحكا وضجيجاً ، وكنت
هجرت القرية شهرين ، فلما عدت تفقدت الطفلة الجميلة
اللعوب فلم أجدها ، وإنما وجدت مكانها امرأة ناضجة
متفجعة تعسة ، لا تضحك ولا تبكى ، ولكنها تبدو ساهمة
شاردة . . . دائماً وفى كل وقت ، وقد فهمت المسكينة مدى
حبى لها لتزيد فى شقوتها ، ولكنى خنقت حبى فى صدرى
وحطمت قلبى فى الوقت الذى بدأت هى فيه تهتم بى . لم أجد
بداً من مشاركتها محنتها ، سعادتها هى كل شىء عندى
فأما جسمى الفانى فلا شأن لى به ، وها أنذا أذهب إليها كل
أسبوع لأحمل إليها تاج الأزهار ، رمز الطهارة والجمال
الشاحب الذابل ، وهناك . . . فى سجنها المظلم نجلس ساعة

صامتين لا نتكلم ولا نتحرك ، وهذه اللحظات هى النعمة التى تبقت لى ولها من الأمس الدابر البعيد .

إنى لا أعرف لحياتى نظاماً ، ولا لمستقبلى خطة ، لا إرادة لى ولا رجاء . . . إنى أمضى وسط تيار الحياة إلى حيث يحملنى ، وأما هى : فلها الله ؟ !

***

وسكت الشاب ، ثم أخذ يحملق فى الجو ونظره عالق بالأفق الهابط البعيد ، فقمت من مكانى تسوقنى قدماى على غير هدى فى منعطفات الحديقة ، ولما عدت إليه بعد قليل ، وجدته يعمل فى الحديقة وعلى فمه ابتسامته الذاهلة الشاحبة وفى عينيه نظراته الشاردة الجوفاء .



قصة ريفية واقعية

بين ناريه

بقلم المؤلفة

فى كل مظهر من مظاهر الحياة قصة ، وفى كل ناحية من النواحى مسرح تمثل عليه هـذه القصص الحقيقية ، ولو تلمس الإنسان حياته ونظر حواليه لأدهشه أن يرى نفسه يمثل دوراً .

نشط التأليف وكثرت الروايات . وضاقت مكاتبنا عن هذه الكتب الروائية الكثيرة ، وضاق وقتنا عن تحمل هذه القراءة المتتابعة مع أن فى نواحى الحياة الكثير من هذا النوع . وما يخفيه عنا إلا ضجيج الحياة والتنافس المر والجرى وراء المادة . وهاأنذا اليوم أسجل قصة لم يسدل عليها الستار بعد ، ويغنيها عن البلاغة أنها ليست كمثيلاتها التى توضع للتسلية ، بل هى حقيقة تقع حوادثها الآن فى ريف مصر ، وعلى المسرح تقف البطلة الصغيرة حيرى تنتظر إسدال الستار ونهاية المأساة . هى قصة حقيقية تمثل

جشع الآباء - أعنى البعض منهم - وضعف الفتيات ، وتحكم المادة فى الحياة تحكما مراً مؤلماً ؟.

مختار بك من أعيان قرية . . . بالقليوبية فى بسطة من العيش وسعة منه ، يملك ضيعة تبلغ مائة وخمسين فداناً ، ومنزله المبنى بالطوب الأحمر وسط الأعشاش الصغيرة باللبن ، يبدو كالقصر الشامخ الذى يضم بين جدرانه العالية ، حياة غامضة لا يعرف عنها أهل القرية ولا أعرف عنها أنا ، إلا الشيء القليل ، ومختار بك رغم عيشته فى صميم الريف ، يعيش عيشة المدن فملابسه وملابس أهله وأثاث بيته ونظم معيشته كلها لا تمت إلى الريف بصلة .

رزق بابنة متوسطة الجمال لكنها جذابة حسناء . فى عينيها سحر ، وفى صوتها الرنان شيء من الصرامة والأمر ، وفى فمها الصغير الغليظ الشفتين ، كثير من الغموض والإبهام ، ورزقه الله بعد اليأس ذكراً يرثه ويخلد اسمه العظيم الكبير سماه « يحيى » وهو اليوم فى الثالثة من عمره ، وكانت الابنة تركب عربة أبيها كل يوم إلى بنها ، حيث تتلقى العلوم فى المدرسة الابتدائية ، ثم التحقت بمدرسة المعلمات الأولية ، وعلمها التنقل والمشاهدة أن المال لا يكفى لسعادة

الإنسان إن لم يكن هادىء البال .

أفكارها فى الحياة لا بأس بها ، وهى أرقى بكثير من أفكار مثيلاتها الثريات المترفات ، وعجيب أن تشب الفتاة ذات نفس رقيقة نبيلة رغم ما أعلمه من استهتار والدها .

رأيتها يوما وقد وقفت تسألنى فى حياء جم أن أسمح لها بالجلوس بجانبى ، لأن القطار - وكان ذاهبا من بنها إلى ميت بره - لا يحوى سوى عربة واحدة للدرجة الثانية ، فقبلت مرحبة وكان ذلك بدء تعارفنا .

وسرنى منها طيب وفائها ، ووجهها الصبيانى الساذج ونظراتها العميقة البعيدة الحائرة ، وبساطتها المدهشة رغم ثرائها ورغم . . استهتار أبيها .

***

عائلة الشيخ دسوقى ، عائلة قديمة تسكن القرية نفسها من أمد بعيد ، متوسطة الجاه ، يكد رجالها الكثيرون فى الحقل طول النهار حتى إذا عادوا ، قنعوا بملابسهم التيلية البيضاء المزهرة وجلسوا على المصطبة ، منتظرين والدهم العم دسوقى ، فاذا حضر أخذوا يقصون عليه أحوال أرضهم ، فيذكر أحدهم حالة الغنم ، والثانى اهتمامه بالرى

أثناء الدور ، والثالث حالة المزروعات ، وهكذا حتى يفرغوا ، وبعدئذ يدخلون إلى وسط الدار حيث تأتى ـ مشنات ـ الخبز وإناء اللحم المسلوق ، وأطباق الخضار ، التى لا لحم فيها ، فيوزع العم دسوقى عليهم اللحم ، كل رجل وزوجته وصغاره .

عيشة ريفية صميمة ، لكنهم كانوا سعداء بها ، يزيدهم استهتار جارهم الثرى قناعة واغتباطا ، وكانوا مشهورين بالكرم والنخوة لأن جدهم ـ كما يقول العم دسوقى ـ كان من كبار الأعراب . وكان أصغر أولاد العم دسوقى ، واسمه حسين ، طالبا بمدرسة دار العلوم ، ولعله كان أسعد إخوانه ، فهو يجمع بين تحصيل العلم وبين الأصل المجيد والخير الوافر .

***

تعود حسين أن يقضى عطلته الأسبوعية بين أهله ، وكان يقضى الكثير من وقته فى مضيفة جارهم الثرى المتمدين مختار بك ، محاولا أن يخترق ببصره تلك الجدران السميكة ليرى ماوراءها ، أو يسير متجولا فى الخلاء ، ينشد الشعر والوحدة والالهام .

وكان الجار الثرى يرحب به ، لأنه الشخص الوحيد

فى البلدة ، الذى يلبس (افرنجى) ويتكلم بلهجة مصرية أرقى من لهجة الفلاحين (الأجلاف !)

وكانت نجية فى الرابعة عشرة من عمرها ، صغيرة حازمة ، ساذجة عالمة ، وكثيرا ما كان حسين يلتقى بها أمام الدار وفى الحقول ، وعلى حافة الترعة ، تشاهد حاملات الجرار . وكان يحسبها مثالا للغرور والكبرياء مثل أبيها المتعجرف ، ولكن أدهشه أن يراها كثيرا ، تساعد بعض القرويات على حمل جرارهن رغم ابتلال ثوبها الحريرى الأنيق ، وحذائها اللامع . ولاحظ أنها لاتأنف من محادثة القرويات والإصغاء إليهن فى ثقة وتواضع ، وهى ابنة الرجل الفظ الكسول ! كانت ملاك القرية كما يسميها الجميع ، وراع الناس منها أن تهجر القصر طول النهار ، متنقلة كالفراشة البيضاء ، حتى إذا ما أقبل الليل ، دخلت البيت مطأطئة الرأس .

أحبها حسين حبا قويا غلابا ، وعلمت هى منه ذلك فصمتت وإن لم تر فى ذلك غرابة أو شذوذا . وتجنبت جهدها لقاءه ، لاترفعا منها ، بل حياء وإشفاقا عليه أن يذهب ضحية أمل لاسبيل إلى تحقيقه ، وأن يقامر بحياته فى التعلق بسراب كاذب .

وتحادثا طويلا ، وحاولت أن تقنعه أن أباها لا يطاق ، ولكن الأمر كان قد خرج من يده ، وأصبح لا يفهم كيف يبغض تلك الصغيرة النبيلة الجديرة بالحب والاعزاز .

وأوشك حسين أن يتم دراسته فتقدم إلى أبيه الشيخ ، يكشف له عن حبه ، فنهاه الأب وذكره بتقاليد الأسرة ، التى تأبى زواج الشاب من غير بنات أسرته ضمانا للخلق والبقاء ، وهناك بنات أعمامه كثيرات . لم يأبه الشاب لغضب أبيه وتقدم إلى أب الفتاة يطلب يدها ، فزجر الرجل وقال فى احتقار :

يا إلهى ! ابنتى أنا ؟ من أنت ؟ مادخلك وماذا تملك ؟ ألا فاذهب إلى إخوتك فى الحقل ، وانظر كيف يكون الفقر والقذارة واعرف من أنت - أتسمعنى ؟

خرج الشاب يجر قدميه جرا ولم يذكر لأبيه شيئا ، بل ولم ينقم على الفتاة وقاحة أبيها وقسوته ، واكتفى بما سمعه من أن الفتاة غضبت وصرحت لأبيها أنها كانت تسعد مع حسين رغم فقره وقذارته ، وأن الأدب كان يقضى عليه أن

يصرفه عنها فى لطف واحترام ، فازداد لها حبا ، وعول فى غضبة الرجل المحب أن يكون لها أهلا .

***

أخذ يدرس فى مدرسته نهاراً ويتعلم اللغتين الفرنسية والإنكليزية ليلا حتى أجادهما ، فالتحق بامتحان المعادلة فى الشهادة الثانوية قسم ثان وكان من الناجحين .

حينئذ ترك مدرسته أقرب ما يكون إلى إتمام الدراسة بها ، والتحق بمدرسة المعلمين العليا ، وقسا على نفسه فى العمل والاجتهاد ،غم عذابه ولوعته ، معتقداً أنه بذلك يسير إلى أمله سيراً حثيثاً ، لقد عاهد نفسه أن يكون لها أهلا . . فليعمل ! وطالت الأيام ، ثم قصرت فجأة ، ثم إذا به يرى اسمه فى طليعة قائمة النــاجحين فى الدبلوم فحمل أمله وثروته ، وركب القطار إلى القرية . . إلى أب الفتاة .

***

ضج العــالم لنزول أسعار القطن واشتداد الأزمة ، وأصبح كل فلاح يحمد الله أن وجد كسرة وسترة ، ولــكن رجلا متمدينا مترفاً مثل مختار بك ، كيف يقنع بما قنع به

المزارعون البؤساء ؟! إن سحب الأزمة ستنقشع قريباً ، فلماذا ينزل من علياء سمائه !

لقد يكفى نفراً كالعم دسوقى مثلا أن يزرع أرضه قمحاً فيأكل ، وبرسيما فتأكل غنمه وبهائمه ، فيبيع من الأولى مايكفى لدفع الضرائب ، ويأخذ من الثانية ما يأتدم به .

أما مختار بك الثرى الوجيه فلا يكفيه شىء من هذا ، لايكفيه إلا « البنك الألمانى الشرقى » يغترف منه مايتنعم به ، وحوله أكباد تحن إلى الرغيف العفن . وبطون تتضور جوعاً . وكان أطفال القرية كلها يقفون متحسرين دهشين حينما يشاهدون أمام بيته ، بقايا عظام اللحم وقشور اللوز والبندق والفاكهة !

وضاق (البنك) عن مطالبه ، أو ضاقت أرضه عن ضمانة البنك ، والأزمة متباطئة لم تنفرج بعد ! ووقعت الكارثة !

***

ذهب حسين إلى القرية بعد أن هجرها أربعة أعوام ، فراعه أن يجد شيخاً طاعناً فى السن غريباً عن القرية ، يسكن فى بيت من أحبها وأخلص لها الحب ، ولكن ساعة واحدة كانت كافية ليعرف كل شىء !

غلى الدم حاراً فى عروقه . . . يجب أن يسدل الستار على مامضى وينقذ الصغيرة النبيلة ! وللمرة الثانية تقدم إلى أبيها ، وعرفه بنفسه ومركزه الجديد ، ثم طلب يد ابنته ، فذهل الرجل برهة ثم وعده بالقبول إن قبلت ابنته .

كتب حسين خطاباً إلى الفتاة وناشدها المروءة والنبل ألا تطعنه فى صميم آماله . فأكبرت هى منه إقباله عليهم حين أدبر الدهر منهم ، بينما أعرضوا عنه أيام عزهم ومجدهم . وتقدم إليها أبوها ، لاليعرض عليها طلب الفتى وإنما طلب المثرى العجوز الذى سكن بيتهم والذى ضجت القرية من عربدته وسكره . . . ذلك الشيخ المدم الذى قضى عمره الطويل متنقلا بين الحانات والوجوه الحسان حتى سئمتها نفسه ، فرأى أن يقضى مابقى من عمره - وإنه لقليل - مع تلك الصغيرة الحسناء على أن يرد إلى أبيها أرضه وثروته !

وبكى الأب مستعطفا ، وبكت الأم والهة حائرة ، وبكى الطفل مشجعا إياها على قبول الصفقة وإنقاذ العائلة ، ومن خلف الثلاثة ، ظهر شبح حسين باكيا ! حسين الذى أخلص لها الحب ، وهو بعد الفتى الشهم . الكبير النفس ، المعذب القلب ؛ حسين الذى تحمل له فى قلبها أطهر عاطفة وأصدق

حب ، والتى كانت تود أن تعيش لترعى سعادته فقط !

هل تتزوج منه لتكافئه إخلاصا بإخلاص ، رغم ثقتها أنها غير أهل له ؟

ولكن . . . أبوها الذى رباها ، أمها التى حملتها ، أخوها الطفل البرىء ! هل تضحى بهم جميعا من أجل حسين ؟

إن أباها لم يستمع لأنينها فيما مضى ، فهل تستمع هى لبكائه الآن ؟ ولكن هل من الأب ينتقم الإنسان ؟ وكيف إذن يهنأ لها عيش وهذه عائلتها تهوى إلى حضيض التعاسة ؟

هل تتزوج العجوز السكير فتنقذ أسرتها وهم بعد سيقدرون تضحيتها ؟ ولكن حسينا لاقى كثيرا ! عادى أهله ، وهجر قريته ، وتحمل إهانة أبيها غنيا ، وغطرسته فقيرا ، فهل تكافئه بالجحود والنكران محطمة قلبها وقلبه ؟ وهل تهنأ بإنقاذ أهلها وهذا حسين الذى تحبه ، يقتله اليأس أو يسقمه المرض ؟

إذا تزوجت حسينا فشبح عائلتها سوف يعكر عليها العيش وسيذكرها دواما بأنها ملكت فى يوم ما سبيل سعادة أبويها وأخيها فأحجمت عن منحهم تلك السعادة .

وإذا تزوجت المثرى العجوز ، فشبح حسين سوف

يتبعها ، ويلاحقها فى نومها ويقظتها ، ليذكرها فى كل لحظة بأنها قاتلة . . مجرمة !

هى حيرى فماذا تفعل ؟

***

هذه هى القصة ، لم أحاول تنميقها أو ترتيبها ، خبرتها بنفسى وأطلعتنى على الباقى صديقتى وسألتنى فى النهاية « ماذا ترين ؟ إنى أنكر نفسى وأجهل سعادتها ، لكنى لا أستطيع أن أنكر أبى أو أتنكر لحسين . . . إنى فى حاجة إلى السلوى والمشورة فماذا ترين ؟ »

***

وإنى إذ أبسط الآن الحل الذى رأيته لها ، أرجو ألا يتهمنى أحد بنكران التضحية فى سبيل الآباء ، بل يجب أن نقدر أولا الظروف التى وجدت فيها الفتاة . ولا يمنعنى هذا من أن أصيح بكل قواى ، بوجوب طاعة الآباء وبذل الحياة فى سبيل سعادتهم إذا كانوا رجالا ، وإذا كانوا من جانبهم يقدرون البنوة كما يقدرون الأبوة . . .

***

خاتمة القصة فى رسالة

من المؤلفة الى البطلة

أختى ....

لك الله يافتاة ... قذفت بك الأيام السوداء وسط غمرات من الأسى والحيرة، كأن لم يكفك ألم صامت، وثورة كامنة، وحزن دفين تعمق فى نفسك وأنت بعد طفلة فى المهد!

ماذا يريد أبوك وصديقك ياتعسة؟ أيضيرك أن أسميك هكذا؟ ولكن بكل مافى هذه الكلمة من عاطفة ورثاء وحنو، أتحدث إليك من قلبى، وللقلوب يا تعسة أحاديث!

وكأنى بك تحسبين صمتى انشغالا عنك بالامتحان كما تقولين، وكأنك لم تحملقى فى الأفق البعيد، لترى أية فتاة ثائرة باكية قرأت كلماتك، ولكم حاولت أن أكتب إليك فمنعنى ... لا أعلم ماذا! إنها كتلة صغيرة تتكون من لا شيء تقف فى مجرى الهواء عندما لا يقدر الإنسان على كبح جماح

عاطفة البكاء ! سميها ما شئت واختارى لحالتى ما يلذ لك من الأسماء . ولـكن ، ألست ترين معى أننا نسير فى حياتنا إلى غاية مجهولة يريدها لنا غيرنا فيندفع بعضنا فى طريقها فى جهل وعمى ؟ جهل فى القلوب وعمى فى الأبصار ، رغم ما نشعر به من إرادة وحذر ، ورغم هذه الأعين الواسعة التى فى وجوهنا وكأنها ما وجدت إلا لتحمل إلى قلوبنا الضعيفة رسالة الهم والشجن ، وإلى عقولنا الظامئة ، قليلا من المعلومات المهوشة والتجارب الجوفاء ، وما أردأ التجارب من موصل لحرارة الحياة ؟

وهنا أتساءل : لماذا لم تشبى مستهترة كأبيك يافتاة ؟ إذن والله فما كان ألذ لنفسك الباردة من مائة وخمسين فداناً ، وهى ليست مائة وخمسين جنيهاً ، تقدم لك صداقا وما كان أسعدك بتلك الأكوام الصفراء ، تعبث بها يداك فى لذة واستهتار ! !

ولـكنك فتاة لامادية ... هكذا أعرفك ... أو تريدين أن أذكر لك بعض ما أعرفه عنك ؟

أعرف فيك تلك الفتاة المليئة بحرارة الحياة ، ولو أنها نفسها تتذمر من تلك الحياة وتنقم عليها ، بل كأنى أرى

بعيني النفاذتين ما تحت ثيابك من ثوران عاطفى ناقم على الحياة وما فيها ، أعرف فيك ذلك الضال المهتدى الذى يثور فى صمت ، ويبتسم فى مرارة ؛ وأحس بما فيك من خواطر تحاولين جهدك إخفاءها ، حتى لا أرى فيك إلا تلك الوادعة الهانئة ، التى تنعم بثروة أبيها ولا تفكر فى شىء ولا تسأل عن شىء ؛ وأصارحك بأنه كان يحلو لى أن أرقب وميض شعلة عواطفك عن كثب ، وأن أراها تتأجج تحت رماد الحياء والمداراة كزبد الأفران العالية ، يطفو فوق الحديد المنصهر ، فترى العين فيه سطحاً ترابياً أدكن خلواً من البريق ، حتى إذا غلى المرجل انفرج الزبد ورأينا الحمم واللهب ؛ نرى لهب الحديد المنصهر يشوى كبد ذلك الأتون العالى ، ولكنه لا يئن ولا يتوجع ؟ هكذا أعرفك ، وهكذا تقدمت تستشيرين من تعرف عنك هذا وأكثر ، فى أمر هو الحياة والمستقبل .

***

يا لله كم تؤلمنى ثقتك ؟ ؟ لماذا عرفتك ؟ ولماذا ذهبنا إلى أبعد حدود الإخاء والثقة ؟ ألتحكمينى اليوم فى مستقبلك ولأكون فى موقف المسئولة عن سعادتك ؟ إنى لا أريد

أن أكون لك جلاداً ، وأنا بعد لا أطيق إلا أن أراك سعيدة تضحكين وتبتسمين ، ولو أنها ضحكات السريرة الباكية ، وبسمات القلب الثائر .

على أنى لن أصمت ، بل وأذهب بعيدا فأدلى إليك برأيى على سبيل الأمر والالزام ، وأنت يا أختاه لا تحسنين التصرف ، وأمك بجانبك تسيل دموعها ، وأبوك يبكى ، والشاب يتألم أعمق الألم ، فدعينى إذن أرشدك إلى الطريق الذى أراه ، فإن ظفرت بالسعادة وأنت سائرة فيه فما أسعدنى بك ، وإن غلبت عليك الشقوة فما أعمق ثقتك بحسن نيتى وإذن فما أقربك إلى الصفح !

***

لن آمرك بترك أبيك والخروج عن الواجب رغم استهتاره ، ولكنى أيضا لن أجعل منك يدا مجرمة تخنق قلب الشاب الذى أحبك لسمو نفسك . وقبل أن تغرقينى باعتراضاتك ، أسألك لماذا لا تسألين أمك عن سبب إهمالها فى رعاية أبيك أيام كان ثريا مستهترا ؟ ولماذا لا تسألين أباك كيف ينفعه ثمنك الذى يدفعه العجوز السكير وقديما لم ينفعه ماله ؟ ولم لا تسألين نفسك ، كيف تقبلين المجاعة الروحية والدمار النفسى ولن يقول حسين والناس : مسكينة

ضحت بكل شيء فى سبيل أبيها ، بل سيقولون : مستهترة أغواها الأصفر الرنان ، وسوف تمهد لنفسها حياة مليئة بالحرية والغواية ؟

ثم هل تظنين أن من البر والتضحية أن تفتحى لأبيك باب الغواية والضلال بعد أن سدته فى وجهه الحاجة ؟ وأن تضحى بنفسك وبالشاب البرىء ، ليكبر لك أخ متلاف مستهتر كأبيه ؟ وأن تقتلى نفسا بريئة لتضمنى المال لأمك التى أغمضت عينيها عن مساوىء زوجها أو شاركته فيها لست أدرى ؟

لا يا أختاه . . لن ينطق المأذون بالكلمة التى تربطك بهذا السكير ، إلا وفى ثناياها الحكم عليك بالشقاء ، ولن تزفى إلى هذا المهدم المفسود إلا على أنقاض سعادتك ، ولكن هل تفرين من أهلك فى محنتهم ما دام قبس النجاة يغريك من بعيد ؟ وهل تنتهزين فرصة الضعف من والدك المتنمر الجبار ، لتتركيه فى بسمة ساخره ؟ لا . . . أنا لا أرضى بذلك وإذن فأنصتى إلى أوامرى ، ولا يعميك الحاضر عن مستقبل غاص بالشقاء والجنون ، أو حافل

بالسعادة والسكون ، واذكرى أننا فى يوم له ما بعده فلا حكم غير العقل .

***

« تزوجى حسينا » ترى ماذا تحدثه تلك الكلمة فيك من دهشة ، لأنك حاولت ـ ولكن عبثا ـ أن تظهرى لى أن اهتمامك بسعادة أسرتك أكثر من اهتمامك بأى شىء ، وأنك مستعدة للحكم مهما قسا ؟

« وأنقذى أباك » من الضائقة المالية والخلقية ، قدمى له صداقك وما تملكين من حلى ، وليكن الجميع مائتى جنيه ، ليكون رأس مال لمتجر متوسط يبيع فيه البقالة أو الأقمشة والأولى أفضل لاحتياج الناس إليها دائما حتى فى الأزمات الطاحنة ، وعليه أن ينشىء نفسه من جديد نشأة شريفة رزينة ، وأن يكون بهذا المال وأراه كافيا ـ ثروة واسعة يستعين بها على تربية ولده تربية مهذبة صالحة .

« واهمسى فى أذن أمك » أنها مسئولة عن شقاء الأسرة قديما وحديثا ، رغم ما تعتذر به .

« وخذى أخاك الطفل » ليملأ فراغ بيتك الحديث

بضحكاته الرنانة ولتربيه التربية الأولى الاساسية ، ريثما يستقر حال أبيك .

يبقى بعد هذا ، رأيى فى تنفيذ الحكم .

أما الشاب فسيقبل راضيا مغتبطا ، ولن يضيره أن تذهبي إليه بقلبك وحبك ، لا بحليك وأثاثك ، بل وستكفينه عبء هذه المفرشات المكدسة التى تسبق العروس إلى بيت زوجها لتحتل الهواء الطلق منه ، وإذا قبل فما أجدره بالحب وما أحراك بالعمل على إسعاده !

وأما أبوك فيجب أن يقبل ، وإذا عز عليه أن يتحول من غنى مترف إلى تاجر شريف ، فدعيه فى غوايته ، وأشهدى الله والناس ، أنك فعلت ما فى طاقتك ، وأن أباك لا يريد الحياة العملية الشريفة ، ولكنه يريد المال ، ليمهد له طرق الشر والضلال .

وأما أخوك فسيمنحكما من السعادة أكثر مما تمنحانه من رعاية ومال ، وستجعلينه رجلا ، وحسبك بعدئذ أن ترى غرس يديك يسير فى معترك الحياة مجاهدا وشريفا .

***

هيه !! أليست قسمة بديعة تقومين بعملها وتحركك

فى الخفاء يدى ويشاركك قلبى ؟ لشد ما حاولت يا أختاه
بعد قراءة رسالتك الملتهبة ، أن أتحرر من قيد كلماتك النارية
التى طوقتنى بطوق من دثارها المؤلم ، وشبكة من خيوطها
الحمراء ، وأن أنسى نزعة البكاء التى كانت تتواطأ على صفحة
خطابك كى أحكم عقلى وأخرج لك بفكرة يراها الناس
حكيمة ؟ ولكنى لم أفلح ، فالناس يحبون المال فى إسراف
وأنا لا أستطيع أن أقبل تضحية الواحب والحياة فى سبيل
هذا المعبود الأصفر ، وليس ذنبا أن أرى مالا يراه الناس
(فأى هكذا خلقت) . فإذا نصح لك أحد برأى غير ما رأيته
لك فلا تنصتى ، وثقى أن فراسة الإيمان والحب والإخاء
لا تخيب .

وبعد فأنا أنزهك عن النظر إلى تلك الثروة الطائلة التى
أضعتها عليك ولا زلت أزيحها بيدى بعيداً عنك . . .

لك من أشعة الشمس ساعة الغروب ، تشهدينها وفى
نفسك غبطة وفى قلبك حياة ، ما يغنيك عن أكوام مكدسة
من الذهب ، لا تستطيع أن تسكب فى قلبك قطرة واحدة
من الحياة ؟ .

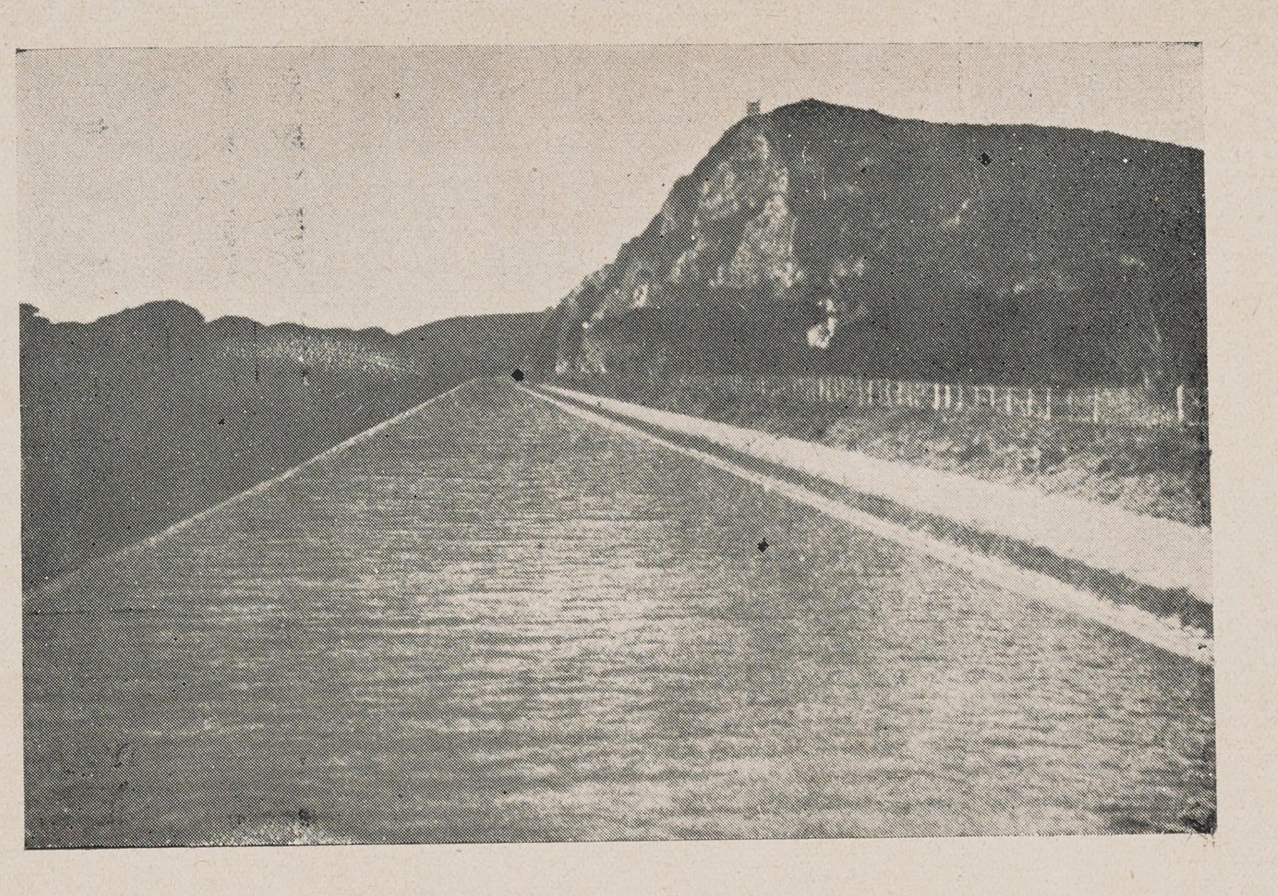
لك من ضوء القمر الفضى اللامع ، تستقبلينه فى ظلام

الليل وأنت فى غمرة من السعادة النفسية ، وفيض من جمال الحياة ، ما يغنيك عن كثير من المال ، تبيعين به حرارة الحياة وحياة الهدوء . . . .

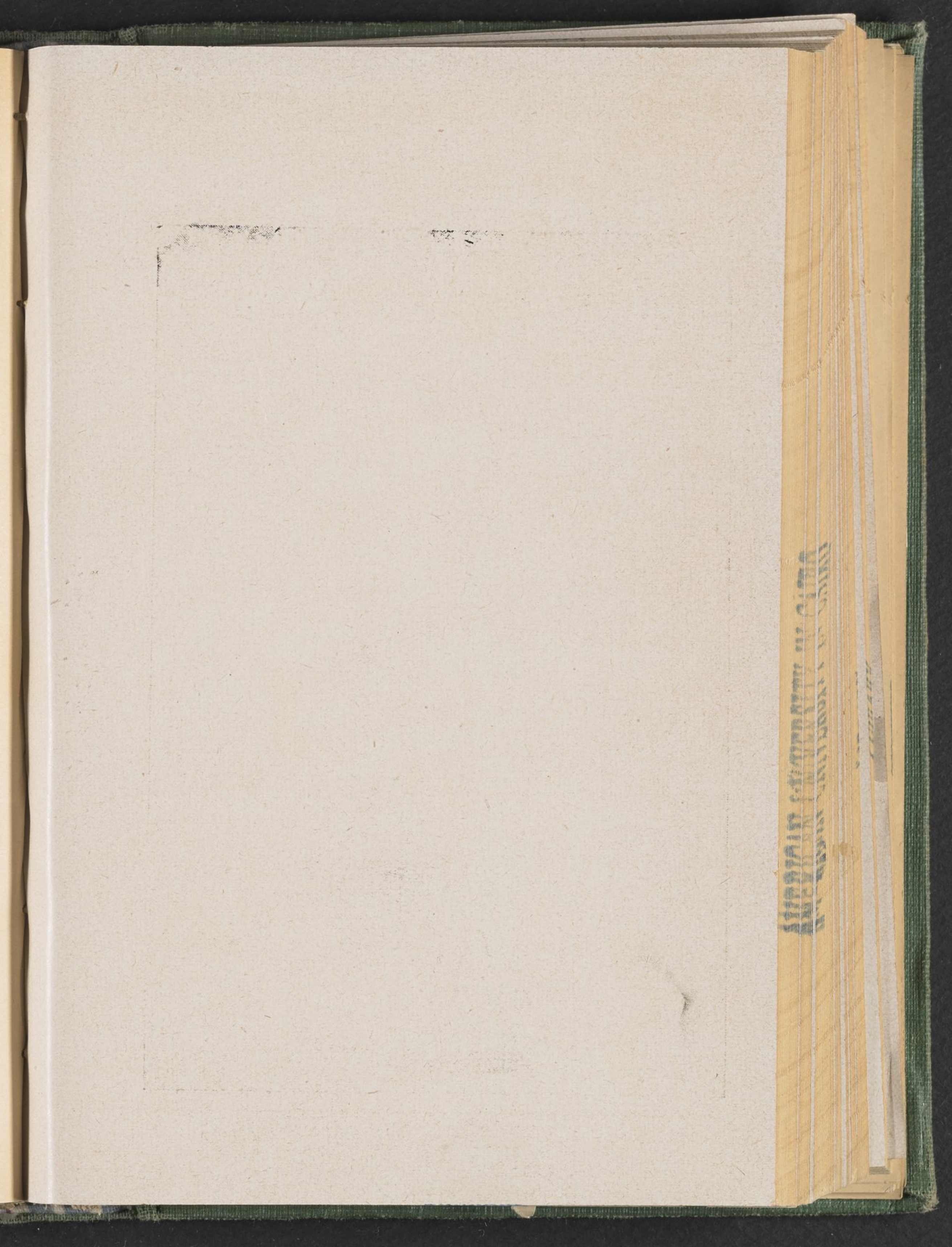
هى أكلات ثلاث ياعزيزتى ، لا طاقة لمعدتك على تحمل أكثر منها ، وهى سترة واحدة لا تتفاوت فى تأدية الغرض سواء كانت من نسيج الذهب أو القطن ، فماذا وراء زواجك بالغنى يا أختاه ؟

ثقى أن مكانا عزيزاً يعده لك زوجك المثقف فى قلبه خير من قصر فخم يشيده لك هذا السكير من ذهبه ، وأن زهرة صغيرة يهديها لك زوجك رمز إخلاصه وحبه ، أسمى من عقد من أثمن الجواهر ، يخنق به الآخر عنقك دليل إعجابه ، وثمنا لما تمنحينه من حياة .

إن بريق عينى حسين ، المملوءتين حياة وطهارة ووفاء ، أعز من بريق الذهب ، ترينه لتذكرى فى حسرة أليمة ، أنه أضاع سعادتك ، وسلبك راحة البال وصدق اليقين .



ترعة ري رئيسية ، مبطنة بالحجر والاُسمنت



القسم السادس

تعليقات

المال ... الداء والدواء

فى إصلاح القرية المصرية

مرحى بالجنس اللطيف يقف بين صفوف المصلحين ..

مرحى مرحى بهذه الحماسة المتدفقة من الجنس اللطيف الذى لما أن أيقن أن تقدم الحياة المصرية لن يتحقق إلا بإصلاح حياة الفلاح القروية ، قام متكاتفا مع رجال الأمة فى تحسين حالة الفلاح العلمية والاجتماعية والصحية ... هذه هى - ابنة الشاطىء - نصح لها الطبيب بالراحة فى القرية فدخلتها بائسة تعسة ، وخرجت منها أشد تعاسة وشقاء ، ذلك لأنها رأت أن بجانب فتنة القرية بؤسا يبعث الحزن من مكمنه ويثير الأسى من أعماق القلوب .

هذه هى الحقيقة التى لمستها الآنسة ابنة الشاطىء ، فى زيارتها للريف وكل مارأته إن هو إلا القليل مما نراه نحن أبناء القرى من أحوال أهلينا من الفلاحين الذين يعانون من بؤس وشقاء .

نشرت فى الأهرام فى ١٠ من يوليو سنة ١٩٣٥

ويؤلمنى ، وأنا من أبناء الريف، أن هذه الحقيقة السوداء لم تندلع فى قلبى بمثل هذه القوة إلا منذ بضع سنوات قمت فى أثنائها بدرس حالة هذا الفلاح كما درسها غيرى من الأطباء ، وكان لنا فى ذلك صيحات متتاليات رن صداها فى الجمعيات والمؤتمرات .. غير أن هذه الأبحاث وتلك الجهود قد تحطمت كلها وتلاشت أمام تلك العقبة الكؤود ، ألا وهى المال .

عندئذ عدت إلى نفسى وقلت : مالنا نحن الأطباء وحالة البلد المالية ؟ بل ما شأننا وشأن تنفيذ ما يتعلق بأبواب المصروفات من مجموع الميزانية ؟ فالواقع إنى أعتقد أننى كطبيب إذا ما دعيت لعيادة مريض أقوم بالكشف عليه ثم أقرر العلاج اللازم له مراعيا أنه يتناسب مع كلتا الحالتين : حالة المرض وحالة المريض ، أى قوته فى احتمال الدواء وباقى الوصفات العلاجية ، ولست بعد ذلك أعد مقصرا إذا كان أهل المريض لا يقومون بالواجب عليهم ودفع ما يلزم لمريضهم من المصروفات فى شراء الدواء وما تتطلبه حالته المرضية .

وعلى هذا القياس نفسه أرى أن حالة الفلاح الصحية قد عنى بها أكبر عناية من حيث فحصها ودرسها ووصف دواء يتناسب وحالة البلاد الصحية والعلمية والاقتصادية. ولم يبق إلا أن نرى عناية أولى الأمر بتنفيذ الإرشادات واعتماد ما تتطلبه من مصروفات لإتمام هذه المشروعات الصحية. بل أذهب فى معتقدى إلى أكثر من ذلك، أعتقد أنه لو اضطررنا إلى مراجعة المصروفات لمختلف المشروعات وإبداء ما عن لنا من أفكار وآراء، ثم عولنا فى طلب التعديل أو الزيادة على التوسل والاستجداء، أقول لو اضطررنا إلى ذلك لكانت هذه ظاهرة مخيفة أساسها عدم الاطمئنان إلى كرم المسئول من رجالنا الأوفياء.

وحتى تكون سيدتى الآنسة ابنة الشاطىء، وغيرها ممن عنوا بحالة القرية على علم بهذه المجهودات التى بذلها الأطباء فى هذا السبيل، رأيت أن أسجل هنا مجمل ما قام به الكثيرون للتوفيق بين حالة البلد المالية ومطالب القرية الصحية.

طلب حضرة الأستاذ الدكتور عبد الواحد الوكيل اعتمادا بمبلغ ٢٠٠ مليون جنيه لمدة خمسين سنة أى أنه

قرر أن القرية المصرية فى حالتها الراهنة بعيدة عن الإنقاذ والإصلاح ، ولا يوجد لها علاج حاسم أكيد سوى أن تزال جميعها رأسا على عقب لتخلفها قرى صحية أخرى فى مساحات جديدة يشمل كل بناء منها ٦٤ مترا مربعا ، وهو لهذا يحتاج إلى مساحة قدرها ٧٦٫٢٠٠ فدان يبلغ ثمنها من ٨ إلى ١٠ ملايين من الجنيهات ، أما عدد المنازل فقد قدرها بمليونين ونصف مليون منزل بزيادة نصف مليون منزل على تعداد سنة ١٩٢٧ ، ورأى حسب مقايسة حضرة المهندس أحمد حسن أن المنزل يكلف ٧٥ ج فيكون جملة ما يتطلبه المشروع من وجهة التخطيط والمبانى ١٩٠ مليون جنيه أى ما يقرب من ٢٠٠ مليون .

ويدهشك مع فداحة هذا المبلغ ثقة حضرة الدكتور الوكيل فى تنفيذ هذا المشروع إذ يقول فى ختام مقاله إن هذا المبلغ ما هو على ما نظن إلا تقديرا متواضعا شيئا ما ، ويضيف إلى ذلك أنه إذا فكرنا مليا فى إمكان قيام الأمة المصرية حكومة وشعبا متكاتفين للتنفيذ ، لاستطعنا أن نقوم بهذا العمل فنخلق مصر جديدة فى مدة خمسين سنة من اليوم ، بإنفاق أربعة ملايين جنيه فى العام لهذا الغرض وهو

أقل مما ندفعه الآن لتسديد قسط الدين العام .

ويتلو مشروع الأستاذ الوكيل فى ضخامة المبلغ ، المشروع الذى قدمته مصلحة الصحة ونشرته «الأهرام الغراء فى ١٩ من سبتمبر ١٩٣٤ ، وقد جاء تتمة للبرنامج الصحى الذى وضعته مصلحة الصحة سنة ١٩٢٧ وشمل المشروعات العامة والخاصة بالوقاية والعلاج ، وبلغت جملة تكاليفه ٤٢ مليون جنيه ، خصص منها الجزء الأكبر لإصلاح حالة القرى التى عنى بها سعادة الدكتور شاهين باشا عناية كبرى ، كما يتضح ذلك فى قراره المقدم لوزير الداخلية إذ يقول فيه : « وبما أن الحاجة أصبحت فى أشد مساس إلى إصلاح حالة القرى وتحسين شئونها الصحية ، وكذلك إلى مكافحة الأمراض المتوطنة بالبلاد ، رأت المصلحة أن يكون لذلك النصيب الأكبر فى برنامج مشروعاتها الصحية للسنين المقبلة ، وقد أفردت لها مبلغ ٢٢ مليونا و ٦٠٠ ألف جنيه أى مبلغ ٠٠٠ر٨٦٠ر١ ج . م فى السنة الواحدة ، على أن يتناول التحسين مساكن ١٠٥ من القرى سنويا بواقع ١٥ قرية فى كل مديرية كل سنتين »

ويتلو ذلك فى ضخامة المبلغ ، المشروع الذى قدمته

للمؤتمر الطبى فى يناير سنة ١٩٣٤ والذى جاء مشابها بعض الشبه لمشروع الدكتور وليم سليم حنا ، وفيه قسمت دورة العلاج إلى مراحل ثلاث تستغرق ثلاثين سنة وتتكلف ثلاثين مليون جنيه، أى بواقع مليون جنيه فى السنة الواحدة، ففى المرحلة الأولى نعمل على إنهاض الحالة الاقتصادية وتنوير الرأى العام من الوجهة الصحية ثم نقوم بالتمهيدات اللازمة للإنشاءات الأولية كإيجاد موارد للشرب نقية وتعميم الإنارة ودورات المياه.

وإتمام هذه الوسائل يؤهلنا لنتقدم للمرحلة الثانية، وفيها يكون قد رفع مستوى الحالة الصحية والمادية فى القرى فلا يرضى الفلاح بقريته القديمة، وعندئذ تقوم الحكومة بتعيين المناطق المجاورة لانتقال القرى الحالية إليها بعد ضم القرى المجاورة فى صعيد واحد. ويستعيض أصحاب هذه الأرض بأرض القرى القديمة دون شراء أرض جديدة ، وفى الوقت نفسه نقوم بالأبحاث الهندسية فى اختيار المواقع وتنسيق القرى.

بعد هذا نتقدم إلى المرحلة الثالثة والعملية وفيها تقوم الحكومة بتوزيع المساحات على القادرين على الانتقال

للقرى الجديدة مع اشتراط البناء بطريقة صحية خاصة ، وتستطيع الحكومة فى هذه المرحلة أن تبدأ فى إعانة فقراء الفلاحين فى بناء مساكنهم ، من المال المجتمع لها من مبلغ مليون الجنيه سنويا على أن تعمل ١٥٠ مسكنا فى مبتدأ الأمر ونحو ٥٠ كل سنة .

وما كنت أحسب يوما أن أولى الأمر يضنون على الفلاح بمبلغ مليون جنيه كل عام ، لاسيما وأنى أعتقد أن ذلك فى مقدورهم حتى فى سنى الأزمة الحالية هذه . . ففى العام الماضى مثلا ، كانت زيادة الإيرادات على المصروفات مليونى جنيه ضما إلى الاحتياطى وكان فى إمكانهم تخصيص مبلغ مليون منها للفلاح . كما كانت الزيادة هذا العام أربعة ملايين جنيه ضمت أيضاً إلى الاحتياطى العام ، وكان من السهل المستطاع إسعاف الفلاح بمليون منها لتحسين حالته الصحية . وهذه ظاهرة إن دلت على شىء فهى لا تدل على العجز فى الاقتصاد والتوفير — ولكن أخاف أن تكون برهاناً يسجل علينا عدم التقدير « تقدير حالة ذلك الفلاح المعوز الفقير » وإلا فما كان أجدر هذا المشروع

بآلاف الجنيهات التى تصرف بسخاء فى تزيين المدن وتجميل الشوارع ، أو الملايين تهدر فى إتمام مشروعات فى هذا القطر أو فى خارجه ويعلم الله مبلغ نفعها لهذا البلد المنكود ..

أما ماتم من مشروع إصلاح القرى فهو ما قامت به مصر حكومة وشعبا وتكافحت على بكرة أبيها مع مختلف أحزابها لانشاء قرية واحدة هى محلة زياد ، التى نكبتها النيران . فجمعوا الأموال من أكف المحسنين وسلموها إلى الحكومة التى اعتمدت مبلغا آخر للتنفيذ فحمدنا للأمة هذا المجهود الصغير وظللنا نرقب إنشاء هذه القرية شهراً بعد شهر وعاما بعد عام ، حتى فوجئنا من بضعة أيام بقرار رسمى جاء فيه « ترى اللجنة العدول عن فكرة إنشاء القرية النموذجية بجانب محلة زياد المحترقة والاكتفاء بفتح شارعين متقاطعين فى القرية الحالية .. »

وهكذا سجلت الأمة على نفسها العجز ، ليس فى إنشاء آلاف القرى الصحية المنشودة بل حتى فى تجديد قرية صغيرة محترقة منكودة !

وفى مقال قادم قريب سأذكر لك يا سيدتى « ابنة الشاطىء » بيانا تفصيليا عن مبلغ تقديرنا لإصلاح قرانا ، مقارنا به تقدير أمم العالم المختلفة الغربية منها والشرقية .

دكتور أبولس بولس



القبور المهجورة الكئيبة

لم تترك الآنسة الكريمة فى الواقع قولا لريفى ابن ريفى مثلى وهى الريفية الصميمة من جهة الأب فقط . والظروف الحاضرة كذلك غير مستعدة فيما يظهر لاستساغة الحديث عن الريف ، أو على الأقل ـ عما فى قبور الأحياء المجاهدين ، أو على أقل من الأقل ـ الحديث عن القبور المهجورة الكئيبة ! وإنما هى تستسيغ وتشجع أيضا الحديث عن الحرب والسلم ، وعن الدستور والحرية ، وعن الصداقة والعداء ولكن .. هنا نقف : من يدخل الحرب إذا كان هناك حرب ، ومن يصطلى بنارها وتتناثر أشلاؤه تحت قنابلها ؟ من ينتظر الفرج من فوهة المدفع ؟ ! من يمد يده للصداقة والولاء ، أو يرجعها إعلانا بالعداء ، من يطالب بالدستور ويهفو إلى الحرية ، أفى الأمة غير الفلاح ، والفلاح الغالب بعدده ومجده ؟ ؟

لا أحد غير الفلاح المصرى ، ولا صوت غير صوته

نشرت فى الأهرام فى ١٢ من أكتوبر سنة ١٩٣٥

إنه كما يعبرون — الكل فى الكل ، وهو الجد الدؤوب والنبل الصموت ، والروح القوية العليا . هو الفلاح لا أقل ولا أكثر وإذاً فيجب أن نستسيغ ، دائماً ، الحديث عن الفلاح أو بالحرى عن قبوره المهجورة الكئيبة .

أعرف وتعرف معى أن الأرض ، سواء المستغلة منها أو البور تطلب حارثاً ؟ فلم يهجرها الفلاح إذن ؟ ؟

هو جاهل وهو قنوع ، ولكن ليس إلى هذا الحد من الرضوخ للجور والاستنامة إلى الموت البطىء الفظيع .

هو جائع منهوك ومحطم ومهدم ، ولكنه أخيراً بدأ ينزح إلى المدن وبدأ يزف إلى الوجود أحياء تتهافت بدورها على النزوح إلى حيث العزة — ولو مع الجوع .

هو إذن مستضعف مظلوم فهل آن أن نرحمه وننصفه ونشعره بمتعة الحياة ونعيم الوجود ؟

ابراهيم عبد اللطيف

صوت فلاح !

سيدتى الآنسة ابنة الشاطىء .

طالعت فى الأهرام الغراء كثيراً من مقالات الكتاب فى الريف المصرى ، ويؤسفنى أن أقول إن كثيراً منها لم يصدر عن عاطفة حقة نحو الفلاح المسكين . ولم تكن كلها فى الصميم وجلها كتب ذراً للرماد حتى يتوهم الفلاح أن أسياده ينادون بإصلاح حاله . وماذلك إلا من قبيل تخدير الأعصاب .

وكنت أحسب أن كتابات (ابنة الشاطىء) من هذا النوع حتى دفعنى فلاح مثلى إلى أن أقرأ مقالك (موسولينى الفلاح) المنشور فى أهرام ٤ من أغسطس سنة ٩٣٥ فما قرأت المقطع الأول منه حتى التهمت باقيه بسرعة البرق . وراقنى كثيراً وأثلج صدرى قولك :

« ظل الفلاح المصرى قروناً عدة يرسف فى أغلال البؤس والعوز والشقاء (والظلم) وكانت تتصاعد بين حين

نشرت فى الأهرام فى ١٤ من أغسطس سنة ١٩٣٥

وآخر صرخات بعض الأفراد تهيب بالحكومة أن تيسر للفلاح الشقى المجاهد حياة ممكنة . وهذه الصرخات تحدث صدى خافتاً لا يلبث أن يتلاشى »

الفلاح الصغير فى حاجة ملحة إلى حمايته من اضطهاد حضرات العمد ومشايخ وأعيان البلاد .

فدافعو أجور الخفر هم الفلاحون الفقراء ، وخفراء النيل أو بعبارة أصح (حراس مساكن وأطيان حضرات الأعيان من طغيانه) هم الفلاحون الفقراء . ورجال تنقية دودة القطن فى زراعات العمد والأعيان والباشوات ، هم الفلاحون الفقراء . وواضعو فوانيس الإنارة أمام منازلهم فى القرى هم الفلاحون الذين لا يتمكنون من إنارة داخل مساكنهم . بله قيامهم بمطالب معيشتهم .

وبعد وقبل فالفلاح فى حاجة إلى قانون يحميه فهل بذلك ياسيدتى تنادين وبهذا الخصوص تكتبين ؟

إنا لما تعملينه لمنتظرون والله لا يضيع أجر المحسنين ويكفى ياسيدتى أن تعرفى أنى أنا . . .

الفلاح المسكين

من الريف المصرى

إلى الآنسة الفضلى ابنة الشاطىء

روح من الخلد قد جاءتك بالنور
يا (ريف مصر) فأودت كل ديجور

فاضت عليك بآيات محببة
(بنت الشواطىء) من نظم ومنثور

وحى من السحر (بالأهرام) يبعثه
قرآن صدق له شوقى وتفكيرى

أبدت من الألم المدفون علته
(مثل الأشعة) لا مثل العقاقير

إن الطبيب الذى تحيا النفوس به
من يكشف الداء فى سهل وميسور

من يخلع الداء من أقصى أرومته
ويبعث البشر بين الناس كالنور

نشرت فى الأهرام فى ١٢ من نوفمبر سنة ١٩٣٥

عطر من الشكر تسديه أزاهره
نحو التي أحسنت في خير تعبير
والبر بالوطن المحبوب مفخرة
تبقى على الدهر رغم الظلم والجور

فاقوس العيدروسي العباسي



ليتبصر الأمر أولو الأمر

ذكرت الآنسة ابنة الشاطىء فى مقال سابق ، حديثا مع فلاحها المريض بإحدى القرى المجاورة لبلدة بنها ، وطلبت منه أن يسرع إلى الطبيب لمعالجة ما ألم بعينيه الرمداويتين . أنحت عليه باللائمة لإهماله فى معالجة نفسه ، لا سيما والمستشفيات الرمدية وغيرها منتشرة فى أنحاء القطر ترحب بالعلاج المجانى للجميع . فكان رد هذا الفلاح المريض ، « إنه لا يوجد طبيب فى القرية وإذا وجد فلا طاقة لى بأجره وثمن ما يصف لى من دواء . أما المستشفيات فلن أستطيع أن أترك عملى وأرحل إلى بنها وهى على مسير ساعتين من القرية ، ولمن أترك أطفالى وزوجى وأين أعيش فى بنها وأنى لى ثمن طعامى وأجر مسكنى . . . الخ »

وخرجت الآنسة من هذا الحديث بأن وجهت نظر مصلحة الصحة إلى تعميم العلاج فى القرى بعد أن أنشأت

نشرت فى الأهرام فى ٢٨ من أغسطس سنة ١٩٣٥

الكثير من المستشفيات فى المدن حتى لتكاد تصيبها التخمة .

وتعميم العلاج للفلاح أو العامل ، مشروع قديم له تاريخ حافل فى أوربا ومصر . أما فى أوربا فيرجع عهده إلى سنة ١٣٨٣ عندما سنت ألمانيا قانوناً يضمن للعامل المعالجة المجانية ، بل ويتقاضى مرتباً يومياً أثناء المرض — وقد أصدرت النمسا قانونها سنة فى ١٨٨٨ ، وتبعتها المجر فى سنة ١٨٩١ — وفى سنة ١٧٩٣ صدر قانون مماثل فى فرنسا .

وهذا القانون ينص على العناية «بجميع الفقراء المعدمين الذين لا مورد لهم»

وفى سنة ١٩١١ صدر فى انجلترا قانون التأمين الأهلى الصحى .

وهو يطبق على الأشخاص بين سن ١٦ ، ٦٥ الذين يقل دخلهم السنوى عن ٢٥٠ جنيها — ويتعاون فى تدبير المال اللازم لهم ، العامل وصاحب العمل والحكومة ، وقد كان دخل هذا المشروع فى سنة ١٩٢٦ مبلغ ٣٧ مليون جنيه — وفى سنة ١٩١٢ صدر فى انجلترا الأمر المنظم

لمعاهد قانون الفقراء المعدمين ، ويقوم على تنفيذه لجنة « الأمناء » ومن أعمال هذه اللجنة أنها تقوم بفحص وعلاج الفقراء المعدمين فى منازلهم ، وتصرف لهم الأدوية مجانا، وتبحث عن عمل للقادرين منهم وتدفن الفقراء من الموتى وبلغ مقدار ما صرفته هذه اللجنة من الإعانات سنة ١٩٢٧ مبلغ ٤٩٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيه

عدا ذلك توجد فى انجلترا « الجمعيات المعتمدة » التى اعترفت بها الحكومة بموجب قانون يرجع تاريخه إلى سنة ١٧٩٢ وغرض هذه الجمعيات هو تدبير العلاج لأعضائها ولعائلاتها . . وقد بلغ عدد هذه الجمعيات فى انجلترا ألف جمعية تقريبا تحت مباشرة وزارة الصحة .

أما فى مصر فيرجع تاريخ الاهتمام بتعميم العلاج فى القرى إلى سنة ١٩٢١ عندما اجتمعت الجمعية الطبية المصرية، وقام حضرة الدكتور سامى كمال مطالبا بوضع قانون الإسعاف الطبى المجانى الإجبارى بالقطر المصرى . وقد تألفت لجنة بالفعل تحت رئاسة الدكتور على باشا ابراهيم ولكنها لم تسعد بوضع هذا القانون .

تلا ذلك مشروع الدكتور محمد عبد الحميد بك المسمى مشروع التعاون الصحى ، والذى حاضر به المجتمعين فى الجمعية الصحية فى مستشفى الملك سنة ١٩٢٧ ، وأساس هذا المشروع هو ما رآه حضرة الدكتور من أن التطبيب فى مصر يسير على نظام غير عادل من حيث توزيع الأطباء لأنحاء القطر ، وكذلك توزيع المرضى على الأطباء ، إذ أن أهل القرى والكفور وهم الأغلبية الساحقة ، مغبونون غبنا فادحا ومظلومون ظلما بينا ـ ولقد نهج فى مشروعه على النظام المتبع فى شارون بكنساس . فقد أسس أهلها جمعية سموها « جمعية التعاون الصحى » شعارها « لا تبخل على صحتك » ونظام هذه الجمعية أن يقوم الطبيب بعلاج سكان شارون بمرتب سنوى قدره ثلاثة آلاف دولار ، على أن يقدم له السكان محل العيادة ويدفعون له نفقات النور والغاز والتليفون . . ويقوم الطبيب من جهته بتأثيث العيادة ونفقات سيارته ـ وقد نجح هذا المشروع منذ سنة ١٩٢٤ إلى الآن ـ وبعد أن شرح حضرة الدكتور عبد الحميد بك المواد العشرة لقانون هذه الجمعية ، اقترح أن يتبع هذا النظام فى مصر مع بعض التصرف .

وفى سنة ١٩٢٧ درست مصلحة الصحة طويلا هذا الموضوع ، ثم أصدرت برنامج الإصلاح الصحى لمصلحة الصحة والمصدق عليه من المجلس الاستشارى الصحى بجلسته المنعقدة فى ١٦ من أبريل سنة ١٩٢٧ - وقد رأت أن تستغنى عن هذه المشروعات لتعمم بدلا منها المستشفيات المركزية والقروية وتزيد فى الأقسام الأخرى كرعاية الطفل والأمراض الجلدية والزهرية ومستشفيات الأمراض المستوطنة - وقد بدىء فى تنفيذ برنامجها فعلا فى سنة ١٩٢٨ إلى أن قابلتها الأزمة المالية الحالية ، فتباطأت بعد أن طفرت طفرة كانت موضع فخرنا وإعجاب الغربيين بنا .

ومضت فترة طويلة على مشروع تعميم العلاج بالقرى منذ ذلك التاريخ حتى فبراير سنة ١٩٣٤ ، حين أثار الأستاذ الدكتور خليل بك عجاج البحث بعد درس طويل مرهق ، فبذل فى ذلك مجهوداً مشكوراً محموداً . . وللأستاذ خليل بك من طبيعة عمله وتغلغله فى القرى ونتائج أبحاثه الكثيرة ، ما يوجه نظره لسوء الحالة الصحية . . كما أن له من خبرته ونشأته بإحدى القرى المصرية ، حافزاً قوياً دفعه للتفكير فى إصلاح حالة الفلاح الصحية ، وفى ٢١ من فبراير سنة ١٩٣٤

تقدم الدكتور خليل بك بمشروعه عن الالتزام العلاجى وأساس المشروع أنه يوفر للفلاح الذى يملك أقل من عشرين فداناً أو لا يملك شيئاً ، الفحص والمعالجة له ولأسرته مع بعض إصلاحات أخرى تتلخص فيما يأتى : —

١ — الفحص والعلاج بوساطة طبيب لكل عشرة آلاف نسمة من السكان .

٢ — يصرف الدواء مجاناً .

٣ — يخصص أطباء الصحة فى المراكز كل أوقاتهم للأعمال الصحية .

٤ — تعالج المستشفيات المرضى الذين يحولون عليها من أطباء مشروع الالتزام فقط .

٥ — يقوم أطباء الالتزام بالتبليغ عن الأمراض الوبائية .

٦ — يحرر أطباء الالتزام شهادة الوفاة بعد معالجة المريض .

وخوفا من إرهاق الطبيب بلا داع ، رأى حضرة الدكتور أن يدفع كل مريض خمسة مليمات رسوما وهذا المبلغ الزهيد يكون له من الإيراد مبلغ ٥٠٠ر١٧٢ جنيه فى العام باعتبار ثلاث زيارات لكل مريض ، ويعطى للطبيب

ثلاثة قروش صاغ عن كل شخص فى منطقته سواء مرض أو لم يمرض ، فيكون متوسط دخل الطبيب ٣٠٠ جنيه فى السنة أى ٢٥ جنيهاً شهرياً — أما عدد السكان الذين يستفيدون من هذا المشروع فهو ١١٫٥٠٠٫٠٠٠ نسمة وعدد ما يلزم للمشروع من الأطباء هو ١١٥٠ طبيباً وجعل ما يتطلبه المشروع من مصروفات للأطباء والمفتشين وكتبة فى الإدارة المركزية والدواء وتجهيزه والعيادات وخلافه ، ٥٢٠٫٠٠٠ جنيه يخفض منها إيراد رسوم خمسة المليمات وهو ١٧٢٫٥٠٠ جنيه ، فيكون جملة المطلوب للمشروع هو ٣٤٧٫٥٠٠ جنيه .

وقد اقترح حضرة الدكتور عدة اقتراحات لتدبير هذا المبلغ اللازم للمشروع ، منها أن تجبى رسوم إضافية قدرها ٤ ٪ من المال المربوط ـ فالفلاح الذى لا يملك شيئاً سيغتبط لها لأنه سيعالج مجاناً ـ ومالك الخمسة أفدنة سينال علاجه هو وأولاده وهذا بلاشك مبلغ تافه زهيد ، ومالك العشرين فداناً فأكثر سيدفع هذه الرسوم الإضافية لفائدة عماله وأهاليهم فيزيد إنتاجهم فى أرضه مما يعوض عليه أضعاف ما دفع — على أن عدد هؤلاء الملاك ليس بالكثير فهو

٣٤٢٠٥ نسمة من سكان القطر كله . وهناك اقتراح آخر هو أن يزيد عدد الأشخاص فى مركز العلاج لكل طبيب فيصبح ١٥٠٠٠ نسمة بدلا من عشرة آلاف نسمة ، ويدفع المريض قرشين بدلا من خمسة مليمات ، وبهذا تخفض المصروفات إلى ٥ ٪ تتحمل مجالس المديريات ٣ ٪ منها وتتحمل مصلحة الصحة ٢ ٪ وذلك نظير الوفر المنتظر فى اعتماداتها المالية كنقص كمية الدواء الذى يصرف فى المستشفيات والاستغناء عن أكثر أطباء الأوبئه — وبهذا النظام لا يحتاج الأمر لتقدير ضريبة خاصة لهذا المشروع .

وقد وضع حضرة الدكتور خليل بك هذا المشروع للمناقشة ، فكان له معضدون ومعارضون ، أما المزايا التى ذكرها المعضدون فمجملها أن هذا المشروع من الوجهة الصحية مشروع علاجى يقضى على سلطان الحلاق الذى دفعه كلوت بك منذ مائة عام ليهيىء الطريق لعصر الطبيب — ومن الناحية الاقتصادية يدبر عملا لألف ومائتى طبيب — ومن الوجهة الوقائية تحسين فى الطرق التى تكتشف بها الأوبئة الآن — ومن الناحية العلمية يعطينا إحصائية موثوقا بها من الوجهة الطبية ، فتقل الحالات الجنائية التى لا تكتشف

وكذلك الدفن السرى — ففى تدوين شهادة الوفاة بوساطة الطبيب ما يرفعنا إلى مستوى البلاد الأوربية التى يمنع فيها إعطاء تصريح بالدفن ، بدون شهادة وفاة من طبيب معالج باشر علاج المتوفى لمدة ثلاثة أيام على الأقل ، قبل تاريخ وفاته ، وإلا فإنه يمتنع عن تحرير شهادة الوفاة وتتولى النيابة العامة نفسها الحالة والتحقيق فيها .

أما المعارضون فقسمان : قسم يجيز تخصيص هذه المصروفات إذا وجدت لإتمام مشروع البرنامج الصحى لإنشاء المستشفيات وحجته فى ذلك أنه بينما يوجد لسكان لندن وعددهم ثمانية ملايين نسمة ، ١٤ر٤٧٠ سريراً أى بنسبة اثنين لكل ألف من السكان ـ وفى الولايات المتحدة مليون وأربعة عشر ألف سرير أى بنسبة ٨ فى الألف ، فإن الموجود فى مصر مع كثرة أمراضها المتوطنة وغيرها ، لا تتعدى نسبته سريرا لكل ٤٨٠٠ نسمة من السكان ـ ولهذا يرى هذا الفريق أنه يجب أن يزاد عدد الأسرة لتصبح النسبة سريراً لكل ألف من السكان على الأقل .

ولإتمام هذه الغاية يجب أن ينشأ ٢٠٠ مستشفى مركزى جديد على أن يكون عدد الأسرة ٤٥ سريراً

فى كل مستشفى ، وتعمم المستشفيات القروية ليصبح لكل ثلاثين ألفا من السكان مستشفى قروى .

أما الفريق الثانى فرأى أن الوقاية خير من العلاج ، وأن أساس تحسين حالة الفلاح هو ولاشك العناية بتحسين القرى وحسن تخطيطها ، وبناء المنازل الصحية ، وتحسين غذاء الفلاح وملبسه وتوفير المياه النقية وما أشبه . وأعطى أحدهم لذلك مثلا فى قوله . ما قيمة الفائدة التى تعود على الفلاح المصاب بالنزلات الشعبية أو التهاب الرئة من إعطائه جرعة المزيج المنفس عندما يعود ليعتكف فى غرفته التى لاترى لها منفذا للهواء والشمس والملاصقة لحظيرة الحيوانات وما يحيط بها من آلاف الحشرات والجراثيم ؟ ؟

هذا مجمل ماتم بخصوص تعميم العلاج القروى فى مصر ولست راغباً فى هذا المجال أن أنتصر لفريق دون فريق ، فكلها مشروعات نافعة للفلاح . . على أننى أحبذ كثيراً أن نبدأ بالمشروعات الخاصة بالوقاية ، أعنى بإصلاح القرية نفسها وتوفير ماء الشرب فيها وغير ذلك مما جاء مفصلا فى مقالى السابق — وإلا فإننا إذا عنينا بالعلاج قبل الوقاية فنكون قد وضعنا المركبة قبل الحصان كما يعبر المثل الانجليزى .

وبعد فلا أجد ما أختتم به هذا المقال أحسن من ذلك

القول المأثور لحضرة صاحب العزة الدكتور عبد الرحمن بك عمر « من العار أن تكون قرانا بالحالة التى هى عليها الآن ، وأن يكون أهلونا فى الظروف غير الصحية التى يعانونها . ولا أمل فى الإصلاح قبل أن يشعر القرويون بحقوقهم فى الحياة وقبل أن يتقى الله أولو الأمر فى أهلنا وذوينا »

وليت شعرى هل آن لنا بعد هذه المجهودات أن نتساءل متى تستيقظ مصر من نومتها لتقوم قومة واحدة ، مطالبة بتقوى الله فى أهلنا وذوينا من الفلاحين الذين حملوا هذه الأمة على أكتافهم أكثر من أربعين قرنا من الزمان ، وهم يسفكون دماءهم يوما بعد يوم ليهبوا لنا الحياة رخيصة هادئة ويضيئوا لنا بأجسامهم المحترقة البالية طريق السعادة الناعمة الهانئة ؟ ؟ . .

وسواء عندى عرف أولو الأمر هذه الحقيقة أو تجاهلوها فإنى على يقين مما تقوله الآنسة ابنة الشاطىء : « إنه مهما طال زمن إضاءة هذه الأجسام المحترقة فلا بد أنها واصلة إلى النهاية المحزنة إذا لم نمدها بعوامل الحياة — ولنا الله يوم يحترقون ويتركوننا نتخبط فى ظلمات المجاعة والشقاء » ؟

الدكتور أبولس بولس

فى الريف المصرى

أتيح لى التجول فى بعض قرى الريف القريبة من القاهرة لا لغرض التنزه أو الترويح عن النفس ، بل لأستطلع حال الفلاح المصرى على صدى ما كتبته الأديبة الفاضلة « ابنة الشاطىء » على صفحات الأهرام الغراء ، ووصفت فيه حال هذا الفلاح البائس ، مناشدة أولى الأمر معاونته بقدر المستطاع ، تخفيفاً لما يعانيه من ضيق وعوز ، وما يقاسيه من شقاء وألم ! ! .

شعرت بالألم يحز فى جوانب نفسى حينما طالعت مقالات الكاتبة الفاضلة ، ولكنى شعرت باضعاف هذا الألم حينما شهدت الريف بنفسى ، ولمست الحال فيه عن كثب ، وليس الخبر كالعيان ! !

خيمت على الريف سحابة سوداء حالكة الظلمة ، فأظلمت الدنيا فى أعين أهله من جراء ما يقاسونه فى حياتهم من فقر مدقع ، وعوز شديد ، وليت الضنك انتهى عند

نشرت فى الأهرام فى ١٣ من يوليو سنة ١٩٣٥

هذا الحد ، فقد شاء إلا أن يقضى على الفلاح قضاء عاجلا سريعاً ، فرماه تحت عبء ثقيل من الديون وفوائد الديون التى اضطر إلى استدانتها ليدفع الضرائب ، والضرائب فى الريف سيف مسلط على الرقاب ، فأصبح الفلاح بعد أن باع أرضه ومواشيه مديناً بدين يزداد يوماً بعد يوم ، وهو بجانب ذلك لا يجد ما يسد حاجته هو وأطفاله التعساء ، الذين يشاركونه نصبه طيلة اليوم فى أشق الأعمال ، وتكاد الشمس تذيب لحمهم وعظامهم ، يعيشون عيشة ضنك ويذوقون الشقاء ألواناً !! .

فأية حياة هذه ؟! . . .

نحن هنا فى المدن نلهو ونمرح والفلاح يئن ويتوجع . نحن فى المدن نحيا حياة البذخ والإسراف ونعيش من عرق الفلاح ، نأكل أطيب الأنواع ونشرب القراح ، والفلاح فى الريف لا يجد ما يسد به جوعه . نحن فى المدن نحيا حياة صحية نتمتع بالهواء والشمس والفلاح فى الريف تفتك به الأمراض والحميات !!!! .

عبسى متولى

الى ابنة الشاطىء

لا يسع فلاحا مثلي يطيعه القلم قليلا إلا أن يشكرك من صميم قلب القرية فها نحن هؤلاء كما تعلمين صائرون إلى الفاقة بل أصبحنا فعلا فى مجاعة شاملة ، نرى آثارها فى تلك الأجساد الهزيلة ، والقوى المهدمة التى تعمل الآن فى القرية والتى يمنعها من النزوح للمدينة ، ما بقى فى النفس من عزة وحياء سوف لا يلبثان أن يزولا تحت ضغط هذا الفقر اللعين .

الحقيقة يا آنسة أن الأرض هى هى ، ولكن الذى أشقانا هو أن نفقتها أصبحت أكثر من دخلها ، حتى أمسينا لا نستفيد منها شيئاً فجعنا وعجزنا عن الخدمة الصادقة فكثرت الآفات ، وضعفت الأرض ، واشتد الكرب ، والأمر لله .

وقد عرفنا فى أحد مجالس أجران قريتنا المتواضعة ، عرفنا الداء وصورناه ، فإذا به على حد إدرا كنا معقول .

نشرت فى الأهرام فى ٣ من يوليو سنة ١٩٣٥

الداء ياقوم هو الغلاء فكل شيء فى هـذا البلد غال ، ولا سبب فى ذلك إلا الضرائب الفادحة التى فرضت على مختلف الوارد والإنتاج ، فانظروا إلى ثمن البذرة والسماد والتقاوى فإذا بها لا تتناسب مع غلة الأرض، ثم انظروا إلى حاجات الفلاح نفسه ، فالمنسوجات والبقول بأنواعها غالية ولا سبب لذلك إلا الضرائب التى أضافها التاجر بدوره على الأثمان ، فأصبحنا أمام الحقيقة والمعنى الصحيح ، وهى أن تلك الضرائب فرضت على الفلاح .

قد تأثرت كل الميزانيات كبيرة وصغيرة خلال الأزمة الطاحنة إلا ميزانية الحكومة فهى تحمد الله على هـذا التوازن الذى جاء عن طريق الضرائب ، على الجمارك ، على الإنتاج ، على كل الموارد ، حتى صيرتنا فى ما نحن فيه من بؤس وشقاء .

فاذا لم تفكر الحكومة فى تخفيف هذا العبء الثقيل واستمرت على هذه الفروض لتسد المطالب المختلفة ، تلك المطالب التى لا تخفى على كل وطنى غيور ، فعلى الدنيا السلام .

(ابن القرية)

صورة ريفية

إلى الآنسة الفضلى ابنة الشاطئ

لم أنس تلك الساعات التى قرأت فيها مقالاتك الحزينة عن الريف الجميل المغبون ، تلك المقالات التى أثارت فى نفسى ذكريات دفينة ما زالت تتجدد كلما خلوت بنفسى وجمعت أشتات حسى .

منذ أعوام ثلاثة ، كنت قد خرجت من أحد الامتحانات العامة مكدودا متعبا . فزين لى أحد الأصدقاء أن أسافر إلى الريف ، حيث هواء الحقول المنعش البهيج يتضوع بشذا أزاهير القطن الصفراء التى تحمل إلى مرضى القلوب والأجسام رسالة الشفاء .. رسالة العزاء والسلوى .

وكان الوقت ليلا حينما ركبت القطار لأول مرة إلى الريف المصرى الساحر ، وجاء صديق يودعنى ، وكان وداعا حارا مؤثرا فدهشت وقلت له متعجبا :

ـ مالك تودعنى هكذا وكأنى ذاهب إلى حيث لا رجعه .؟

نشرت فى الأهرام فى ٢ من يوليو سنة ١٩٣٥

فقال ـ لأننى لن أراك قبل مضى شهرين !

قلت ـ عجبا .. ومن أنبأك بهذا ؟ .

قال ـ الريف ياصديقى، الريف . . إنه كريم مضياف . سوف يحتويك بين ذراعيه ويطوف بك ليريك لونا جديدا ساذجا من ألوان الحياة . . . سوف يسمعك من حفيف الأوراق الذابلة المتساقطة وغناء الرعيان وبكاء النواعير وأهازيج عذارى القرية أروع موسيقا علوية شجية تذهب كوامن الآلام والأشجان من النفوس المكدودة الخائرة .

فقلت ـ حسنا يا صديق . . . هذه بداية طيبة ، إلى الملتقى .

وتحرك القطار واختفى وهو يلهث فى جوف الليل البهيم .

وفتحت لأول مرة نافذة حجرتى المطلة على الحقول المنبسطة كالبساط النضير ، فداعبنى هواء الليل المبكر وأرسل فى نفسى رقة وحنينا ، وأفاض فى ذهنى أحلاما غامضة لذيذة هى آمال الشباب الواثق الوثاب . . ورحت أستنشق نسيم الليل بنهم شديد، وبين حين وحين أرفع بصرى إلى القمر الفضى الساطع الذى أخذ يظهر تارة

ويختفى أخرى بين طيات السحاب المتناثر .

وأخذت أتطلع إلى الأفق البعيد فأرى غابات النخيل الباسقة تتراءى لى عن بعد بأغصانها المدلاة كشعور العذارى وكأنها أشباح من الجن تتراقص .

وطرق سمعى صوت غناء خيل إلى أن نفسى المضطربة قد تلاشت تحت تأثير سحره . . . وأن تلك النبرات العذبة الحنون التى يحملها إلى نسيم الليل ، والتى تنساب فى هدوء وسكون إلى أذنى المرهفة ، قد طغت على روحى فأفنتها ، وأغلقت النافذة وقد عزمت على الذهاب إلى مصدر الغناء ، وبادرنى صوت أجش مكدود :

ـ من هناك . . . ؟

فقلت ـ ضيف .

فأجاب الصوت على الفور وقد أخذته نخوة العروبة :

ـ يا مرحبا بالضيف يا مرحبا . . . تفضل .

وكان مضيفى شيخا اشتعل الشيب فى رأسه ، جالسا إلى منتصفه فى حفرة من الطين ، منحنيا على طنبوره يديره بسرعة غريبة ليرفع به الماء من النيل إلى الحقول العالية المنزرعة .

قال ـ مرحبا . . أمن القاهرة . ؟

قلت ـ أجل .

قال ـ أنعم بك وأكرم .

قلت ـ شكرا . . وأنت ؟

قال ـ من هنا .

قلت ـ ألم تر القاهرة ؟

قال ـ كلا ، ولم أخرج من بلدتى قط !

قلت ـ كيف ؟ أليس عندك متسع من الوقت لتزورها ؟

وضحك الشيخ الريفى ضحكة جافة . خيل إلى أنها أشبه بقهقهة أمواج النيل المتلاطم بجانبه ، ثم قال :

متسع من الوقت . . نحن قوم كتب علينا الشقاء فى لوح المقادير من ضجعة المهد إلى رقدة اللحد .

قلت ـ ألهذا الحد . ؟ !

قال ـ نعم وأكثر من هذا الحد .

قلت ـ إن من كانت نفسيته هكذا لا يرفع عقيرته بالغناء ؟

قال ـ كم ترى من ابتسامات مشرقة تلوح على شفاه بدية لكن القلوب تزخر بالزفرات والآلام .

قلت ـ حدثني عن نفسك . . . عن عملك وعن قطنك ؟

قال ـ أما عن نفسى فكما ترى . . . ففقر مدقع وعيش كفاف وقوت بقدر البلاغ ، أما العمل فهو كفاح دائم مع قوى الطبيعة فتارة مع الماء والهواء ، وتارة مع الأرض المغلة . . فالريفى منا يستيقظ قبل أن يبزغ النهار ، يستقبل فأسه مع صياح الديكة ، ويئوب معه إلى بيته وقد جنحت الشمس إلى المغيب . . هى حياة متشابهة مملة ياسيدى تمضى على نسق واحد مرير .

أما القطن الذى أقام الفلاح بيته وأداره على هذا الحاصل ، فلم يعد له وواسفاه تلك القوى السحرية .. فنحن نأكل حبوب الأرض ونرصده وحده لقضاء الدين وأداء الضريبة وسداد العوز . . فإن بخست قيمته تزعزع البيت فألحف الدائن فى الطلب ، وأعنف الصراف فى التحصيل ، وأسرف البنك فى الحجز ، فنزلنا لهم عن قوتنا ورضينا نحن بالكسرة الجافة والماء الآسن .

قلت ـ كم أنتم بائسون

فقال بصوت متهدج : أرأيت ؟ !

ورأيت عبرة تتألق فى ضوء القمر وتنحدر فى بطء مرير على لحية الشيخ البيضاء .

فقلت بصوت حزين - أتبكى يا شيخ . ؟

فاجاب الشيخ بنبرة فيها رنة البكاء .

« أبكى . ! ؟ كلا ، إنما يجب على الرجل الذى يستحق أن يعيش فى هذه الحياة أن يتعلم كيف يتألم . »

وتنهد الشيخ بصوت هادىء غريب أشتم منه رائحة الألم الدفين .

(عبد الخالق سيد أبو رابية)



ميزانية الاصلاح وصحة الفلاح

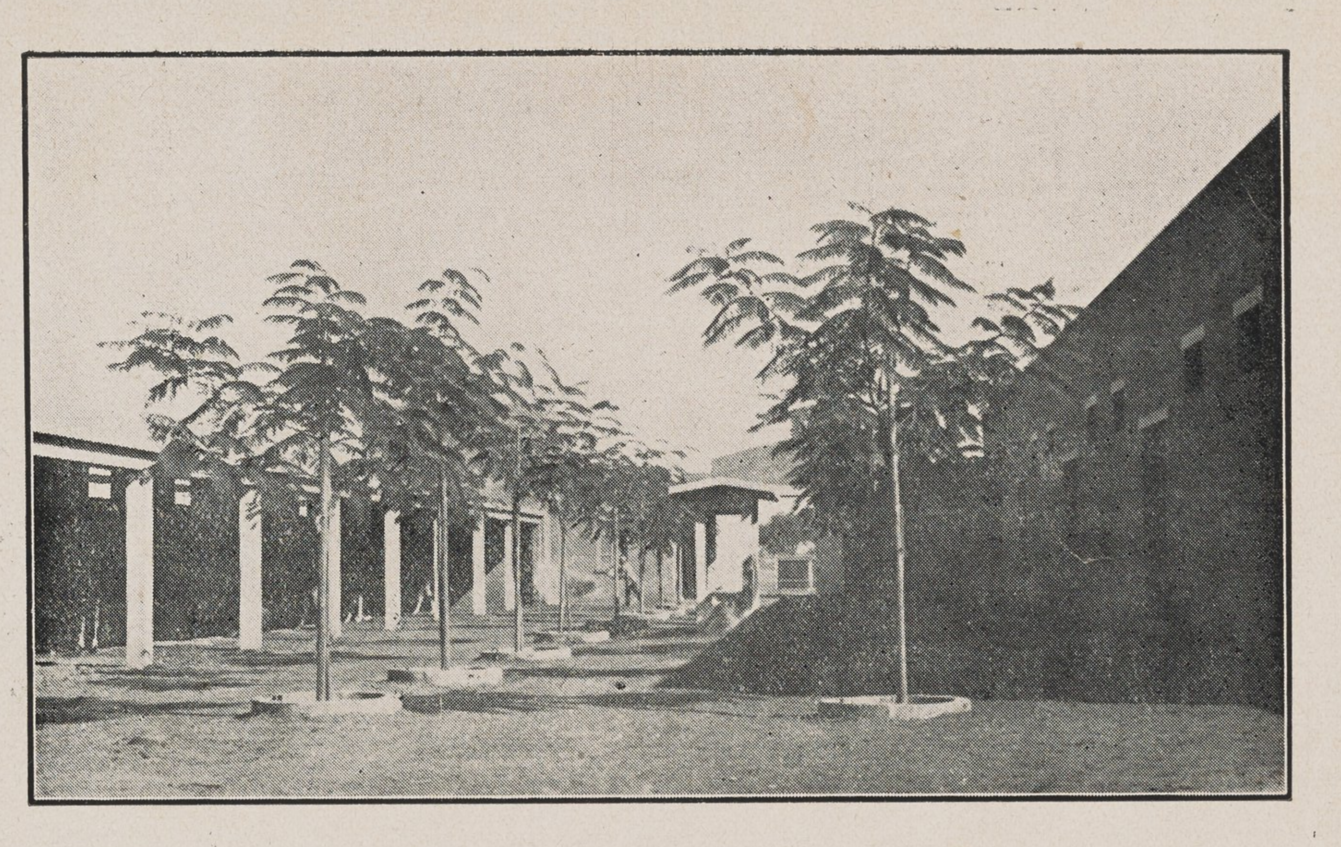
هل آن لنا أن نستيقظ ؟

« هل آن لنا أن نستيقظ ؟ ؟ .. من يدرى ! ! »

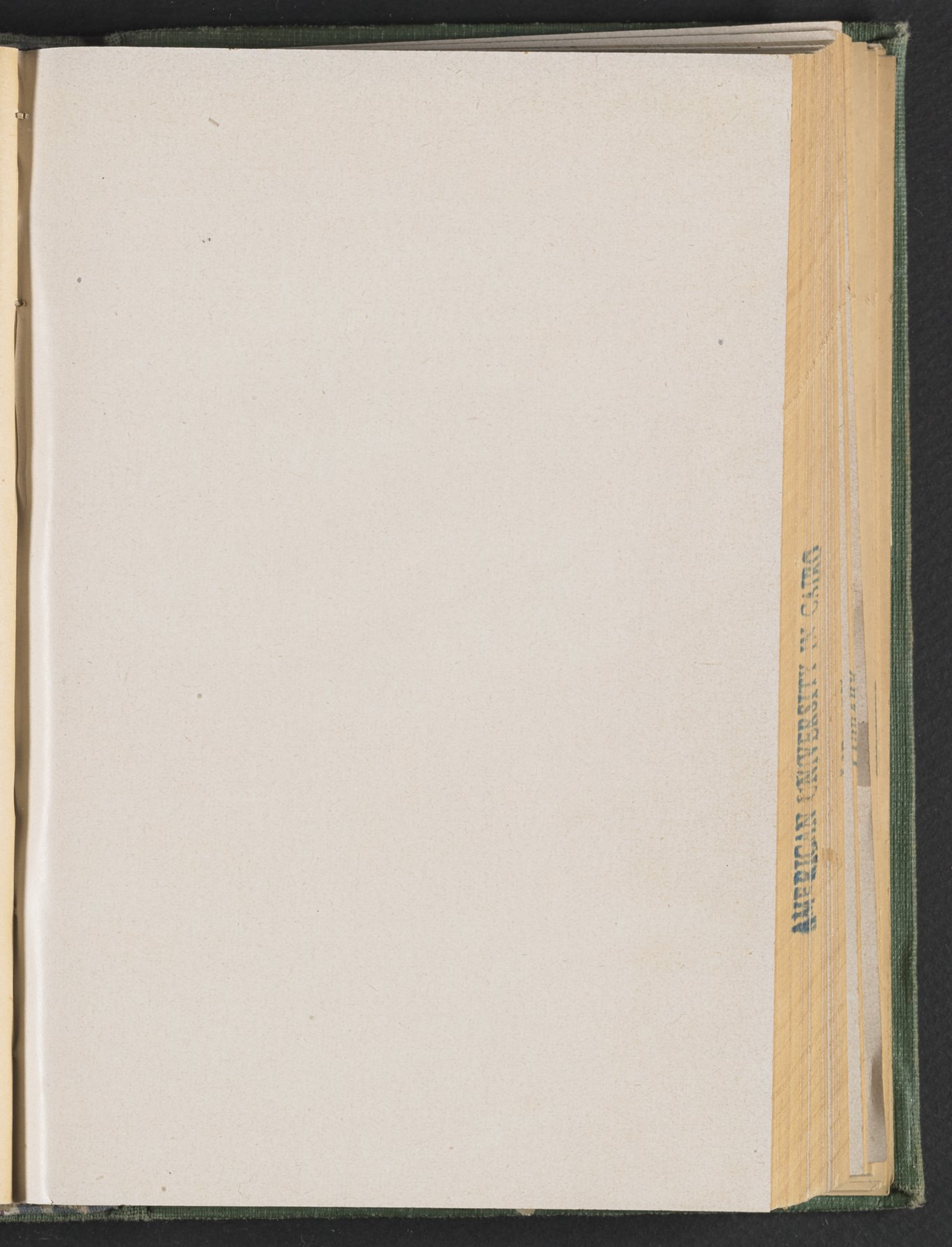
بهذا انتهت الآنسة « ابنة الشاطىء » من مقال لها .

ولقد أعدت السؤال على نفسى مراراً وتكراراً وجلت جولة واسعة راجعت فيها مجهودات الماضى القريب ، وما بذلته فيه هذه الأمة الكريمة حكومة وشعباً لإنهاض حالة الفلاح الصابر القانع . فما وجدت قياساً أصدق على مبلغ تقديرنا لإسعاد فلاحنا من ميزانية الإصلاح وما اعتمد منها خاصا بصحة الفلاح . وعقيدتى فى ذلك أن هذا المبلغ الذى اعتمد لإصلاح حالة الفلاح ونسبته إلى المبالغ الطائلة التى خصصت لمختلف مرافق الدولة ومشروعاتها ، إن هو إلا الدليل الدقيق على صحة التقدير فى إنهاض مستوى الفلاح . وهو فى الوقت نفسه جواب واف لسؤال الكثيرين :

نشرت فى الأهرام فى أول أغسطس سنة ١٩٣٥



حظائر صحية فى مزارع الجمعية الزراعية الملكية



هل آن لنا أن نستيقظ ؟ . أم لانزال عن فكرة الإصلاح بعيدين وفى نومنا فقط غارقين ! ! .

وجدير بنا ، ونحن فى مستهل الحديث عن ميزانية الإصلاح ومايتعلق منها بصحة الفلاح ، أن نعطى لكل ذى حق حقه وأن لانغمط لرجل المالية حقوقه التى يستحقها عن جدارة وإخلاص . هاهو ذا واقف يلقى كلمة لرجال المال والأعمال من الإسكندريين فى صراحة واضحة ماؤها الشجاعة وعنوانها الوفاء « أن دونكم أيها السادة ظلم الفلاح فلقد أجمعت مختلف الطبقات من أصحاب البنوك والتجار إلى السماسرة وشركاء الكبس ووكلاء الشحن وبقية من لهم الشأن فى تداول القطن فى مختلف مراحله ، على إرهاق هذا الفلاح البائس المسكين ، ولا أدل على ذلك من أن معظم المصروفات بقيت على حالها بينما تدهور سعر القطن إلى ٥٠ ٪ أو أقل . . بل أسوأ من ذلك ، إن بعض التجار قد وصل بهم الجشع إلى أن يجعلوا فوائد التأخير ٩ ٪ فضلا عن الفوائد العادية ، وهكذا اتخذوا من إرهاق الفلاح موردا للربح بعد أن عجزوا فى الحصول عليه من الترف بين أسعار الشراء والبيع . . » وهنا كان لسعادة الوزير صرخة مخلصة

محمودة جاءت مدللة مبرهنة على مبلغ إخلاصه للبلد عامة والفلاح خاصة . قال :

« إن من مصلحة كل مقيم فى هذه البلاد أن يكون الفلاح بعيدا عن أحضان اليأس ، وأن لا تبدو عليه علائم السخط ، إذ أن جهود الفلاح هى وحدها مصدر الخير والبركة للكثير من وطنيين ، وأجانب ، فمن حقه إذن أن نمنحه العطف وأن نهبه العناية الكفيلة برفاهيته ورخائه »

ولعمرى إن رجلا كسعادة وزير المالية هذا شعاره وهذا شعوره ، بل هذه مجهوداته فى سبيل رقى الفلاح لجدير بأن يلقى منا كل تبجيل وتقدير .

غير أنى لو راعيت الصراحة فى التعبير ، لقلت إن نشوة الطرب التى علتنى عندما علمت بهذه المجهودات لم تدم طويلا ، إذ سرعان ما خلفها الكثير من روح اليأس والقنوط عند ما اطلعت على القرار الخاص بمذكرة مصلحة الصحة التى قدمتها للاعتماد فى ميزانية الإصلاح للسنوات الخمس ، إذ جاء هذا القرار معولا هادما لصرح الآمال التى أملناها فى سبيل رقى الفلاح منذ أن تبوأ هذا البحث المقام الأول فى الصحف والجمعيات والمؤتمرات ، ورعيناه بكثير من المقالات

والنداءات . وإليكم نص هذا القرار حرفيا : « بحثت اللجنة طويلا فى برنامج مصلحة الصحة وتبلغ تكاليفه ٢٦ مليون جنيه وانتهت إلى القول بأن أهم ما تضمنه هو توفير المياه الصالحة للشرب وتحسين حالة المساكن بالقرى ، وذكرت أن لمشروع المياه المقام الأول ، وتقتصر تكاليفه على مليونين من الجنيهات وقد اقترحت اللجنة البدء فى تنفيذ هذا المشروع على أن ينفذ شطر منه مع برنامج الخمس السنين والشطر الآخر فى السنوات التالية . . »

كان هذا قرار اللجنة المعسول ، ورغم بلاغته الظاهرة وبيانه الرائع فقد سجلت فيه هذه الحقائق المريرة . . أما أولها فإن اللجنة لم يعنها حالة الفلاح ، فحكمت عليه بالبقاء على ما هو عليه فى زرائب هى أشبه بالكهوف أو بالقبور ، يعيش فى مستوى حيوانى بين أكداس القاذورات وروث البهائم والقمامات ، وفى وسط قريته الحالية وكل ما فيها باعث على ضعفه وسقمه بل موته وهلاكه ، لولا مسكة فيه من الإيمان والصبر وبقية من الجلد والثبات . . أما ثانيها فإنها وجهت نظرها إلى مشروع المياه فوجدت أنه يتكلف مليونين من الجنيهات وكأنى بها وقد هالها ضخامة

هذا المبلغ أيضاً يصرف للفلاح فى خلال خمس سنوات ، رأت أن ينفذ شطر منه فى برنامج الخمس سنين ، والشطر الآخر فى السنوات التالية ، أما مبلغ هذا الشطر الأول فقد ترك دون تحديد حتى طلعت علينا المذكرة التفصيلية للمصروفات فكان جملة ما خص وزارة الصحة فى الخمس سنوات هو ٨٠٨٫٠٠٠ جنيه من جملة المطلوب وهو ٢٦ مليون جنيه »

وتغنيك النظرة الواحدة إلى نسبة العددين عن التعليق على مبلغ تقدير هذه اللجنة إلى ضرورة تحسين حالة الفلاح المكدود المرهق ، الذى تعلم أنه يموت جوعا ليسعد أمته ،والذى يبذل كل ما أوتيه من نشاط وقوة وهمة ليفيض بخيره وفضله على أفراد هذه الأمة ، ويشقى بين المحراث والفأس فيحطمه المحراث ويفنيه الفأس ، وتقوم على عظامه النخرة وجسده الهزيل ثروة هذا القطر فنسعد به نحن ناكرى الجميل ،نعم فأى مظهر لنكران الجميل أشد من أن نأخذ منه ماله لنضع بين يديه بضعة آلاف من الجنيهات لإصلاح قرى القطر المصرى كله ، بينما تتمتع مصلحة التنظيم بالقاهرة وحدها بأكثر من المليون من الجنيهات !!

وينال الرى وحده ٢٠٫٢٦١٫٠٠٠ من الجنيهات ، فإذا ما قيل لى إن فى تحسين حالة الرى إصلاح الأراضى البور وتوسيعا لرزق الفلاح ، أجبت على ذلك أن الضرورة تحتم إصلاح صحة هذا العامل مع إصلاح الأرض، ودليلى على ذلك ما رآه بعض الاقتصاديين من أن السكان الذين يشتغلون بالزراعة يقفون على شفا الخطر إذا عاش ثمانمائة منهم فى ميل مربع . أما فى مصر فقد بلغ عدد الذين يشتغلون فوق الميل المربع الواحد ١٠٤٥، نسمة حسب تعداد سنة ١٩٢٧ ، وهو الآن أكثر من ذلك . غير أن هذا الخطر لم تدرك بعد حقيقته ولا ينتظر أن تزول نكبته مادامت صحة الفلاح كما هى عليه ترزح تحت عبء الأمراض والأسقام فتذهب بالكثير من قوته بل وتودى بحياته وحياة أفراد عائلته . .

إذن فكل خطوة تخطى فى سبيل تقدم حالة الفلاح، لا بد وأن تتناسب وحالته الصحية ، وهذه النظرية تنطبق على كل نواحى التقدم حتى فى نهضة التعليم ، وإليك رأى سعادة وزير المعارف فقد قال : « إن نهضة التعليم لا تكون مجدية إلا إذا صحبها إصلاح اجتماعى وخاصة فى الشئون

الصحية ، فقد ظهر من التقارير الطبية عن الفلاحين وأبنائهم أن الأمراض تنهك قوى أجسامهم وعقولهم فتؤخر نموهم وتقلل من ذكائهم . »

ولقد عرفت هذه الحقيقة أمم العالم فوضعت نصب عينيها راحة الفلاح أو العامل البسيط وإنهاض حالته الصحية كأساس أولى من أعمال حكومتهم . فأية أمة تريدون أن أقدم لكم مثلا ؟؟ انجلترا وقد صرفت أربعمائة مليون جنيه فى عشر سنوات لتحسين مساكن الطبقة العاملة فى المدن والقرى وهم مع ذلك غير قانعين بهذا القدر ، فقد ألقى السيد هلتوبونج وزير الصحة فى ٢٦ من نوفمبر الماضى خطبة خطيرة طالب فيها الحكومة والشعب بالإكثار من المبانى للفقراء ؟ .

أم فرنسا التي صرفت نيفا ومليارين ومليونين من الفرنكات فى خلال ثلاث سنوات للغرض نفسه ؟ . أم ألمانيا التى شيدت حكومتها ملايين المنازل لفقرائها وعمالها وفلاحيها . . وما أن قدم شهر مايو المنصرم حتى هرع وزراؤها وكبار الرجال فيها وعلى رأسهم الهر هتلر على متن طياراتهم يجوبون مختلف القرى ليقفوا بأنفسهم على سعادة

أهليها ويشاركوهم فى عيد الفلاحة، حتى إذا ما وصلوا إلى بلدة جسلار ، وهى قاعدة الفلاحين الألمان ، تقدم بعض من فلاحيهم وأهدى للزعيم صندوقا جميلا من الفضة المأخوذة من جبل راملييير يحتوى على وثيقة انتخابه فلاحا وطنياً فى بلدتهم . وإليك ردالزعيم الدال على مبلغ تقديره الفلاح ، « إنى أشكركم الشكر كله على هذا الشرف الذى أوليتمونى إياه وأؤكد لكم فى اغتباط كلى أن أحسن لقب يمكننى حمله هو لقب فلاح ألمانى » ـ قارنوا هذا التقدير للفلاح بتقديرنا له ، ونحن إذا ما أردنا أن نصف أحداً من الناس بكل نقيصة موجعة قلنا له فى هزء وسخرية « أما إنك فلاح ! ! »

بل مالى أقسو على هذه الأمم الغريبة فاقارنها بأمتنا ! لنتركها فالبون بيننا شاسع والفارق أعظم من أن يقارن ، دعونا نيمم نظرنا نحو أمم الشرق فنرى تركيا التى أمدت كل فلاح يهدم بيته القديم بمال يبنى به بيته الجديد ، وقسطت السلفة التى قدمتها له على مدة طويلة تسمح له بسدادها من غير فائدة ، وأنشأت فى كل قرية ، البيت النموذجى الذى يجب أن يقوم البيت الجديد على مثاله.

وها هى ذى العراق وقد جاء فى أنبائها أن دور الفقراء التى قررت أمانة العاصمة تشييدها لسكنى الفقراء ، على وشك الانتهاء ، ولهذا أوعزت إلى مأمورى الأقسام بتسجيل الأسر الفقيرة ، وتقديم قائمة بها إلى أمانة العاصمة .

بل انظروا إلى الصين وتعجبوا ، ها قد قام زعماؤها المحنكون فوازنوا بين جميع وجوه التقدم فى نواحى الحياة القروية ، فحللوا مشاكل الريف إلى الجهل ، وقد تولاه المستنيرون ؛ والضعف الجسمانى ، وقد تولاه الفسيولجيون ؛ والجشع ، وقد تولاه الأخلاقيون ؛ والفقر وقد تولاه الاقتصاديون ؛ ثم قاموا متكاتفين فبذلوا الكثير من مجهوداتهم وأموالهم لإنهاض حالة قراهم ، وإن ما يبدونه من الشجاعة فى هذا السبيل لجدير بالتنويه وداع إلى الإعجاب . ولو أننا منذ قيام نهضتنا خصصنا نشاطنا لإصلاح قرانا لأقمنا الدليل للعالم كله على أننا أمة تعنى بإصلاح نفسها بنفسها ، ولجاءنا بعد ذلك الاستقلال طائعاً مختاراً ، ولكان هذا الاستقلال وطيداً متيناً ثابتاً لا تزعزعه العواصف ولا تعبث به الرياح .

(دكتور أبواسى بولس)

كلمة اخيرة

كلمة أخيرة

تحدثت طويلا عن شقاء الفلاح ، ولكن هناك أشياء أخرى لم أتحدث عنها ، أقسى وأشد إيلاماً ، يخفيها عن عيوننا ضجيج الحياة ، وانشغالنا عن الريف بمشاغلنا المعروفة .

إن الفلاحين فى مصر ، ضحايا ، نلهو عنهم وهم يهيمون فى شقائهم ، ويتخبطون فى ظلام أليم .

مشاكل القرية متعددة ، وهى تقتضى إصلاحاً متشعب النواحى ، وأعرف أن المال هو العقبة التى تعترض سبيل الإصلاح ولكن هل من العدل والرحمة أن نسكت مطمئنين عن شقاء الفلاح ، لتشعب نواحى الإصلاح ولقلة المال ؟ لقد تغافل السابقون عن الفلاح ، فلو تغافلنا نحن أيضا ، كان معنى ذلك أن الفلاح قد قضى عليه بالموت ، وكتب له أن يرسف إلى الأبد فى أغلال شقائه ومرضه وفقره .

نحن لا ينقصنا المال متى توفرت لدينا العزيمة الصادقة على الإصلاح ، ومتى شعرنا بشقاء الفلاح .

كل ماذكرته عن شقائه ، لا يكفى لأن يضع أمام حضرات المسئولين صورة صادقة تجيد التعبير عنه ؛ لكى نفهم هذا الشقاء ، يجب أن نتجول فى القرى ، وأن نرى بعيوننا حالة الأشقياء المجاهدين .

فداحة هذا الشقاء ، وخطورة تأثير تهدم الفلاح فى مستقبل الأمة وحياتها ، يطلبان منا إصلاحا عاجلا ، ولنذكر أن نهضتنا القومية ، لا يعقل أن تقوم على غير أكتاف الفلاح ، فمهما ارتقت صناعتنا فإنها ستقتصر حتما على الاستهلاك المحلى وبعض الأسواق الشرقية ، وكل الأمم قد سبقتنا فى هذا الميدان ، ومن الحمق أن نظن أن صناعتنا ستقتحم الأسواق الأجنبية يوماً ما ، وإذن فكل عنايتنا بالصناعة يجب أن يقصد بها سد حاجة الاستهلاك المحلى ، بينما حاصلاتنا الزراعية تملأ الأسواق الغربية ، ولن يسهل الاستغناء عنها ، لأن الحاصلات المحلية فى أية مملكة ، يعتمد تداركها على الطبيعة قبل أن يعتمد على المهارة والعلم ، وقد حبتنا الطبيعة أخصب أرض فى العالم ، ونهراً نفث السحر فى الصحراء فأحالها جنة ناضرة وبعث فى جدبها روح الحياة ، وظروفاً جوية ملائمة ، فثروتنا من الزراعة وستظل كذلك

ماعبد الله فى الأرض ، ولكن مافائدة الذهب فى باطن الأرض إذا لم يوجد من يخرجه ؟ وبالمثل مافائدة البيئة الزراعية العجيبة إذا تهدم الشخص الوحيد القادر على استغلالها ؟

المنتجات الزراعية فى مصر ، تفيض عن الاستهلاك المحلى ، وتشق طريقها إلى الأسواق العالمية ، وهذا يقتضى أن يظفر الفلاح بأكبر نصيب من جهودنا واهتمامنا .

لقد اطمأن الناس جميعا إلى عدالة دولة نسيم باشا ، واستطاع كل مظلوم أن يسترد حقوقه ، فظفر المحامون والعمال والمفصولون ، بعطف الرئيس ورعايته ، وبقيت فى المؤخرة ، تلك الفئة الشقية المجاهدة ، لاتقوى لضعفها على بسط مظلمتها ، أفما آن لها أن تظفر بحقها فى الحياة ؟ !

لقد بلغ مجموع الحجوز الإدارية ، التى وقعت بمراكز مديرية أسيوط وحدها فى هذا العام ، نظير الأموال الأميرية المتأخرة ، ١٨٥٠٠ حجز ، ومعنى هذا أن مايقرب من عشرين ألف أسرة خربت فى مديرية واحدة !

***

فى الغد . . . حين يهتم أولو الأمر بإنشاء مستشفيات لأخينا الفلاح قبل الأبقار والحمير ، وإقامة معارض لتحسين نسل الفلاح الإنسان بجانب معارض تحسين إنتاج الخيول والجاموس ، وتشييد عشرات المستشفيات المتواضعة الوافية بالغرض بدلا من مستشفى واحد أنيق . . .

فى الغد . . . حين يشعر الجميع بشقاء الفلاحين وبؤسهم ، وحين نذكر جميعا كلما قبضنا المرتبات الضخمة فى أول كل شهر ، أنها من عرق أخينا الفلاح الجائع المنكوب . . .

فى الغد . . . . حين يجلس سادتنا الأغنياء الذين يفرون من الريف ، وشباننا المترفون الذين يجهلون واجبهم نحو الفلاح ، حين يجلس هؤلاء وهؤلاء إلى موائدهم المحملة المثقلة بالطعام الأنيق ، فيعترضهم شبح الفلاح ابن مصر البار ، ممسكا ببطنه حتى يهدئ ثروة أمعائه ، ومتمارضا حتى يترك لأبنائه اللقيمات الجافة ، بينما يعمل دائما فى إعداد الوليمة الفخمة للسادة الأغنياء والشبان الوارثين . . .

فى ذلك الغد الذى أرجو أن يكون قريبا ، يتحرك قلم التاريخ الواقف بالمرصاد ليسجل : وتحررت مصر من

رياٴها العجيب ، فأدركت أخيرا أن الإنسان أكرم من الحيوان ، وأن الترف والتأنق لا يكونان بجانب الجوع والمتربة والشقاء ، فغمرت القرى موجه من الإصلاح ، أتاحت حياة ممكنة للفلاح المصرى ، الذى ظل قرونا عدة يرزح تحت أعباء ثقال من شقاء يصعب وصفه وتصوره ، فبزغت من الريف أشعة من القوة والمجد والثراء ، غمرت الوادى كله ، مؤذنة بانبثاق فجر النهضة من جديد ، ومؤذنة بيوم صحو جميل ؟

ابنة الشاطىء



قريبا يصدر كتاب

وحى الشاطئ

شعر — قصص

بقلم

الآنسة ابنة الشاطىء

فانتظروه !

الفهرست

فهرست الصور

حارا . حياة الانسانية الحقة من ترجمة حجة الاسلام أبو حامد الغزالى وما كان له من نشأته وتاريخ ميلاده وسفره الى نيسابور وتلقيه العلم وانتقاله الى بغداد وقيامه بمهمة التدريس بها وكيف مرض حتى فارق بغداد

وصف مسهب بكيفية اشتغاله بالرياضة والمجاهدة وأهم ما اختص به هذا الكتاب

(١) حياته الحافلة بكل مظاهر العظمة والجلال

(٢) الآراء الفلسفية والعلمية من كل نواحى الحياة والعلم والدين

(٣) مصنفاته ومغزاها والمواضيع التى صنف فيها وحسبك من ذلك حسن اعتقاده وسداد رأيه وبيان حجته وواضح برهانه الى أن اجتباه الله لجواره ويطلب من مكتبة الوفد بمصر

آثار الزعيم الراحل

سعد زغلول باشا

جمعها ورتبها . الكاتب الأديب محمد الجزيرى . كتاب نفيس من أروع الكتب الوطنية بيانا تصدى للاشارة ببطولة سعد باشا ووطنيته وحلل نفسيته العالية فى عظمته الخالدة وما وهبه الله من المواهب الفذة فى شخصيته السامية وأثبت أنه من أولئك الأبطال العظام الذين أنجبتهم العناية وجاء فى هذا الكتاب الشىء الكثير من مزاياه القوية بأسلوب فلسفى بديع جذاب غاية ما تعيه القلوب وتهيم به النفوس وفصل مواضيعه إلى كلماته الساحرة وحكمه البليغة وخطبه الرائعة

وآثاره الباقية التى تتداولها الأحقاب من عصر إلى عصر ومن جيل إلى جيل . والكتاب محلى بصور كثيرة للزعيم الجليل تمثله فى الحوادث التاريخية والمواقف الخطيرة وبالجملة فهو من النفائس الأثرية التى لا يستهان بها . طبع طبعاً متقنا على ورق جيد . ثمنه ١٥ قرش ويطلب من مكتبة الوفد

مصر الحديثة

قبل الاحتلال البريطانى وبعده

بقلم المرحوم عبد العزيز بدر

ثمنه عشرة قروش صاغ

يعتبر هذا الكتاب من أجل الكتب التى عالجت موضوع الحالة المصريه من كل نواحيها بأسلوب باهر وإسهاب واف وتصدى للنهضة الحديثة فجاء بكل أسبابها وشرح ما هنالك من ظروف هذه الأهوال شرحا مستفيضا ما ترك فيها كلمة لقائل مطبوعا على ورق جيد

اسماعيل أو فى ظلال الاهرام

رواية أدبية تاريخية مصرية ثمنها ٥ قروش صاغ حدثت فى عهد المغفور له الخديوى اسماعيل تمثل ما كانت عليه مصر فى ذلك العهد وتصف الحالة الاجتماعية والعمرانية وما كان عليه الخديوى من العظمة والجلال وتلم بالشؤون المصرية من كل نواحى الحياة الأدبية والسياسية وناهيك بحوادث ذاك العصر الحافلة بكل مظاهر المجد والبذخ والاسراف والميول المتجهة إلى الحب تجد كل هذه المفاخر مفصلة فى هذه الرواية

تفصيلا وافى الشرح بلغة سهلة بديعة المعانى . وضع هذه الرواية كاتب أمريكى وجاء فيها بوصف معاين فذكر الحقيقة التى لادخل للخيال فيها وقام بتعريبها الكاتب الأديب محمد موسى ابراهيم فجاءت فى ٣٤١ صحيفة ولاعجب اذا طلبنا من جمهور القراء مطالعتها ليروا ما انطوت عليه من الأسرار الرائعة والحوادث التى لا تخطر على بال .

عبد الرحمن الناصر

وثمنه ٥ قروش صاغ

رواية أدبية غرامية تاريخية تمثيلية : مثلت فى الأوبرا الملكية تشتمل على وصف بلاد الأندلس وحضارتها وعادات أهلها فى زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر الأموى سنة (٣٠٠ - ٣٥٠ هجرية) وما بلغت اليه دولته عن المتعة والسيادة وما بناه من القصور الفخمة وكيف كان يحتفل باستقبال ملوك أوربا بالهدايا وما كان من خروج ابنه عبد الله يطلب ولاية العهد لنفسه دون أخيه الحكم إلى غد ذلك بقلم عباس علام والرواية مطبوعة على أحسن ورق وأنظف طبع وتطلب من مكتبة الوفد

عمرو بن العاص

صحيفة خالدة من مجد العرب واتحاد المصريين رواية تمثيلية من أمتن الروايات المرسحية وضعا وأسلوبا ولا عجب إذا قلنا أنها صفحة من التاريخ بل هى مظهر من دولة العرب احتواه مظهر من دولة الأدب وصورة من اتحاد الأمة المصرية فى ثوب قشيب من البلاغة العصرية . وسحر البيان الفتان وضعها الكاتب الأديب

اسماعيل عبد المنعم . واعتمد فى تأليفها على أصدق المدونات التاريخية المصدوقة من أخبار الفتح الاسلامى لمصر وقد أفتن وأجاد فى وصف الحالة النفسية التى كانت تهتاج المصريين فى ذلك العهد وتصوير العواطف الأخلاقية التى هى مادة مجد العرب والرواية من حيث أسلوبها وساحر بيانها على غاية من الروعة والبلاغة لا بل أية من آيات القلم البليغ .

ثمنها ٣ قروش صاغ ورق خشن و ٥ قروش ورق ناعم
تطلب من مكتبة الوفد بباب اللوق

جوكاست

تأليف الكاتب العظيم اناتول فرانس

تعريب الأستاذ عبد المنعم حسن

الثمن ٥ قروش صاغ

ان هذا الكتاب من أغرز الكتب مادة متين لوضع بديع الأسلوب هو الوحيد من نوعه وهو أول كتاب ألفه هذا العبقرى الكبير فى فن القصص العصرية

الكونت فولفان اوارسين لوبين

رواية أدبية غرامية بوليسية ثمنها قرش صاغ وهى سامية الخيال مدهشة الوقائع بديعة الأسلوب مسترسلة الحوادث فى قالب سحار يملك على القارىء مشاعره يقع فى جزءين

مختار القصص

بقلم الاستاذ كامل كيلانى

الأستاذ كامل كيلانى كاتب كبير من أدباء مصر والشرق وهو شاب ورع كثير الحركة والنشاط وافر العقل شديد الاحساس على جانب عظيم من الرزانة والفضل وهو مؤلف قدير اخرج للناس جملة مؤلفات أصبحت ذات شهرة ذائعة ونالت رواجا باهرا فى عالم الأدب وهو من اولئك العلماء الذين تتحول الفكرة فيهم الى احساس دافق والمبدأ الى عاطفة مستفيضة . وهاهو فى مختار القصص يتحف عشاق الأدب بنفثات يراعه فيصور لهم على صفحات كتابه مطالب الحياة السامية فى صور محسوسة . فلم تكن هذه القصص من أوهام الخيال ولكنها من الحقائق الواضحة التى تكاد تثب من بين السطور وتظهر أمام القراء لتعيد لهم حوادث القصة على مسرح الحقيقة ناهيك بما هى عليه كل قطعة من روعة وجلال تختال فى ثوب قشيب من البلاغة وسحر البيان . وكفاها تقريظا ارتياح جمهور القراء اليها واقبالهم على مطالعتها بشوق وشغف وهذه القصص على ما فيها من حكم (مؤلفة ومعربة) مزينة بالصور البديعة التى تزيدها بهجة ورواء تقع فى ٢٥٤ صحيفة من القطع الكبير على ورق جيد ثمنها ٦ قروش صاغ

٢٠٠

١٠٨ بهشتي

١٢٩ حروب الصليبي عند سر المقدوة

١٥٠ قلة التقاوي - الزراعة المتوسط

